عبدالفتاح عبدالعزيز

رواية

آربوس 2

ARBOS

بُقعَة الحُوريَات

ساحر الكتب

تَشكِيل للنَشر والتَوزيع

«لو خيّروني بين زوال الطغاة، أو زوال العبيد لاخترت بلا تردد زوال العبيد، لأن العبيد يصنعون الطواغيت ولا يصنعون الأوطان».

ابن خلدون

مقدمة

في تلك الأوقات ومنذ قاعدة إجهاض الوافدات، ومن بعدها حين أخذت المعاملة تزداد سوءًا، التجأ بعض الوافدين إلى الهرب نحو هذه السلسلة الجبلية، مكونين مجتمعًا موازيًا منعزلًا في جماعاتٍ بدائية كتلك التي بدأت بها الحياة على أرض آربوس، لكن دون تقاتلٍ على العمر، وصار يلحق بهم من يسمع عنهم من الوافدين الذين يستقر بهم الحال في آربوس بعد قدومهم من البحر ويستطيعون الهرب، أو يصلهم من البحر مباشرةً قبل أن يقع في أيدي السلطة الموحدة القائمة وقتها.

لم يتعقبهم أحد لدى الجبال في بادئ الأمر، وأخذوا يتناسلون دون رغبةٍ في العودة هم وأبناؤهم وأجيالهم المتعاقبات خشية قاعدة السنوات السبع، لأن من لا يملك صك المعمر الذي يُمنح بالمملكة عند مولد الجنين ويُثبت أنه مولود من أبوين معمرين يعتبرونه وافدًا من البحر مهما ادعى غير ذلك، وتطبق عليه القاعدة منذ أن تطأ قدماه المملكة.

يوم الملكة

(مارينا)

لم يراودني النعاس عن عقلي طوال ليلتي التي أخذت تنهب الساعات بلا هوادة؛ باكرًا سيعدمون يوسف، ذاك المارق الذي جعل للوافدين العبيد مملكة كما يدّعون هنا، أو رفيقي من أرضٍ غريبة لا أذكرها مثلما يحكي، أو حبيبي وفقًا للوعة قلبي عليه.

بثُّ أنظر طويلًا نحو صغيري جاد الراقد فوق مهده الملاصق لفراشي، كأنني أحادثه بينما يغط في نومه: «لولاك لهربت نحو يوسف، أينما كانت أرضه وحيثما أظلته سماء عوضًا عن الإيقاع به -مرغمة- نحو حتفٍ ما أسلمه إليه سواي»، قبل أن أبتسم بمرارةٍ امتزجت بقطرات دمعي الساخنة، وأخبره أنه لو اجتمع العالم في كفةٍ وبقيت وحدك في الأخرى لاخترتك يا صغيري، بالأخير تثاقلت إلى شرفةِ غرفتي الفسيحة أمامي، لأقاوم ضيقًا اعترى صدري، صرتُ أعبّ الهواء في شهيقٍ مضطرب، أزفر باستسلام، ثم مسحت بأطراف البنان مدامعي لأرى القمر المكتمل بقلب السماء المظلمة، ناظرته بعتابٍ صامت وكلمات لا تفارق حلقي:

«لو ما اكتملت لما حل يوم آربوس الذميم مسرعًا لينهي طمأنينة لبثث أشعر بها لوجود يوسف بدنياي حتى عندما كان عدوًا بعيدًا ينازع صغيري على مملكته.

لو ما اكتملت لظللت أنشد يومًا أتحرر فيه من كيد زمرة تحيطني وآخذه إلى كنفي، ليبدد وحشة هذه الأرض التي ما استكنت لها يومًا ولا لأهلها.

لو ما اكتملت لما تبددت آخر آمالي في سكينة».

بعد طول ملام همت بنظري نحو فناء قصري الذي تبعثرت فيه مصابيح زيتية لها ضوء أصفر، من ثمّ جاوزت أسوار القصر إلى مباني آربوس الشمالية وشوارعها، موقنة أنني لم أبتغِ كل هذا المُلك، بل جُل ما حاربت لأجله هو الحفاظ على صغيري من سطوة الطامعين في القفز على مُلكه وإقصائه، وغيرهم من الطامحين في القوة والسلطة تحت ستار حُكمه، الأولون يريدون هلاكنا، والآخرون يبتغون طول بقاء لنا تحت وصايتهم ليقضوا مآربهم، لو امتلكنا منهم جميعًا الفرار لهربنا زاهدين في مُلكهم، لكنهم لبثوا يحيطونا وبقينا نهادنهم، نحاول ألا نُظهر استسلامًا أو جزعًا، بينما نتدثر بشرعية حكمنا، ذلك إلى أن وضعوني أمام الاختبار الأصعب حينما أجبروني على الإيقاع بيوسف.

أطلقت زفيرًا حارًا وعاودت الدموع تحرق مقلتيّ حينما لاحت لذهني ساعة الإيقاع به، حين أخذ يصرخ مخافةَ أن تصبني سهام جنده، غير مدركٍ لكوني من أوقعته بذاك الشرك وسقته إلى هذا المصير، قبل أن أبتسم رغم تدفق عبراتي عندما تذكرت ابتسامته الواثقة، ومحاولاته لتهدئة روعي أثناء لقائِنا بمحبسه الأخير، لما احتضنته قائلة: «أعرف أنني أحببتك يومًا ما، هذا ما يمليه عليّ قلبي، بل أعرف أنه لا زال ينبض بحبك».

صرتُ أسترجع اللحظات القليلة التي عايشتها إلى جواره منذ لقائِنا الأول بمجلس الملك زايد، زوجي الراحل الذي لم أعرف عن حياتي شيئًا قبل مجيئي لقصره، تذكرت حين قلت له: «من أنت؟ لقد رأيتك في أحلامي من قبل»، ليرد بدموعه قائلًا: «أنتِ إسراء، حبيبتي، وأنا يوسف، وهذه الأرض ليست أرضنا»، ليظل وجهه يطارد نومي من يومها حتى ساعتي هذه.

لبثت على حالي تتقاذفني الذكرى إلى أن طأطأت الشمس رأسها وحل الشروق الأبغض لقلبي منذ وعيت إلى الدنيا، ما هي إلا ساعة وسمعت طرقات لدى الباب، أدركت أنها زهرة، وصيفتي الأثيرة ومربية ابني التي اخترتها من بين عاملات

القصر بأيامي الأولى فيه، لتقارب سننا ولتفرسي الخير في ملامحها البشوشة حتى صارت صديقتي الوحيدة، عاودت نحو غرفتي آذنة لها بالدخول، لتلج وقد علت وجهها الخمري ابتسامة مشرقة.

- صباح الخير مولاتي الملكة، جئت باكرًا لأُهيِّئ مولاي الملك جاد ليوم آربوس.

ألقيت جسدي على أحد الكرسيين المتكأين بزاوية الغرفة عن يمين باب شرفتها، حالما رددتُ صباحها بشبه ابتسامة، وأذنت لها بمباشرة مهمتها، ذهبَت بخطواتٍ وئيدة نحو مهد جاد، أيقظته بلطفٍ ثم حملته نحوي، أجلسْتُه على قدميّ بينما أداعبه بابتسامةٍ زاهية، قبّلته مرتين على وجنتيه قائلة:

«صباح الخير يا صغيري الملك».

تثاءب بين أحضاني:

«صباح الخير يا أمي».

ها قد جاوز عامه الرابع ببضعة أشهر، يزداد شبهًا بي كلما زاد عمره، امتلكَ عينيّ الواسعتين، انزواء ذقني، شعري الأسود الأملس وأنفي الدقيق، لكنه لبث وحيدًا بلا صحبة ولا أقرباء، ليس لي أهلٌ بهذه الأرض ليملك أخوالًا وخالات

ويصير نسلهم عائلته، حتى إخوانه من زوجة أبيه الراحل زينة البحر، يكبرونه بعشرات الأعوام ويضمرون في قلوبهم له الغيظ كما تضمر أمهم لي وله لأنه من ورث العرش عن أبيه بديلًا عن أخيه الأكبر ضياء، يتبعهم في ذلك أبناء عمومتهم، لولا قائد جند المملكة حارث المعتاض، ووزير المملكة اللئيم حكيم بن زيادة، لانقض أولئك على العرش بعد نحر رقابنا، وما حفاظ الآخرين علينا سوى حفاظًا على مكانتهما التي وصلا إليها في كنف الملك الصغير الضعيف وأمه، كذلك خوفًا من إثارة القلاقل بمملكة الشمال، فتنتهز مملكة الجنوب هذه الفرصة وتقفز علينا فيضيع كل ما بلغاه.

تركتنا زهرة وذهبت نحو الحمام الملحق بغرفتنا لتُهيّئ ماء استحمامه، بعد دقائق عاودت نحونا لتبدأ مهمتها، لكنها وقفت أمامي بجسدها الضئيل بينما مكث جاد ناعسًا فوق قدمي، ثم قالت بهدوء:

«أخبرني قائد حرس القصر أن موكب مولاتي اليوم نحو ساحة الملك زهير سيتحرك في موعده عند التاسعة، إلا أنه لن يكون بنفس عدد العربات ولا بنفس عدد الجند المعتاد».

عقدت حاجبي.

- لم؟

- كما تعلمين يا مولاتي، لقد كان قادة جندنا يخشون هجومًا مباشرًا من جيش أولئك الوافدين علينا هنا في مملكة آربوس الشمالية الأم من بعد أسرنا السيد يوسف، لذا بقوا على أهبة الاستعداد بشأن دفاعات المملكة لبرهة، خلالها أسقطت قواتنا وقوات الجنوب قرية غولار، ثم دُمرت قلعة سرابوس، قبل أن يغزيا سلسلة الجبال ويحيطان مملكة الوافدين كل جيشٍ من ناحيته، عندها لم يعد هناك خشية من هجوم مباشر من الوافدين علينا، بل على النقيض بدأ قادة جندنا يتحرزون من انقلاب ملك الجنوب على اتفاقنا معه ما إن تسقط مملكة الوافدين، لذا أخذوا كثيرًا من جند الساحة وجند القصر وسائر جند مملكة آربوس الأم نحو مواقع التمركز في قرانا المواجهة للجنوب، خاصة غولار التي أنهكها الحرب ورانتاز قريتنا الأكبر، كذا نحو موقع حصار الوافدين.

شعرتُ بشيءٍ من الغضب لأنهم لم يخبروني بأمر ترحيل الجند فسألت:

«لمَ لمْ يخبرني أي من أولي الأمر بذلك يا زهرة؟».

ابتسمت على استحياء:

«إن مولاتي تعتزل الجميع منذ الإيقاع بسيد الوافدين، حتى تكلّم خدم القصر وعمّاله بأنكِ تشعرين بالضيق لأنكِ نقضتِ عهده وغدرتِ حين ائتمن، إلا أنهم يرون أن ما فعلتيه حمل كل الخير لمملكتنا، لا سيّما بعد عودة غولار واقتراب زوال مملكة الوافدين بالكامل، موقنين أنه ما من أحدٍ سواكِ كان سيرضى بتلك المخاطرة التي وضعت روحك فيها لتنصري المملكة».

شردتُ بنظري للحظاتٍ فاستأنفت زهرة:

«إن حديث الخدم والعمّال ما هو إلا انعكاس لحديث العامة من المعمرين، لذا أرى -إن سمحت لي مولاتي في إبداء رأيي- أن تُحسني التزين في هذا اليوم وتذهبي نحو الساحة مشرئبة العنق واثقة قوية، لا بُدَّ أن نُظهر للجميع مدى قوة الملكة وبأسها، كي تتعلق قلوب العامة بملكتهم أكثر وأكثر، لنضعف كيد كل من يحاول المساس بمُلك الملك الصغير وأمه الملكة».

دققتُ النظر بوجه زهرة بينما تتخبطني الهواجس حول نقص عدد الجند بهذا اليوم الذي نقضيه أنا وجاد وسط عشرات الأمراء من أبناء الملك الراحل وأبناء إخوانه، كذلك المستشارين وكبار موظفي المملكة وحكّام القرى والكهنة،

لا سيّما مع ذهاب قائد الجند نحو موقع القتال وبقاء الوزير ابن زيادة وحده، لو أريد بنا غدرًا لتم اليوم، لذا رددتُ بوجهٍ مضطرب:

«هل تظنين أنهم قد يحاولون إلحاق الأذى بنا مستغلين نقص عدد الجند وذهاب قائدهم حارث نحو المعركة؟».

ابتسمت كعادتها:

«لقد تحدثت مع قائد حرس القصر بهذا الشأن، أخبرني أنه يضع الأمر بحسبانه كما أوصاه قائد الجند قبل رحيله، يقول أنهم رتبوا أمر المقصورة الملكية بالساحة جيدًا، واستعان بالكثير من الجند الذين بقوا لدى بوابات المملكة ولدى دار السلاح لهذا الأمر، بالأحرى قد نقول أن أغلب الجند الذين بقوا هنا بالمملكة سيكونون إلى جوارك بتلك الساعة».

اقتربت إلى أن ارتكزت على ركبتيها أمامي، وضعت يدها فوق يدي اليسرى واستأنفت:

«لا تقلقي بشأن غدر اليوم يا مولاتي، لقد جهّزت أيضًا الكثير من الوصيفات ليُحطنكِ فوق كل المرات السابقات، عليكِ التفكير في استغلال ما قدمتِ لهذه المملكة وأهلها، اليوم هو يوم الملكة مارينا التي أسرت عدو المملكة اللدود،

ستتعلق الأعناق بمشهدك وحدك، لا تظني أنهم يلقون بالًا لتلك القوات التي تحاصر مملكة الوافدين، أنتِ صاحبة الفضل الأول والأكبر، أنتِ الملكة، من سيهتفون باسمها واسم ابنها الملك عندما تشير بيدها لقتله».

ترقرقت دمعة من عيني، مسحتها مسرعة، فعاجلتني برفق:

«انسي أمر يوسف يا مولاتي، إما هو وإما بقاء مُلكك ومُلك ملكنا جاد».

أنهت جملتها ونقلت نظرها نحو جاد الذي بقيَ مستكينًا فوق قدمي، كأنها تؤكد معنى ما قالت قبل أن تحمله برفقٍ لتتم عملها.

انتقلت نحو مقعد مرآتي عن يسار باب الشرفة، أمسكت بجرسي النحاسي وهززته مرتين فأقبل الحاجب، أمرته بإحضار وصيفتيّ ملابسي كي أبدأ الاستعداد لهذا اليوم.

انتهينا عند الموعد، لبس جاد عباءته الملكية المذهبة، وزين رأسه تاج صغير توسطت مقدمته إحدى لآلئ المُلك، وارتديث فستانًا قرمزيًا يعلوه معطفًا أسود قبل أن أضع فوق رأسي ذات التاج القديم الذي اعتلى رأسي يوم قابلت يوسف أول مرة بهذا القصر، من ثمّ خرجنا في موكبٍ أقل

مهابة عن سائر المواكب السالفات، ثلاث عربات مغلقات تجرهن الخيول، يسبقهن ويلحقهن بعض الفرسان المدرعين تحت إمرة قائد حرس القصر، وسطهما كانت عربتي بصحبة جاد وزهرة، أما الأخريتان حملتا الوصيفات، ما استرعى انتباهي بمجرد أن تجاوزنا بوابة القصر هو الهتاف والصياح باسمي، صرتُ أسمعه جليًا من أهل المملكة المتراصين على جانبي الطريق، ما جعل جاد يطل برأسِهِ من نافذة العربة ملوحًا بيديه في طفولةٍ خالصة لأولئك المحبين. ابتسمت زهرة ثم جذبته بلطفٍ وأغلقت النافذة، بينما صارت نبضات قلبي تتصارع كلما اقتربنا من الساحة إلى أن بلغنا مشارفها.

بدت الحشود غفيرة حول الساحة، وصار الهتاف باسمي واسم جاد عاليًا جهورًا، تعطل الموكب عدة مراتٍ حتى استطعنا أن نلج من البوابة الخلفية للساحة، نزلنا أمام الدرجات المؤدية لموضع الملك، حالما تحيطني الوصيفات من حولهن حرس القصر، صعدنا في عجالةٍ حين بدأ الهتاف يتهادى إلى مسامعي من مدرجات العوام، إلى أن بلغنا موضعنا بمنتصف مدرجات المقصورة الملكية.

ما إن استقر بي الحال على كرسي الملكة وبجواري جاد لدى كرسي الملك شرعت أفتش بنظري خلسةً عن زينة البحر

وأولادها وأبناء عمومتهم، وجدتهم لدى الطرف الشرقي للمقصورة وفقًا لموضعي، اطمأننت قليلًا وأشرت بيدي للجمهور الذي وقف محييًا بالجلوس، عندها ابتدر الحادي في التحدث بصوته الجهور، أعلن عن أسر يوسف بصحبة أربعة من جنده بفضل تدبيري وحكمتي، ليعلو الهتاف من جديد باسمي قاطعًا حديثه، ما إن هدأ الدبيب أكمل الحادي صياحه عن سقوط غولار وقلعة سرابوس والحصار المشترك لمملكة الوافدين؛ علا الضجيج مرة أخرى قبل أن يقطع هتافهم بإعلانه بِدء اليوم بقتل يوسف؛ سرت قشعريرة باردة بكل جسدي، مددتُ يدي نحو يد جاد، أمسكتها بقوةٍ للحد الذي جعله يئن محاولًا إفلات يده من يدي، إلى أن انتبهت ليد زهرة على كتفي من الخلف، قالت بصوتٍ خافت:

«استعدي يا مولاتي لتقفي بثباتٍ عند إعطاء الأمر بقتله».

عندها ظهر مرتديًا لملابس الوافدين الجلدية، يعلو جسده التراب، بينما يسوقه ثلاثة من الجند مقيدًا بالأغلال، أوقفوه بمنتصف الساحة، ليبدو ثابتًا قويًا يُقلّب نظره في الأرجاء متحديًا، في حين تضاعفت ارتعادات جسدي وتلعثمت أنفاسي، صرتُ أخشى أن أسقط مغشيًا علي، إلا أنني قبل أن أقف لأعطي الأمر بقتله سمعناه جميعًا يصرخ:

«ستعيش مملكة الوافدين وإن قتلتموني ألف مرة، سيعيشون أحرارًا مثلكم، كلنا بشر سواسية، ولا يغرنكم تلك الأفضلية التي يخدرون بها عقولكم كي لا تطلبوا حياةً كريمة».

ران الصمت على الخلق كمن وقف على رؤوسهم الطير، كأنه ألقى الرعب في الصدور بصراخه الثابت، مرت ثوان وكأننا بجنازة مهيبة قبل أن يصرخ أحد الخلق:

«اقتلوا الخائن».

تبعه صرخات فردية لم تلبث أن تحولت إلى هتافٍ جماعيٍّ بقتله، تحاملت لأصلب جسدي وقوفًا، لكني ما إن اعتدلت في وقفتي حتى سمعنا دوي عدة تفجيرات متتاليات خارج الساحة وبقلب الحشود المتراصة داخلها، ارتجت الأرض من حولنا قبل أن تتهاوى أجزاء كبيرة من مدرجات العوام الشرقية والغربية، ارتفعت الأتربة والغبار لدرجة أنها أخفت الساحة عن نواظرنا، في حين تطايرت أجسادنا إثر موجات خفية ضربتنا، ثم تساقط الخلق فوق بعضهم، عم الهرج والذهول حتى توقفت الموجات واستقر جسدي، أخذت أحبو مسرعة بين المقاعد والممرات وقطع الحطام المبعثرة، أصرخ على صغيري جاد، إلى أن اجتذب انتباهي نحو

الساحة صوت صهيل خيول تركض ويصرخ فرسانها، بدوا كمعمرين يرتدون ملابس كتانية بيضاء.

أحاطوا يوسف في دائرة، بينما أخذوا يطلقون سهامًا تنفجر في عدة اتجاهات، ارتمى الجميع على أرض المقصورة مرة أخرى، لكني صرت أفتش عن جاد بعين وبالأخرى أراقب ما يدور بالساحة، حتى ظهرت فتاة شقراء اخترقت دائرة الخيل، حررت يوسف قبل أن يقفزا معًا على جوادها في وضعٍ متعاكس، صارت بين أحضانه تضرب بسهامها يمينًا ويسارًا، في حين أمسك بلجام فرسها وأمره بالانطلاق ليعبروا جميعًا عبر أحد مواضع التهدم الشرقية.

استفقت على صوت بكاء جاد، تبعت الصوت حبوًا إلى أن التقطته بين يدي، وجدته قد بلل عباءته بينما ينهنه قائلًا: «أنا خائف يا أمي، خذيني إلى غرفتنا»، فتشت في جسده مسرعةً فلم أجد أي أثرٍ لإصابة، احتضنته بقوةٍ وحاولت الوقوف إلا أن قدمي اليمنى خانتني، لم أستطع أن أحمل جسدي عليها، بينما بدت المقصورة كساحة معركة ضروس، جرحى فوق المقاعد وبينها، حطام هنا وهناك، أنين وصرخات وبكاء.

لكني بغريزة أمٍ تعرف الخطر المحدق بولدها ركزت نظري

نحو الناحية الشرقية للمقصورة، تبين عندها صدق حدثي، حيث ظهرت زينة البحر برفقة ولدها الأكبر ضياء يهرولان ناحيتي وسط بقايا الغبار وآثار الدمار، بدا أنهما يحاولان استغلال الحدث كي يصلان لمبتغاهما، طعنتان خفيتان وسط اضطراب الخلق وتخبطهم، وقد يولولان علينا بعدها. أحاطني الفزع وحاولت التراجع حبوًا إلا أن الممر بدا مغلقًا من خلفي بالمصابين وبعض أجزاء المقاعد والمناضد.

صار قلبي ينتفض بشدة، أنظر شاخصة العينين نحو أعينهما التي تطلق شزرًا، قلّبت وجهي يمينًا ويسارًا بحثًا عن زهرة، عن الوصيفات، عن الجند، إلى أن صار بينهما وبيني عدة خطوات ولمحت مدية صغيرة تلمع في يد ضياء، أخذت أصرخ:

«أنقذوا الملك جاد..

أنقذوا الملك».

الملك المُطارد

(يوسف)

انطلقنا فارين من الساحة نحو الدرب المؤدي للبوابة الجنوبية للمملكة بينما أحاطني الفرسان فيما أشبه الدائرة، واصلوا قذفهم للقنابل الصغيرة والسهام المفخخة صوب كافة الاتجاهات حولنا، ذلك على الرغم من وضوح آثار دمارٍ سابقة لدى واجهات المحال والبنايات على جانبي طريقنا، في حين سادت حالة من الاضطراب بين المعمرين، صاروا يهرعون مبتعدين عن ركبنا، ولم يجابهنا أي مقاومةٍ تُذكر إلا عندما لاحت لنا البوابة الجنوبية، رأيت لديها قتالًا يدور بين من بدا أنهم رجالنا وقليل من الجند الذين بقوا لحراستها، سقط فيه من الجانبين بعض مقاتل إلى أن لحقناهم فحسمنا القتال لصالحنا، وفُتحت البوابة على عجلٍ لنفارق أسوار المملكة مبتعدين عنها.

توقفنا بعد عدة دقائق خلف رتل صغير من الرمال، أخذوا على عجالة يخرجون قِرَب مياه وبعض الزاد من مكامنٍ دفنوها فيها، قبل أن ننقسم إلى سريتين صغيرتين بكل واحدةٍ بضعة عشر مقاتل، إحداهما رافقني فيها فارس وميرا بعد أن انفصلت عني إلى فرسٍ مستقل، واتجهنا نحو قلب

الصحراء، أما السرية الأخرى تمركزت خلف الرتل ليحبطوا أي محاولةٍ لتعقبنا.

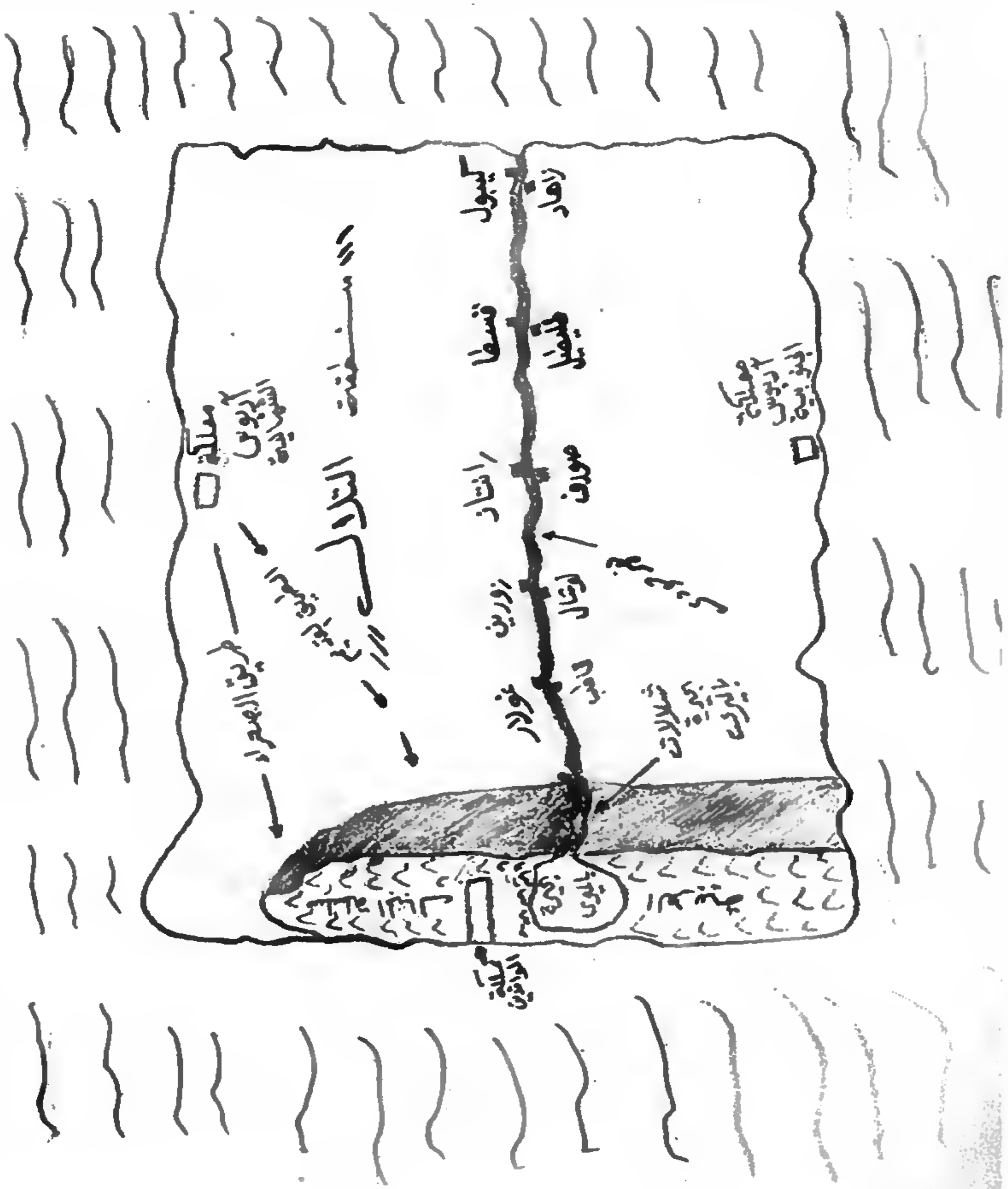

صارت سريتنا تنهب الأرض وسط ذهولي ونشوتي من كوني بقيت خارج ساحة إعدامي خلال دقائق معدودات،

مقبلًا على مملكة الوافدين التي كنت أدعو لها قبل قليل بأن تقاوم دوني، فبقي دبيب قلبي يسابق طرقات سنابك الخيل وصهيلها، إلى أن ابتعدنا بقدرٍ أوحى باكتمال فرارنا، عندها صرخت فيهم:

«كيف فعلتموها؟».

أجابت ميرا زائرة:

«سنحكي لك فيما بعد، لكن الأهم الآن هو أن نصل إلى المملكة، كي تشد من أزرها ولا تسقط كما سقطت غولار».

رددتُ حازمًا بصوتٍ هامس لم يبلغها: «ستقاوم ولن تسقط».

واصلنا الركض عبر الصحراء نتبع فارسين تقدما الركب إلى أن أوشكت الشمس على المغيب دون أن نصل البئر الأولى التي تتخلل طريقنا نحو الجبال، ما أثار تساؤلي أن فارس استأذنني في الوقوف للمبيت خلف كتلة صخرية مكعبة بانت بالأفق، سألته مستفهمًا عن البئر وعن إحساسي باختلاف الطريق، ليجيبني بأننا سلكنا دربًا مغايرًا عن الدرب المعتاد من آربوس الشمالية إلى مقدمة سلسلة الجبال الغربية؛ مخافةَ أن يتبعنا أيّ من جند المملكة بعد

أن يستفيقوا من كربتهم، كذلك كيلا يلاقينا بدربنا جند من المُحاصرين لمملكتنا ما إن تبلغهم أخبارنا، لذا سنقطع الصحراء نحو تخوم قرية غولار في طريقٍ مقوّس، أخبر عنه مرشدا رحلتنا اللذان اتخذهما ضمن رجاله من وافديها، حيث أفادا بأن معمري قريتهما استخدموه قديمًا لبلوغ آربوس الشمالية قبل أن تجف البئر الواقعة خلاله، ذلك إلى أن نجاوز منطقة التلال التي يقع حدها الغربي في مواجهة حقول غولار، فنترك هذا الدرب ونواصل في طريقٍ مستقيم نحو منتصف المنطقة الشمالية لسلسلة الجبال الغربية، لنتحسس مدخل كهفٍ تعرفه ميرا سيأخذنا عبر الأنفاق نحو القمم.

أدركت عندها أنهم أحسنوا التدبير، لذا أومأت برأسي آذنًا بالتوقف، فأشار بيده للفرسان عندما بلغنا تلك الكتلة الصخرية، ما إن ترجلنا خلفها احتضنني فارس بشدةٍ محاولًا إظهار البشاشة، إلا أن بشاشته بدت ممزوجة بلوعة، بدا فارس الذي أعرفه من ناحية مظهره، ذو الوجه المستطيل المحبب إلي، نفس العينين الواسعتين، والجسد الضخم، إلا أنه لم يبدُ صديقي الضاحك المستبشر.

وضع يده على كتفي قائلًا:

«مرحبًا بعودتك يا صديقي، أسوار مملكتك تشتاق إليك،

ودماء الأبرياء تسأل عنك».

عقدت حاجبي مستفهمًا، إلا أنه لم يترك لي فرصة لاستطراد الحديث واستأذنني ليذهب رفقة رجاله لنصب الفُرُش وانتظار عودة السرية المتأخرة التي ربضت خلف الرتل، عندها جاءت ميرا ناحيتي، وقفت أمامي تتفرسني بعينيها الزرقاوين، بدت نظرتها تحمل اللوعة والأمل، الخوف والشوق، العتاب والغفران، لحظات مرّت كدهور عند الغروب، قبل رحيل آخر شعاعٍ من أبناء قرص الشمس الأصفر، وسط صحراءٍ تحتضننا بامتداد الأفق.

إلى أن رحل الشعاع الأخير تاركًا الأرض وروحي للظلام ينهشهما، احتضنتني بقوةٍ وأخذت تبكي، لم أصدها هذه المرة بل أحسست بدفءٍ وسكينةٍ تغلغلا من روحها إلى قلبي، فرأيت نور القمر المكتمل آخذًا في غمر الكون من حولي، ربّت على رأسها إلى أن هدأت، أبعدت وجهها عن صدري قائلة:

«قلت لك لا تذهب، قلت قلبي يكاد يقفز من صدري هلعًا عليك».

ابتسمت:

«وها قد نجونا».

مالت بوجهها نحو الأرض بينما عاودت نحيبها وتشنجات جسدها:

«عندما دخلوا غولار أعملوا القتل في جنودنا، حتى بعدما ألقوا أسلحتهم معلنين استسلامهم أكملوا المقتلة فيهم عزّل مستسلمين، لم يتخذوا من بينهم أسيرًا واحدًا، لم يداووا جريحًا، لم يرحموا مسالمًا، ذلك قبل أن يبدأوا انتقامهم في سائر الوافدين من أهلنا باعتبارهم خانوا مملكة آربوس الشمالية، ذبحوا الأطفال والنساء والشيوخ والرجال، طاردوهم داخل دورهم وخارجها، في الحقول والشوارع والحوانيت، خضبوا الطرقات بالدماء، ثم ملأوا جوف الأرض بالأشلاء في مقابر جماعية، حتى المعمرين الذين ارتضوا العيش في كنف حكمنا، نكّلوا بهم أشد التنكيل، أخذوا ممتلكاتهم وأراضيهم وتجارتهم، أسقطوا عنهم صكوك المعمرين، وجعلوهم عبيدًا بغولار، لقد عاثوا فيها إفسادًا لا تصدقه الآذان ولا تستوعبه العقول، لم يعاملونا مثلما عاملتهم عندما دخلتها».

ضممت رأسها إلى صدري حين هاجم قلبي لهيبًا من الغيظ، لم أذرف دمعة بل شخصت عيناي كأنهما يتقدان بنار

الضغينة والندم، أنا المذنب الأول، أنا من أعماني الشوق لإسراء فذهبت نحو مكيدة توقّعها الجميع سواي، لأستلب حلم أولئك المستضعفين في حياة، والأنكى هو ذنب تلك الدماء البريئة التي سالت.

أبعدتها برفقٍ وسألت:

«وماذا فعلوا بسرابوس؟».

تمالكت حالها:

«ما إن سقطت غولار وعرفت بالخيانة التي حدثت من ملك الجنوب باتفاقه مع الشمال علينا، تيقنت أنهم سيفرضون سيطرتهم على القمم، ومن يملك القمم يكشف سرابوس، لم أنتظر أن يُسقطوها ويستخدموا نفقها الصاعد لبلوغ مشارف مملكتنا بالأعلى فتصير نقطة ضعف؛ أعطيت أوامري بانسحاب الجند إلى المملكة بينما استبقيت معي بضعة عشر محاربًا من الأشداء، دمرنا القلعة ونفقها الصاعد بالبارود قبل أن يصلوا إلينا، ثم هربنا نحو ممرات التلال في ملابس معمرين لألحق بفارس في المملكة الشمالية الأم».

استوقفتها عاقدًا حاجبي:

«ظننت أنكِ كنتِ بصحبة فارس منذ بداية تحرككم».

أشارت برأسها نافية:

«يوم أن بلغنا خبر أسرك جاءني فارس، أخبرني أنه ترك على غولار أحد أتباعه ليلحق بك في آربوس الشمالية، رتب أمره على أن يدخلها رفقة سبعة من جنوده بعد أن يتخفوا وبصحبتهم الكثير من البارود، أسفل حاويات غلال مملوكة لتاجرٍ تترحل بضاعته بين أنحاء المملكتين، كانت قد نشبت بينه وبين فارس صداقة وطيدة منذ توليه حكم غولار، ذلك لأنه أكرمه لمّا ملكناها وأمّنه على ماله وبضاعته وحوانيته، فصار يزوره كلما مر بها طوال الأشهر التي حكمناها فيها، وقتها لم يخطط فارس لخطواته ما إن يتجاوز أسوار آربوس الشمالية، لم يعرف سبيلًا للوصول إلى محبسك أو كيف سيحاول تحريرك، لكنه بدا عاقدًا العزم على اللحاق بك بلا ذرة ترددٍ واحدة. طلبت أن أذهب معهم إلا أنه أصر على بقائي، إلى أن حدثت الخيانة وسقطت غولار بعد رحيله بيومين، فتحركت رفقة جندي».

- وكيف ولجتِ مع مصاحبيك من بوابات المملكة الأم دون صكوك معمرين؟

- عندما انطلقنا لم أعرف سبيلًا لدخولها، إلى أن جاءتنا أنباء الحصار المشترك لمملكتنا، وبلغنا أن مملكة الشمال

سمحت لمعمري الجنوب من غير الجنود -في سابقةٍ لم تحدث من قبل- بحضور هذا اليوم الذي سيعدمونك فيه، إظهارًا لحسن النوايا بعد الاتفاق بين المملكتين، عندها أخذت بعض قوافل المعمرين تتوافد من الجنوب لتعبر ممرات منطقة التلال في طريقها نحو الشمال، صار ذلك من حسن طالعنا، حيث تسللنا فرادى ضمن تلك القوافل التي لم يدققوا في تفتيشها أثناء الدخول من البوابات، من ثمّ بحثت عن فارس كثيرًا إلى أن رأيته ذات نهار ملثمًا بوشاحٍ عند تمثال الملك زهير، وبدأنا نعد العدة، بأول الأمر تشاورنا في التسلل إلى القصر لتحريرك، لكن بدا الأمر مستحيلًا، لذا خططنا لاختطافك بيوم آربوس، ما ساعدنا وأكمل خطتنا أننا قبل ثلاثة ليال رأينا كثيرًا من الجند يغادرون مواقعهم، عرفنا أنهم ذهبوا ليلتحقوا بالحصار، بعد أن اطمأنت المملكة لنصرها دون أن يحسبوا حسابًا لمثل هذا التسلل، من وقتها أصبحت جدران الساحة دون مراقبةٍ حثيثة في المساء، فوضعنا قنابل البارود في شقوقها، كذلك وضعنا بعضها في الدرب الجنوبي، أعددنا زادنا وعتادنا خارج الأسوار عبر من بدا أنهم مرتحلون، بالأخير استخدمنا خيل الجنود التي تُركت بمرابضها خارج الساحة، وها نحن الآن في العرا.

أجفلت ميرا للحظات قبل أن تستأنف بنبرةٍ حملت شيئًا من

اللوم: «لتعلم يا سيد الوافدين أنك لم تعد تملك قرارك وحدك، لا تظن أنك كنت تقطع أمرًا خاصًا بيوسف وقلبه، فكل الذين لجأوا إلى غولار واطمأنوا فيها من وافدي هذه الأرض وكل المعمرين الذين ارتضوا البقاء بين أسوارها، وضعوا ثقتهم في سيد الوافدين الذي لم يعد صاحب نبوءة وحسب في أنظارهم، بل ظنوه مُرسلًا من روح آربوس التي يعبدونها. أنا لم أُفتش عن أخويّ الصغيرين في المملكة، لم يفتش فارس عن زوجته، وضعناك وحدك نصب أعيننا، حتى أولئك الجند الذين ربضوا هناك عند البوابة مضحين بأرواحهم، وغيرهم ممن سقط أثناء تحركنا، لم يضعوا نصب أعينهم سواك، كلنا لم نعد نحتمل أن يضيع كل ما بلغناه من حياة، الجميع على يقين أن تلك المملكة التي بنيتها لن تقاوم من دونك، ولن تدوم حياة أبنائِهم فيها إلا بعودتك».

أطرقت للحظات في أسى محاولًا تناسي ما جرى كي أبدأ التفكير فيما هو آت لذا سألت:

«كيف سندخل إلى المملكة طالما حاصروها من الجانبين؟».

تمالكت ميرا حالها وردت:

«ألا تذكر حين أخبرتك أنني أعبث بأرضية منزلي الذي

اخترته فوق أحد الجُرُف التي ردموها أثناء توسعة المملكة؟ قلت لي وقتها أنني كالفئران لن أتوقف عن الحفر حتى وإن غزونا الأرض كلها».

عقدت حاجبي فأكملت:

«نفقي تهيّأ منذ أمدٍ لمثل هذه الساعة، لقد شيّدته تحسبًا لأن نحتاج إليه يومًا لأجل الفرار من المملكة، لكنه الآن أصبح سبيلنا للعودة حفاظًا عليها، إن أحاطوا مملكتنا من حول الأسوار، فلن يستطيعوا بلوغ مدخل نفقي مهما عاثوا بالجبل، أنت تعرف ملاذاتي الآمنة وكيف أستطيع مواراتها».

أحسست بالأمل يدبدب داخل صدري، إلا أنه بقي بداخلي شيء من الترقب يُعكّر نشوة ذلك الأمل، حيث لبثت متخوفًا من الحصار المضروب هناك حول الأسوار، فهل سنجد إلى بلوغ المملكة سبيلًا ميسرًا كما حكت ميرا؟ وإن بلغناها، إلى متى نستطيع الصمود؟ صرت أتساءل: هل هناك مؤونة تكفي؟ أمن الممكن أن نخرج إلى الحرب خلف الأسوار لفض هذا العدوان، أم نبقى إلى أن يرحل؟ وهل ستأتي هذه التضحية التي قدموها لإخراجي بثمارها؟ أكثر ما تملك قلبي هو أنني صرت مسؤولًا عن أولئك المحاصرين من أطفال ونساء وشيوخ، مسؤولًا عن انتقامٍ لأرواحٍ اطمأنت لنا

وخذلناها، مسؤولًا عن تلك الحياة التي منحتها لهم وكدت أضيعها.

بعد دقائق جاءني فارس، استأذنني في عدم إشعال أية نيران عند موضع توقفنا، وخلود ميرا وبعض الجند إلى الراحة في المناوبة الأولى، بينما طلب البقاء بصحبة باقي الرجال متأهبين على مسافة مائتي ذراع ناحية آربوس الشمالية لانتظار السرية المتأخرة، على أن يُضيئوا شعلة صغيرة كعلامة للقادمين، أخبرته أن يتخذ ما يراه ملائمًا، والتجأت إلى جانب تلك الكتلة الصخرية، وأسندت ظهري إليه.

مرت عدة ساعاتٍ قضيتها وحدي في ظلامٍ دامس، أُقلّب أمري على كافة جوانبه، يعتريني انقباض بعد انشراحٍ في دوائر متتابعات، بين الفينة والأخرى يطاردني طيف إسراء، أتذكر حديثنا بزنزانتي وكم كنت مبتهجًا لبقائي مستقرًا بين أضلعها بعد طول فراق وبعد أن أنسوها حقيقتنا، لكنّ وجهي لم يعد ينبسط لذكراي معها، ولا يعتري قلبي ذات النسيم البارد، لا سيّما بعد الذي صار بذهابي نحوها.

أعرف أنها مهما أذنبت بحقي لن تخالجني النقمة عليها وسأبقى محتفظًا بالكثير من الذنب نحوها، بل سأظل أجلد

ذاتي بشأنها ليقيني الراسخ بأني من أحضرتها إلى هذه الأرض بصحبتي، فوق كل ذلك سيبقى الحنين إليها يأسر جنبات قلبي وروحي، ستبقى ذكراها ترافقني، لكن كما قالت ميرا، أنا لم أعد أملك نفسي، إن كان عليّ أن أنظر في أمر من استقر حبها بفؤادي، عليّ قبلًا النظر فيمن تعلقت رقابهم بروحي، إلى أن قطع تأملاتي انفجار محدود وصوت تصايح، بدت إشارة لعودة تلك السرية التي بقيت رابضة خلف الرتل، أخبرونا أنهم لبثوا حتى انتصف النهار دون أن يلوح من المملكة ما يوحي بتعقبنا، لذا تحركوا صوبنا في نفس الطريق المتفق عليه لنجتمع من جديد في سريةٍ واحدة.

انطلقنا مع شروق الشمس في طريقنا، لنقطع ساعات ما بين ركضٍ طويل واستراحاتٍ قصيرة فرغ خلالها الماء والزاد، لكننا بلغنا الطرف الغربي لمنطقة التلال عند مغرب الشمس، توارينا بأحد ممراتها الضيقة للغاية، حين أمر فارس مرشديّ رحلتنا وبصحبتهما ثلاثة من الجند بالتسلل نحو حقول غولار القريبة، كي يملأوا قرب الماء ويأتونا بما يستطيعون استلابه من زاد.

لبثوا عدة ساعاتٍ قبل أن يعودوا وقد ملأوا القِرب لنا وللخيل، أحضروا بعض ثمار الفاكهة وقليل من خشاش

الأرض، من ثمّ أقمنا ليلتها في موضعنا إلا أننا لم نتحرك مع أول خيوط النهار كعادتنا؛ أخبرني فارس أننا سنتحرك عند انتصاف النهار كيلا نصل مشارف سلسلة الجبال الغربية إلا بعد زوال الشمس حتى لا يرصدنا من فوق القمم مراقبون. تركت الأمر لتدبيره وانطلقنا حين أشار، ليحل علينا الظلام قبل أن تلوح لنا سلسلة الجبال كما أعد.

لم نتوقف بحلول الظلامِ بل أكملنا المسير في موكبٍ خطا متأنيًا، إلى أن بلغنا تخوم السلسلة الجبلية، تراءت لنا من بعيدٍ أضواء مشاعل تتحرك فوق القمم في جماعات، أدركنا أنها دوريات من جند آربوس، لذا تركنا الخيل واستكملنا طريقنا مترجلين مخافة أن يجذب صهيلها الانتباه ما إن نصل إلى السفوح، اقتربنا بروية إلى مسافة قدرها مائتي ذراع أو أقل بقدرٍ يسير، عندها بدأت ميرا تحدد معالم السفوح على ضوء القمر، من ثمّ بدأنا نسير بموازاتها حتى أصبحنا مقابلين لمدخل الكهف المقصود.

انتظرنا إلى أن ابتعدت الدوريات التي لاحت تتحرك لدى القمم، ثم انطلقنا راكضين بينما يحيطني الرجال، ما إن اقتربنا وصار بيننا وبين مدخل الكهف قدر خمسين ذراعًا، سمعنا تصايح من جند آربوس بدا قريبًا على الأرض لدى

السفوح وليس فوق القمم، ذلك قبل أن تُشعل كومات نار أضاءت حولنا كأننا صرنا نهارًا، ظهر جليًّا أن هناك دوريات من جند آربوس تمركزت بلا أضواء على نقاطٍ متباعدة أمام السفوح، هبّوا للهجوم علينا من يمين ويسار ما إن رصدونا، إلا أننا واصلنا ركضنا بينما صرخ فارس:

«أكمل أنت وميرا لداخل الكهف وليقف من حولي باقي الرجال عند مدخله».

بلغنا الكهف في لحظات معدودات، ولجناه أنا وميرا وبقي فارس بصحبة باقي الرجال أمام سُدته، حين لحق بهم طلائع جند آربوس والتحمت معهم، لبثت مشدوهًا للحظاتٍ بداخل الكهف، بينما دار قتال بدا غير متوازن، إلا أن ميرا اجتذبتني صارخة:

«لا بُدَّ أن نكمل الآن».

تبعها صريخ فارس: «اذهب يا يوسف، لقد فررت أنا ذات مرة وها قد حان دورك في الفرار».

مكثت يتخبطني التردد بين إكمال الفرار كما قالوا أو العودة لمناصرة فارس ورجالنا، في حين أخذت ميرا تجتذب ذراعي بقوةٍ هائلة وكأنها تجرّني عنوة.

الحصار

(يزن)

لم أصدّق حالي عندما علمت بأسر سيدي يوسف أثناء توقيع المعاهدة مع مارينا ملكة الشمال الغادرة، إلى أن جاءتني رسالة ميرا من سرابوس، تخبرني أنني المؤتمن على مملكة الوافدين كما أمر سيدنا قبل أسره، وأوصتني بالبقاء على أهبة الاستعداد وتعزيز الدفاعات لدى نقاط الراجمات المواجهة لآربوس الشمالية فوق أطراف القمم، لا سيّما أنها تقع بعيدًا خارج أسوارنا.

جمعت قادة الجند الثلاثة لنبدأ تأهبنا، أمرتهم باستنفار جنودنا المنتظمين بالجيش ليتخذوا مواقع الدفاع سواء فوق الأسوار أو خلف البوابات أو عند الراجمات بكافة مواقعها، مع رفع حالة التأهب لديهم بمعسكرات المشاة والفرسان والرماة المتراصات بشرق المملكة، كذلك أمرت باستدعاء كافة المسرّحين الذين سبق لهم التدرب على القتال قبل عودتهم لشؤون أعمالهم العامة، كي يتم إلحاقهم بالمعسكرات وتجهيزهم للحرب، بينما بعثت رسولًا إلى ميرا أستشيرها فيما يتوجب إتيانه بشأن الغدر الذي حاق بسيدنا، هل نجمع سائر جندنا ونتجه نحو آربوس الشمالية

معلنين الحرب لتحريره، أم نتحفز لهجوم منهم وحسب؟ بذات الوقت بعثت رسالة لملك الجنوب لأتيقن من بقائِه على عهدنا ولأستقصي أمره بشأن التحالف معنا في حربٍ واحدة نقيمها على مملكة الشمال، جاءني رد ميرا سريعًا بأن الهجوم المباشر على آربوس الشمالية لن ندرك فيه انتصارًا لأننا لن نستطيع اختراق أسوارها الحصينة، وقد يتحينوا ذلك لتلتف جيوشهم الموجودة بالقرى فيسقطون غولار وسرابوس ومملكتنا بقلب قمم الجبال، بالأخير أخبرتني أن فارس لديه تدبير لم تطلعني على تفاصيله.

مرت ثلاثة أيام لم يعد رسولي خلالهن من الجنوب، قبل أن تأتينا الأنباء بخيانة ملك الجنوب وسقوط غولار، ليس ذلك وحسب، بل من فروا منها إلينا صاروا يخبرون الناس عن المجازر التي ارتكبها جيشا آربوس الشمالية والجنوبية فيمن وقعوا تحت أيديهم، أخذوا يتناقلون أخبار الجيوش الضخمة التي هجمت وراجماتها اللائي استخدموا فيها البارود، ليسود الذعر في كافة أنحاء المملكة ويهرب بعض ضعاف النفوس كالفئران نحو الكهوف السفلية القديمة.

لم يسعفني الوقت بعد نبأ الخيانة كي أضع راجمات كافية فوق أطراف القمم في مواجهة آربوس الجنوبية، كي

أمنع صعود قواتها أعلى الجبال، ليباغتنا هجوم منها بعد يومين، ثم توالت الأحداث تترًا كسقوط قطع متراصات، حيث سيطروا على قمم الجبال خارج أسوار مملكتنا ناحية الجنوب إلى أن ربضت قواتهم الضخمة على مدى لا تصله راجمات أسوارنا، قبل أن تتسلل سرايا من جيشهم نحو نقاط راجماتنا المواجهة لآربوس الشمالية فوق أطراف القمم بالشمال، قتلوا حراسها واستولوا عليها، لتصعد جيوش آربوس الشمالية بدورها، وتحيط مملكتنا من الناحية الأخرى على ذات المدى حيث لا تصل قذائفنا.

أثناء ذلك دمرت ميرا قلعة سرابوس مخافة الاستيلاء عليها، قبل أن يعود جنودها نحو المملكة دون ميرا وبعض الجند، أخبروني أنها لحقت بفارس من أجل التدبير الذي لم تطلعهم على تفاصيله، ليتصاعد الفزع بين العوام من أبناء المملكة، أخذوا يتناقلون شائعةً عن هروب ميرا وفارس؛ ارتسمت الهزيمة على وجوههم؛ ازدادت أعداد راغبي الفرار بينهم، لكني منذ لاحت قوات الجنوب بالقمم وقبل صعود قوات الشمال، كنت قد أعطيت أوامري بإغلاق أبواب المملكة، لم أسمح من وقتها بمغادرة أحد، بل أعطيت أوامرَ حاسمة بحبس كل من يلوّح بطلب الفرار في السجن الكبير الذي يتخلل المعسكرات الثلاثة بالشرق، كذلك بدأت القذف

بالراجمات في الاتجاهين على أقصى مدى تبلغه لأستبق استقرار تلك الجيوش مبينًا أنني سأقاتل حتى آخر رمق، ولأخبرهم أنهم حتى لو صعدوا القمم فهناك مدى حولنا من يفكر في تجاوزه يحترق، ساعدني على ذلك ما أعده سيدي يوسف بسنوات الرخاء من وفرة في راجمات أسوارنا، التي تتفاوت أمديتها على ثلاث فئات قريبة ومتوسطة وبعيدة، لتغطي مسافات كبيرة حول المملكة شمالًا وجنوبًا، وتجربتها سابقًا لعشرات المرات، إلى جانب استعداد ما قارب الألفين رامٍ أعلى الأسوار بأقواسهم وسهامهم الملغمة، وقنابلهم الصغيرة التي قد تحول المنطقة المستوية أمام الأسوار إلى سعير إذا ما جاءها أي من الهاجمين، فوق كل ذلك بقيت مطمئنًا لأن أسوارنا -التي يبلغ سمكها ثلاثة أذرع من أعلى إلى أسفل- لن يخلخلها القذف من بعيدٍ إن بلغها، إلى جانب أن راجماتنا ورماتنا لن يسمحوا لهم بنصب راجمات قريبة.

استقر الأمر على ذلك حتى صباح يوم آربوس، قوات ضخمة لم نرَها من قبل تحاصر من بعيد، صمود خلف الأسوار، وترقب لأنباء سيد الوافدين وميرا وفارس، على الرغم من انقطاع أخبار العالم بالخارج عنا، ما لم أحسب حسابه أن قوات الجنوب بصبيحة هذا اليوم قامت بقطع ممرنا المائي الذي مددناه من بحيرة بالميري نحو بحيرتنا

الصغيرة بالمملكة، بدا أنهم يراهنون على بث الهزيمة في النفوس بطول الحصار والتفكير في نفاد المؤن، ثم أرسلوا رسولًا نحونا بأول النهار التالي، آتوني به إلى مجلسي المعد بقاعة منزلي الخلفية، دخل علينا مشرئب العنق واثقًا قويًا، فيما استقبلته جالسًا لدى مقعد رأس المجلس، بينما استقر قادة جندنا الثلاثة والوزير جمال -منظم شؤون المملكة- في صفين المقاعد المتقابلين أمامي، وقف على بعد عدة خطوات يوليني وجهه وكأنه لا يرى البقية، قبل أن يفض رسالته ويقرأها بصوتٍ أجش:

«باسم ملكيّ آربوس الكريمين نعرض عليكم السلام والأمان، فلقد علمتم بشأن جندنا الذين ملأوا الآفاق، ما استحكم أمامهم قلاع ولا حصون ولا أسوار، أما من استعلى وقاوم أذقناه من بأسنا، وأما من هادن ورضا فله العفو عمّا سلف، إن فتحتم بوابات بلدتكم بلا قتال، لكم العهد بعدم المساس بأرواحكم ولا دوركم ولا ممتلكاتكم، على أن يسلّم كافة الجند سلاحهم بغير رجعة وينصرفوا إلى شؤون الحياة الأخرى غير القتال، من بعدها يتولى حكام مملكتيّ آربوس وجنودهما مقاليد الحكم ببلدتكم، دون إخراج أهلها منها ودون معاودة أسر أبنائها، مع إصدار صكوك لتمييز وافدي الجبال عن غيرهم من وافدي البحر، وإيقاف التعامل طرفكم

بالتبادل ليحل محله نقود آربوس المعدنية التي ستدفعون بها مكوثكم، من الآن ستعيشون الحياة الكريمة التي طلبتموها، لكن في كنف حكام آربوس وليس بالخروج عن طاعتهم، أما إن أصررتم على مواصلة القتال فلا عهد عندها ولا ميثاق، وترقبوا مصير غولار».

انتظرت حتى فرغ من قراءته ثم قمت إليه، أمسكت رسالته ألقيتها تحت قدمي بينما أنظر إليه شاخصًا مكفهر الوجه:

«لولا أننا لا نقتل الرسل لقطعت عنقك، اذهب لتخبر قومك أننا أعددنا لهم سعيرًا هنا فوق الجبال، لو أرادوا منه نجاة فليعودوا أدراجهم، على أن يبقى الثأر بيننا لما جرى في غولار».

تراجع فزعًا من هيئتي المستعرة في خطواتٍ وئيدة دون أن يوليني ظهره إلى أن بلغ باب المجلس، أخذه الحاجبان ليوصلاه إلى بوابة المملكة، حين عدت بوجهي نحو مجلسي قائلًا بحزم:

«إن دخلوا أرضنا هذه المرة فلا حياة لنا من بعدها، سيعملون القتل في كافة الجند بأول الأمر، قبل أن يُدمّروا الأسوار والبيوت مثلما فعلوا بقرية أسلافنا قديمًا، قد لا

يقتلوا العوام كما أشار كي يعيدونهم إلى سيرتهم الأولى بجوف الجبال، مُشرذمين ضعفاء لا يقوون على مقاومة ولا يملكون لأنفسهم حياة، حتى يعود تدفقهم تباعًا كعبيدٍ في خدمة أهل آربوس، وقد يقتلونهم كما قتلوا وافدي غولار، وبكلتا الحالتين هم أموات، أنا لن أهادن ولن أسلّم هذه المملكة وإن اضطررت لقتال من يعارضني قبل قتال أولئك الغزاة.

قاموا جميعًا من فوق مقاعدهم فأكملت بنبرة أعلى، بينما أركز نظري في وجوههم:

«علمني سيد الوافدين أن أنتمي لهذه الأرض وأدافع عنها، علمني أن أنتمي لأولئك الذين سكنوها من أهلنا، أن هذه المملكة ستبقى ما بقينا أحرارًا ننشد الحياة بكرامة وعزة، أن الظلم مهما اشتد سيبقى الحق أشد وطأة، آن الأوان أن نثبت أننا رجال أحرار، آن الأوان أن نخبرهم أننا مثلهم جاء أسلافنا من البحر ولسنا عبيدًا لهم أو دون هوية، سنقاتل من أجل هذه الأرض وأهلها، سنقاتل من أجل سيد الوافدين، ولتبقى روحه شاهدة علينا إن قتلوه، وليسمع بأخبارنا إن بقى».

أنهيت مقولتي ثم مددت يدي أمامي ليسارع كل منهم بمد يده نحوي فوق يد أخيه، وضعت يدي الأخرى فوق أياديهم

قائلًا:

«سنحيا بهذه الأرض أو نهلك دونها».

رددوا جملتي جميعًا في حماس، عندها أوعزت إليهم بكتمان فحوى تلك الرسالة حتى لا تثير التخاذل في النفوس وهو ما يبتغيه من أرسلها، قبل أن ينصرفوا إلى شؤونهم يعلوهم تحفز لم يخلُ من ريبة وترقب، لكني استبقيت الوزير جمال، أقرب أعضاء هذا المجلس إلى قلبي، وأكبرنا سنًا وحكمة، فقد أفلت من ريعان الشباب وقت بزوغ مملكتنا، معاصرًا كافة خطوبها الثقيلات، لينتقل خلال تلك السنوات إلى طلائع الكهولة، بلحيةٍ خالطها البياض، وبعض تجاعيد حاصرت عينيه الواسعتين، ودراية واسعة بشؤون المملكة، لا سيّما أن سيدي يوسف عيّنه بمنصبه منذ كنا مجرد قرية صغيرة بعد أول حروبنا مع آربوس الشمالية.

جلسنا متجاورين وأخذت أستفسر منه عن تفاصيل الزاد لدينا، أخبرني أن بحوزتنا من الغلال واللحوم والأسماك المجففة ما يكفي لثلاثة أشهر في المخازن العامة كما واظب سيدي يوسف على التخزين، إلى جانب ما تحويه حوانيت التجار من بضائع مملوكة لأصحابها؛ بدا أنه لن يعوزنا الزاد لخمسة أشهر، إن قتّرنا قليلًا ستزيد تلك المدة، وقد يضطروا

للرحيل قبلها، ما أثار مخاوفنا هو أمر الماء، لا سيّما بعدما قطعوا الممر المغذي لبحيرتنا الصغيرة من بالميري، فلم يبقَ على فصل الصيف سوى شهرين يتناقص خلالهما هطول الأمطار للحد الذي يؤدي إلى نضوب مائِنا بحلوله طالما انقطع الإمداد، إن نفد الماء ستركع المملكة لعطشها كبارًا وصغارًا، بذات الحال لن نستطيع الخروج لمواجهة تلك الجحافل الضخمة، ليسوا مجرد فرقة من ألفين مقاتل مثلما جاؤونا أول مرة مهوّنين من أمرنا، بل قد يبلغ تعدادهم ما يقرب العشرين ألف مقاتل في كل جيش، كأنهم استنفروا بأغلب جند المملكتين لهذا اليوم.

أنهينا حديثنا دون التمادي في النقاش عن شح الماء المتوقع، كأننا اتفقنا دون تصريح على تجاوز الأمر إلى حين، ليتركني وقد أحسست لوهلة أنني لست بقدر هذا الحدث الذي أحاطني، أحتاج لمن يدبّر أمري، يأمرني وأطيع، أفتقد وجودي بالصف الثاني وأستوحش الواجهة، ليس خوفًا أو جزعًا على نفسي، إنما أخشى ألا أحسن تدبير أمر أولئك المعلقين برقبتي فأمضي فيما فيه هلاكهم، إلا أنني استففت من وكزات نفسي الهشة عاقدًا العزم على المواصلة فيما ارتأيته صائبًا، لو كنت استشرت بأمر تلك الرسالة التي بعثوها لزعزعت النفوس، ولظهر من بين الآراء ما يبث

الخوف والهزيمة، وهذا أول ما أبتغي إقصاءه، سنكمل الذود عن هذه الأرض حتى آخر رمق، وسأبقى متمسكًا بالأمل في عودة ميرا وفارس، بل سأظل متشبثًا بالأمل في عودة سيدي يوسف بصحبتهما.

بالأخير خرجت أمام باب المجلس ناظرًا عن يساري، أرمق الواجهة الخلفية لمنزل سيدي يوسف بجانب داري، لكم اشتقت إليك يا سيد الوافدين، أفتقد وجودك إلى جواري، بل ويفتقدك هذا الدرب وذاك المنزل وكل حجر ودابة، أفتقد صديقًا وحبيبًا قبل احتياج تابع ومرؤوس يتأمل عودة سيده ليحمل عنه كل ما يقاسيه دونه، سيبقى أكبر ما بداخلي ودًا إليك ورغبةً في رؤياك. بعدها جاوزت بنظري بيت سيدي نحو منزل فارس الذي يليه، لبث خاليًا منذ ولايته على غولار، لكني ظللت أشعر بطيف صديقي بيننا، حتى يعودنا في زياراته فتضج الدروب والمجالس بصوته وضحكته وحضوره الطاغي، لكم أفتقد صحبتكما وأفتقد أيضًا وجود ميرا، فيما يفت قلبي تذكر أكمل.

قطعت شجوني وأغلقت الباب عائدًا للداخل، لأنتقل عبر بابٍ آخر بحائط مجلسي الجانبي إلى داري، قابلتني ابنتي زادة مهرولة لكنها تعثرت في خطواتها المضطربة الصغيرة

وانكفأت على وجهها، احتضنتها إلى صدري سريعًا، بينما أداعب خصلات شعرها البنية محاولًا التبسم لها، كم تشبهني كأنها قطعة مني، عيناها تميلان للون الأخضر الداكن، دقيقة الأنف والفم مثل أبيها، فيما أخذت من أمها حنانها، لاحت الأخيرة من غرفة الطعام وقد لاحظت اضطراب وجهي على الرغم من محاولتي مواراة ذلك، فاتّجهت نحو أريكة صغيرة في قاعة استراحتنا قبعت تحت نافذةٍ غمرها ضوء النهار، وضعت زادة فوق قدمي أداعبها، لتلحقني أمها مستفسرة:

«هل طلبوا استسلامنا؟».

أومأت بمعنى الموافقة، جلست إلى جواري وواصلت:

«وماذا كان ردك؟».

أشحت بوجهي نحوها: «أجبتهم بنفيٍّ قاطع».

ابتسمت ووضعت يدها فوق كتفي: «إذًا فيم اضطرابك؟».

أطلقت زفيرًا طويلًا وقبّلت رأس زادة قبل أن أرد:

«بقيت وحدي لهذا الحمل يا سماء، وأخشى أن تصير قراراتي وبالًا على أولئك الخلق».

قطبت حاجبيها سائلة: «أترى إن كان سيدي يوسف هنا،

هل سيُسلم؟».

أشرت برأسي نافيًا فواصلت: «إذًا أنت هنا مكانه، سل نفسك دومًا عما كان سيتخذه وستعرف عندها ما الصالح لهذه المملكة وأهلها».

أخذت زادة وضعتها فوق قدميها، نظرت نحوها بابتسامةٍ واسعة:

«لقد بلغت زادة الثالثة من عمرها، آمل أن تذهب بعد عامين نحو تلك الفصول التي خصصها سيدي يوسف لتعليم الصغار، أن تترعرع هنا بلا خوف، ألا أفقدها ذات يومٍ في إحدى حملات مطاردة القبائل من أجل العبيد، إن الموت أهون من معاودة الحياة القديمة يا يزن، إن قُدّر لنا ألا ننتصر، فلننهي حياتنا هنا فوق القمم، ولا نعود إلى تلك الجحور».

ترقرقت دمعات من عينيها فاحتضنت رأسها إلى كتفي بينما أشعر أنها أزاحت حملًا ثقيلًا عن صدري بدعمها، صرت أكثر ثقة في قراري، أكثر استبشارًا بنجاعته، وأكثر تصميمًا على الصمود.

لكن لم يمضِ سوى ستة أيام بعد يوم آربوس وجاءني قائد كتائب الرماة يعلوه الأسى، بينما كنت أتفقد مخزنًا للغلال

ذات نهارٍ بصحبة الوزير جمال، أخبرني أن هناك من جاء من فرسان آربوس الشمالية وحيدًا يحمل على فرسه جوالًا ألقاه على مقربة من البوابة وغادر مسرعًا، ارتفع دبيب قلبي لحديثه قبل أن أسأله مترقبًا عما وجدوا بداخله، ليجيبني وقد شابت عينيه حمرة، أنهم وجدوا بداخله بعض الرؤوس ورسالة فوق قطعة من الجلد لم يفضوها لحين حضوري.

قصور المكائد

(مارينا)

أخذت أصرخ:

«أنقذوا الملك جاد.. أنقذوا الملك!».

أثناء صياحي شعرت بمن قفز من خلفي إلى أن صار أمامي يوليني ظهره سادًا للممر، بينما تتأهب يده اليمنى للإمساك بمقبض سيفه، بدا مالك بن حاكم رانتاز وولي عهده، رأته زينة البحر فأمسكت بيد ولدها ضياء علامة على التمهل والتنبه، أخفى ابنها مديته خلف ظهره، ثم واصلا اقترابهما يرسمان الوداعة على وجهيهما حين قالت:

«جئنا لنطمئن على سلامة الملك».

رد مالك باستبشار:

«ملك آربوس بخير يا مولاتي، هرعت لحمايته ظانًا أن هناك من اقتحم المقصورة من أولئك الهمج».

لم أُدرك هل فطن مالك لكوني أستغيث ممن يخاطبهما ولا يُظهر ذلك في حديثه ليمنع تقدمهما بالحيلة والمكر، أم لم يصل إلى مغزى استغاثاتي وسيسمح لهما ببلوغ موضعي،

في حين كادا يبلغان موطئه راسمًا البشاشة، لولا بزوغ قائد حرس القصر، اقترب إلى أن صار بين مالك وضياء صارخًا في جنده:

«ليبقَ معي حرس القصر وجند الساحة لحماية الملك، وليذهب جند البوابات وجند دار السلاح لملاحقة الفارين».

قبل أن يلتفت نحو ضياء وأمه بلهجةٍ باردة:

«سآمر بتجهيز موكب مولاتي الملكة زينة البحر ومولاي ولي العهد ضياء بن زايد».

التفت مالك نحوي ومال بجسدِه سائلًا:

«هل الملك بخير؟».

أحسست أنه أدرك استغاثاتي جيدًا من نظرة عينيه نحوي، أومأت بمعنى الموافقة إلا أنني بقيت متشبثة بـ»جاد« يعتريني الخوف من الجميع، حتى بدأ توافد بعض الجند من حولنا وظهرت زهرة ووصيفة معها مقبلتين ناحيتي، حاولا مساندتي كي أقف، حين بدا أن هناك الكثير من المصابين لا يقوون على مجرد القيام من أماكنهم، سواء من الجند أو من رواد المقصورة الملكية، بينما لبثت مشدوهة من كل ما جرى، تلك المحاولة الجريئة من ضُرتي لقتل ولدي، الانفجارات

اللائي حدثت، الخيل الذي اقتحم الساحة، والفتاة الشقراء التي ظهرت كلبؤة جريئة احتضنت يوسف وأنقذته، لكن أكثر ما لبث مسيطرًا على قلبي هو خشيتي على صغيري جاد رغم إحاطة الوصيفات وبعض الجند لنا بعد صريخ قائد الحرس، كذلك بقيت أتمنى اكتمال هروب يوسف، إلى أن سمعت صوت زينة البحر تقول:

«سيكون فراره وبالًا على الجميع».

قالتها حين اخترق نظرها الحشد الذي أحاطني حتى تلاقت أعيننا، حملت نظرتها كثيرًا من التشفي والكيد كأنها تخبرني أنني المقصودة وحدي بهذا الوبال، لكنني أشحت بنظري عنها لأتحرك بين الحرس والوصيفات مستندة على زهرة.

بلغنا القصر في عجالة، لتهرع طبيبة الملك إلى غرفتي لتضميد جرحٍ ألمّ بساقي، طمأنتني أنه ليس بقدمي كسور تستوجب التجبير، لكنها بعض الكدمات وحسب، قبل أن تنصرف بصحبة الوصيفات تاركين زهرة برفقتي، لبثت تربت على جاد إلى أن غفيَ، فطلبت منها أن تذهب لتأتيني بأخبار الفرار، بينما بقيت راقدة على فراشي تكوي صدري جمرة من نار الترقب، لم يؤرق ترقبي سوى تكرر قيام جاد مفزوعًا

يصرخ، صرت أحتضنه كل مرة وأطمئن روعه حتى يعود لنومه، آملة أن ينسى ما رأى من هول بمرور الوقت، إلى أن عاودت زهرة بعد قدر ثلاث ساعات، جلست على مقعدٍ مجاور لسريري بوجهٍ متبلد الملامح، أخبرتني أن فرارهم اكتمل، بل لم يُطارد جند المملكة الفارين ما أن جاوزوا بواباتها، ذلك لأن جندنا بدوا قلة وخشوا تلك القنابل والسهام المتفجرة إن نُصِب لهم فخ، بالإضافة إلى كثرة الجرحى والقتلى من المعمرين والجنود، ما استدعى بقاء الجند للمساعدة في نقلهم نحو دور العلاج، لذا ارتأى المكلف بقيادة جند الساحة أن إغلاق البوابات وتدعيم حراستها أولى من تتبع الهاربين، مع إبلاغ الجيوش المحاصرة لأرض الوافدين بفرار سيدهم كي يتأهبوا لقنصه من طرفهم.

لم أستطع أن أخفي ابتهاجي لفراره، فيما بدا وجه زهرة مضطربًا؛ لم تعرف هل تُظهر ابتهاجًا لابتهاجي، أم يعتريها التحسر على ذاك الصيد الذي كان سيُعلي من رصيدي لدى أهل المملكة، إلى أن استأذنت في الانصراف.

لبثت زهرة متبدلة الملامح لبعض يوم، إلى أن جاءتني ذات نهار حالما أجلس بحديقة القصر أسفل مظلة كبيرة في حين جلس جاد على قدمي لا يفارقني، حيث لبث مضطرب الحال

منذ يوم الساحة، بدا القلق على وجهها أكثر من أي وقتٍ مضى، لذا أمرتها بالجلوس أمامي وسألت:

«ماذا تخفين عني يا زهرة؟».

أطرقت للحظات ثم أجابت:

«بعدما غادر قائد الجند نحو الحرب صارت حركة وصيفات قصره أكثر حرية، لذا تكرر اللقاء بيني وبين إحدى صديقاتي ممن خدمت هنا بقصرنا قبل انتقالها نحو قصره منذ عدة سنوات، استرسلنا في الحديث ومولاتي تعرف أن وصيفات القصور يعرفن الكثير».

أومأت برأسي متفهمة، فأنزلت عينيها عند موضع قدميها:

«لتعفو عني مولاتي إن كتمت عنها أمرًا في الأيام السابقات، ذلك لأن الخيوط لم تكتمل برأسي إلا بعد هروب سيد الوافدين وتعدد الأحاديث بيني وبين تلك الوصيفة».

أحسست بغضبٍ يتصاعد برأسي من مماطلتها، إلا أنني تمالكت حالي لعلمي بإخلاصها، طمأنتها بابتسامة صغيرة:

«لا تقلقي يا زهرة، هيّا قولي ما لديكِ».

- لا يخفى عن مولاتي أن زينة البحر تكيد لنا منذ أن

اعتلى مولاي جاد سدة الحكم تحت وصايتك، وأنها عجوز لئيم لها ثقلها بالمملكة من أقرباء ومصاهرين وموالين، لكننا لبثنا بعيدين عن مكائدها لا نلقي لاستفحالها بالًا، مستندين لشرعية حكمنا وفقًا لوصية الملك الراحل زايد، تلك الشرعية التي يؤمن بها العوام من المعمرين، كذلك حكام القرى بما لهم من قوة ونفوذ، وفوقهم قائد جند المملكة ووزيرها، المملكة بأسرها مستقرة على ذلك، لكن ما جد أن هذه الوصيفة أخبرتني أنها سمعت عدة أحاديث بين قائد الجند والوزير الكهل، استشفت من مجمل ما سمِعَت، أن السبب الأكثر رجاحة لاستبقائهما مولاتي الملكة وابنها على المُلك ووقوفهما إلى جوارك في ذلك، هو أنهم كانوا يدبرون منذ أول أيام حكم مولاي جاد لاستدراج يوسف من خلالك وأسره».

عقدت حاجبي:

«إذًا لم أقنعوني برفض طلب سلامِه عندما بعث رسوله بأول أيام حكمنا، من قبل سقوط غولار على يديه ببرهة قصيرة، بل وعلّقوا رأس الرسول على بوابة المملكة؟».

- الوزير الكهل يُحسن الكيد يا مولاتي، وقتها كما تعلمين لم نتمم اتفاقًا مع ملك الجنوب الذي يملك بارودًا ويُمكن

لجنوده الصعود إلى قمم السلسلة الغربية لعدم وجود راجمات في ناحيتهم وفقًا لعهده القديم مع الوافدين، ماذا سنجني إن استدرجنا يوسف لقتله وبقيت سرابوس ومملكة الوافدين على صمودهما أمامنا؟ بل وبقي كذلك تحالفهما القوي مع ملك الجنوب ضدنا، إلى جانب أن وقتها لم يكون الوافدون قد احتلوا غولار بعد، بالأحرى لم يدُر بمخيلة أحد أن يأتي يوم يتجرأون فيه إلى هذا الحد، لكن من بعد طلب سيد الوافدين للسلام معنا أول مرة، نشط الوزير كثيرًا في مراسلة ملك الجنوب باسم مولاتي ليُتمم تدبيره كاملًا كما أراد، إلى أن ارتضى ذلك الملك عهدنا بالأخير بعدما استفحلت قوة الوافدين واحتلوا غولار، حيث صار وقوعها بأيدي الوافدين من الأسباب التي أدت لاكتمال تحالفنا مع الجنوب، ولولاه ما تم التحالف، لأن ملك آريوس الجنوبية خشي هو الآخر استمرار تمددهم إلى أن يغزوا أرضه بقوة بارودهم الذي لا يملك منه سوى بضع عشرات من الجرار، فوافق على مشاركتنا في إقصاء الوافدين عن الساحة بعدما أطلعناه على تدبيرنا لاستدراج يوسف وقتله، من ثمّ بعثنا رسالتنا ليوسف بطلب السلام وابتدرنا تنفيذ خطة الوزير الكهل في الإيقاع به وبمملكته كاملة.

- وما الذي قد يُخيفني من فكرة استبقائي لأجل الإيقاع

بيوسف؟ ها قد أوقعت به، ومملكته محاصرة بفضل ذلك، وارتفع رصيدي عند أهل المملكة.

- لكنه استطاع الفرار.

ارتسم الغضب على وجهي وزادت حدة لهجتي:

«لا أفهم ما تقصدينه، قولي ما عندك دفعةً واحدة».

- وقت سقوط غولار بأيدي الوافدين إبان أول شهور حكم مولاتي، ارتفعت نبرة ضعف الملك الصغير وأمه بين عوام المعمرين، انتشر بينهم الخوف من سقوط المملكة بأسرها في أيدي الوافدين إذا ما دام حكم الملك جاد، ما عرفته أن حاكم غولار الذي فر منها إلى هنا بسقوطها، ارتمى في أحضان زينة البحر، أخذا يرددان الأمر وينشرانه لدى العامة من خلال رجالهما، بذات الوقت بدآ يحاولان استقطاب سائر حكام القرى ليناصرونهما في قرارهما بخصوص ضرورة عزل مولاي جاد، طاوعهما في ذلك حاكم زورين وحاكم كيبول بشرق المملكة، أما حاكم رانتاز القوي وحاكم قسطا التي تجاورها آثرا الابتعاد عن تلك المكائد، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، بذلك التوقيت الذي ارتفع فيه موج التغيير وتشكل ما يُشبه حلفًا قويًا لإقصائنا، تعددت لقاءات قائد الجند مع زينة البحر، في آخر لقاء بينهما تحدّث معها صارمًا أنه يعلم بما

تخطط له جيدًا، وأن عليها إيقاف هذا العبث إلى أن ينفذوا مخطط الإيقاع بيوسف ومملكته ثم ينظرون في تلك الأمور.

بدأت عندها أمسك بتلابيب ما تحكي زهرة لذا أكملت:

«لمّا أوقعنا بيوسف وحاصرنا مملكته انطفأ الكيد واندثرت الأقاويل عن ضعف الملكة مارينا، لذلك لبثت توعزين إليّ بمحاولة اكتساب قلوب العوام بيوم آربوس كي يزيد رصيدي عندهم ويستقر حكمنا في قلوبهم، ما حاولت إتمامه لكن حدث ما رأى الجميع».

التقطت زهرة طرف الحديث دون أن ترفع عينيها نحوي وقالت:

«ما إن انتهى اليوم بالفاجعة وفرّ سيد الوافدين بعدما خلّف دمارًا كدمار الحروب بالساحة، إلى جانب عشرات القتلى والجرحى من سائر القرى بل ومن معمري آربوس الجنوبية أيضًا، انتهزت زينة البحر وأولياؤها تلك الفرصة، عادوا مسرعين إلى ديدنهم السابق، وأخذوا يرددون بين الثكالى والمنكوبين أن السبب في هذه الفواجع هو مولاتي الملكة مارينا، لأنها بسوء تقديرها استدعت سائر جند المملكة للبقاء إلى جوارها وتأمينها بيوم آربوس، دون أن تضع باعتبارها حماية أسوار المملكة وبواباتها، تريد تحويل

انتصارك بأسر يوسف إلى إخفاقٍ في الحفاظ عليه وفشلٍ في الزود عن المملكة، والعامة كالغوغاء يتبعون كل يوم رأيًا جديدًا لا سيّما إن حركتهم العاطفة. ما يجب أن نضعه باعتبارنا الآن، هو ماذا سيحدث إن استطاع يوسف الرجوع لمملكته وانتصر في هذه الحرب؟».

- ماذا تعنين؟

- أعني أن المعمرين الغاضبين لا يعلمون سببًا لفرار يوسف وللدمار الذي حدث، سوى سوء تدبير مولاتي باستقدام الجند إلى الساحة بهذا اليوم، لم يضعوا باعتبارهم أن الجند هنا بالمملكة من قبلها كانوا قلة، وما من أحد دار بخلده أن يحدث مثل هذا التسلل، لكن لو قلنا أن مولاتي لم تأمر بذلك، ستظهر مولاتي كمن لا تملك من أمر المملكة شيئًا، وإن لم نقل تصبح مولاتي بسوء تدبيرها هي المتسبب الوحيد فيما حدث، وفي فرار يوسف الذي سيجلب الخراب على المملكة من جديد -هذا إن عاد وانتصر وعاود التوسع- ما سيعيد نبرة ضعف حكم الملك وأمه، بل سيقولون أنك السبب في ضياع انتصار المملكة، من المرجح أيضًا أن يعودوا لقولهم إن استمرار حكمك سيؤدي إلى انهزام المملكة كلها على أيدي الوافدين، ما سيبعث كيد زينة البحر من ثباته

لكن أشد تنكيلًا وأكثر أثرًا لدى المعمرين والحكام المتحالفين معها بل ولدى غيرهم.

أطرقت قليلًا أدير الأمر في رأسي قبل أن أرد:

«لكن قائد الجند والوزير معنا وسيردون مثل هذا الكيد، أليس كذلك؟».

- يجب أن تعرف مولاتي أن الوزير وقائد الجند لم يناصرا حكمها لأجل نفوذهما ومكانتهما بالمملكة، فنفوذهما محفوظ وسيطرتهما على مقاليد الأمور مستقرة سواء تحت إمرة ضياء -المتلفع بأمه- أو إمرة مولاي الملك جاد، لا سيّما مع علاقاتهما التي لم يقطعاها مع تلك الحرباء. لو قلنا أنهما مع الشرعية التي يدين بها الحكام والعامة، وأن استقرار المملكة من استقرارها فها هي المملكة حكام ومحكومون قد تنقلب على تلك الشرعية بفضل الكيد والتضليل والدسائس، أما عن السبب الأقوى الذي لبثا يحافظان عليكِ من أجله وهو الإيقاع بيوسف، فها قد هرب، ومن المستحيل أن يقع في مكيدة أخرى مثل التي تمت، لا حاجة لهما عند مولاتي بخصوصه مجددًا، عندها قد يتركان الموجة القوية تعلو علينا، لن يقاوماها بل قد يركبانها مع الراكبين ويكسبان رصيدًا عندهم، إلى أن تصبح كل الظروف مواتية لخلع الملك

جاد وتنصيب أخيه ضياء، وخلع الملوك يعني هلاكهم أو حبسهم إلى الأبد.

ارتفع دبيب قلبي وسألت:

«ماذا بإمكاننا أن نفعل؟».

- إن لم ينجح يوسف في بلوغ مملكته واكتمل انتصارنا، سيبقى أهل المملكة يدينون لكِ بالفضل في الانتصار، سيخمد كيد زينة البحر وأتباعها، حتى ولو شاب الأمر هروب وكر وفر ودمار، أما إن لم يكتمل انتصارنا بفضل هروب يوسف فلا بُدَّ أن يكون لنا تحرك مثلما تتحرك زينة البحر، بل نسبقها في ذلك، لا يجب أن نبقى مستندين إلى من قد ينقلبا علينا في طرفة عين.

- فسّري ما تقولين.

ابتسمت زهرة.

- لم تلاحظ مولاتي بيوم آربوس أن الأمير مالك لم يرفع عينيه من عليها مثلما اعتاد كلما ظهر في مكانٍ تبزغ فيه مولاتي، المعروف عنه أنه بطل مقداد لا يترك معركة دون الالتحاق بها، لكن ظني أنه أجّل ذهابه نحو الحصار ليرى مولاتي الملكة ويكون إلى جوارها بيوم آربوس. لو أرادوا

الإطاحة بمولاتي لا بُدَّ لهم أن يجمعوا إمارات القرى على ذلك وعلى طاعة الملك الجديد، أو على الأقل أن يضمنوا عدم معارضة أي منهم وانشقاقه، مالك هو ابن حاكم رانتاز إمارتنا الأكبر، لقد استمرت هذه المملكة على وحدتها لبقاء قوانينها صارمة بشأن قواعد المُلك في آربوس الشمالية، وبشأن توارث الحكم في القرى الخمس، ووحدة جند المملكة تحت طوع قائد واحد رغم تفرّق الجنود في القرى وانتمائهم لها، لم يمنع الفرقة سوى ذلك، إلى جانب حاجتهم للوحدة دومًا من أجل تربص الجنوب بنا، أظن أن مولاتي لا تعلم أنه منذ زمن حاول أحد حكام رانتاز أن يستقل بها ليجعلها إمارة مستقلة، بل وحاول التحالف مع ملك الجنوب ليعينه على أمرِهِ إثر اختلافه مع ملك آربوس الشمالية بشأن قواعد التوريث، فقد كان ابن الملك الأكبر صهرًا لهذا الحاكم، وأوصى الملك بولاية العهد لابنه الأصغر متجاوزًا ابنه الذي تصاهر مع حاكم رانتاز، عندها قامت حرب وحوصرت رانتاز، لكنها صمدت لأمدٍ طويل إلى أن انتهى الأمر بالغدر بحاكمها المنشق من قِبل ابن أخيه، قتله واعتلى حكمها مكانه، ثم رضخ لوصية الملك في حين أقرّه الملك على حكمها وانفك الحصار، من وقتها يعلم الجميع أن هناك شيئًا من التعكر في علاقة رانتاز بالمملكة الأم في آربوس الشمالية، لكنهم

يعرفون أنها حجر الزاوية والثقل الأكبر. لن يمر مخطط مثل ذلك دون رضاء حاكمها القوي الحالي.

- أتقصدين أن أراسل مالك وأطلب عونه؟

- بل أقصد ما هو أكبر، أن تتزوجيه، ليكون لكِ بهذه المملكة ركن شديد يحفظ مُلك الملك جاد وروحه.

بين أنفاق الجبال

(يوسف)

استسلمت لاجتذاب ميرا وأخذنا نركض عبر نفقٍ امتد خلف الكهف، بينما أسمع تصايح فارس على جنده: «اثبتوا من أجل أبنائكم ونسائِكم، لا يلقِ أحد منكم سلاحه، بقاء تلك المملكة فوق الجبال رهنًا لأيديكم، لن نؤسر، إنما نقاتل فننتصر أو نُقتل».

وددت أن أصرخ فيه: «فلتؤسر ولا تُقتل، لا زلت أحتاج إليك يا صديق»، لكنني أدركت أنه يريد إطالة أمد القتال لأطول قدر حتى نبتعد إلى أبعد مدى، صرت أركض ينتفض جسدي، أرى مصيره شاخصًا أمامي إن واصل فيما يبتغي، أتمنى أن يستسلم ويؤسر كي يبقى أملًا في رجوعه، بينما أرى ومضات من صحبتنا سويًا طوال سنواتٍ خلت، هزّني استرجاع مشهدنا بغرفة استقبال الوافدين، حين اقتطع من طعامه ليقيم صلبي، تذكرت تطييبه جلدات ظهري متخفيًا، وشدّه من أزري الذي أسكن وحشتي بأول أيامي، ثم رحلة فرارنا الأولى، افتراقنا وهروبه، قبل لقائِنا بالأخير لنبقى سويًا نرفع ظلمًا وقهرًا استحكم بأهل هذه الأرض، متيقنًا أنه لبث طوال حروبنا لا يعنيه كل تلك المعاني السامية، بل

أظنه بالكاد فهمها، إنما أكثر ما عناه هو بقاؤه إلى جواري ومناصرتي، آمن بي قبل إيمانه بالحق والعدل، آمن بصديق ووفى له.

فارس، أيها البشوش الضاحك، أعدك أن يصير فراقنا وبالًا عليهم، إلى أن نلتقي من جديد.

واصلت الركض جوار ميرا بغير هدى وسط ظلامٍ دامس، حتى انقطع صوت المبارزة وصريخ الجنود، بينما لبثنا نتعسر بين الفينة والأخرى إثر صخور ونتوءات عرقلت أقدامنا، صرت أسقط فتقيمني وتسقط فأقيمها، بالأخير وصلنا لمفترق عن يمين ويسار، أخذتنا ميرا يسارًا ليبين أننا نرتقي لأعلى خلال هذا النفق الجديد، إلى أن استوى أفقيًا بعد عدة مئات من الأذرع، حاولت التوقف من فرط الإعياء إلا أنها اجتذبتني هامسة بأن تتبُّعنا إلى الآن لا زال هيّنًا؛ تحاملت لنكمل ابتعادنا، من بعدها بدأت ألاحظ أن هذا النفق به أكثر من مدخل نفق عن يمين ويسار، منهم ما ظهر فيه بصيص ضوءٍ أبيض تسلل من القمر لوجود جُرُف أو فتحات صغيرة بسقف تلك الأنفاق المتشعبة، ومنهم ما ظهر فيه أنوار صفراء بازغة وكأنها علامة على وجود تجمعات قبلية حيث بزغت، لكننا لم ننحرف في أيٍّ منها مكملين هرولتنا، إلى أن مال

النفق ذاته إلى اليسار بزاوية قائمة.

توقفنا لنلتقط الأنفاس، حين قالت ميرا بينما يتقطع صوتها إثر اللهاث المتواصل لأمد:

«سيتوقف الجند أكثر من مرة عند تقاطعات الممرات المتشعبة، سيأخذون في التفرق مع كل تقاطع، ذلك يمنحنا عدة دقائق لنلتقط أنفاسنا، إلّا أن هذا يظل بخصوص من يلاحقونا الآن، أما في الصباح ستعج متاهة هذه الأنفاق بالجنود».

أجبت بينما أشعر بصدري ينتفض:

«هل تعرفين بقية طريقنا نحو مدخل نفقك الموصل للمملكة؟».

- لا زلنا بجوف المنطقة الشمالية من سلسلة الجبال، لا بُدَّ أن نتجه جنوبًا في مسيرة عدة ساعاتٍ إلى أن نبلغ المنطقة الوسطى، هناك سأبدأ في تحسس أنفاقها ومعرفة معالمها، لكننا نحتاج لأن نكمن بين الحين والآخر أثناء طريقنا، كما سنحتاج إلى شعلة نار نجد عليها سبيلنا.

التقطت أنفاسها قبل أن تضيف:

«قبل عدة سنوات حين تركنا قبيلتي هربًا من جنود

آربوس الذين كانوا يطاردونك، لم يكن لنا وجهة، لبثنا نبتعد وحسب، نلتحق بقبائل ونتركها دون مقصدٍ سوى الفرار من الجند، لكننا هذه المرة لنا طريق نبتغي تحديد معالمه، كما يجب علينا التحرك بروية لنتحرز من وشاة الوافدين الذين لبثوا يسكنون جوف الجبال. قديمًا لم يعرفوا يوسف سيد الوافدين، ولا ميرا قائدة سرابوس، أما الآن صرنا غنيمة للوشاة».

أشرت برأسي موافقًا، ثم بقينا نلتقط أنفاسنا لدقائق إلى أن اجتذبتني لنواصل ركضنا، أخذتنا تلك المتاهة من نفقٍ إلى نفق، بعضها بدا مستويًا والبعض ارتقينا فيه لأعلى، وغيرهم انحدر لأسفل، فيما لبثنا محافظين على اتجاهنا مائلًا نحو الجنوب، نتحاشى المرور بمواضع الضوء الأصفر، ونلتقط أنفاسنا بجوار البقاع التي يظهر بها ضوء القمر، حتى تملكنا الإعياء للحد الذي صرنا فيه لا نقدر على مواصلة الركض، إلا أننا واصلنا مسيرنا نخطو متثاقلين، بينما بدأت ميرا تتحسس جانب الأنفاق التي نسلكها، شرعت تتوقف كلما أحست بفجوةٍ صغيرة أو شقٍ ضئيل، من ثمّ تحاول الدخول بجسدها، كررت الأمر عدة مرات إلى أن توقفت بالأخير، اجتذبتني نحو الجانب الأيسر للنفق هامسة:

«حاول الدخول إلى هذه الكوة؟».

مددت جسدي لأتحسسها في الظلام، بدت كفجوة شبه دائرية قطرها ذراع ونصف، وامتدادها داخل جانب النفق بمقدار ثلاثة أذرع، بالكاد تسمح بجلوسنا القرفصاء متجاورين بداخلها، لذا أجبت:

«أظنها بالكاد تكفينا».

- إذن لنبحث عن صخرة ملائمة لنسدّ بها من خلفنا».

ابتدرنا نتلمس قطع الحجارة والصخور على جانبي النفق حتى تعثرت في واحدة، همست لها بأنني قد وجدت ضالتنا، جاءت تتحسسها وقالت:

«إذًا هذه سنسُد بها الكوة، ينقصنا التمويه».

- ماذا تقصدين؟

- سنضع بعض قطع مثلها لدى جانب نفقنا هذا على مسافات متباعدات قبل موضعنا وبعده، حتى إذا ما دار بخلدهم أن يحركوها، وجدوا ما خلفها فارغًا، سيرفعون الأولى والثانية وقد يرفعون الثالثة، وسيخيب رجاؤهم في كل مرة، لذا سيتوقفون عن التفتيش خلف البقية، لا سيّما أنهم في عجالة من أمرهم، يظنون أننا نركض وهم يركضون

في إثرنا، وهناك العشرات مثل تلك القطع بكل الأنفاق، بالأحرى لا أظنهم سيعتقدون أن من الممكن دخول فردين خلف هذه الصخرة، لكنها تبقى زيادة في الحرص.

كدت أصفق لفطنتها، لكنها عاجلت إلى البحث بلا تأخر، لذا أخذنا نعد تدبيرها كما شرحت إلى أن انتهينا، نجلس متجاورين داخل شقنا الصغير وقد تغطت فتحته بقطعة الصخر، لأشعر بالسكينة تتسلل إلى روحي على مهل. اطمأنت أنفاسي رويدًا رويدًا، هدأ دبيب صدري، كأن هذا الجحر عزلنا عن العالم من حولنا، عزز بداخلي ذلك أنني أحسست باختلاجات أوصال ميرا تتراجع، إلى أن مالت برأسها على كتفي الأيسر، فخبت اضطراب جسدها وقالت بصوتٍ هادئ:

«لم يعد يعنيني شيء من العالم الآن، آه لو يتوقف الزمان على جلستنا هذه! أود البقاء هنا إلى جوارك، أتناسى ما يحيطنا، ما ينتظرنا، ما مضى».

مددت ذراعي أحطت به كتفها:

«بل أنا من يود الاعتراف بأنني صرت لكِ، لكِ وحدكِ، صرتِ وجهة قلبي ومقصده، وطمأنينة روحي وبهجتها، وملاذ نفسي».

مالت بوجهها نحو وجهي بينما أحسست أنها ارتعدت من ردي المفاجئ، اقتربت إلى أن لامست أنفاسها عنقي:

«ماذا قلت؟».

- قلت ما توجب قوله منذ أمد.

غرزت رأسها بصدري وأخذ جسدها يرتج بينما تقول: «كنت أعرف أنك لي بالنهاية مهما طال بك الأمد، لبثت على يقين من تحقق هذه اللحظة»، قبل أن ترفع وجهها نحوي لتلتقي شفاهنا للحظات، أنهيتها بأن أبعدت رأسها برفق.

- ما إن نعود إلى المملكة سنعقد قراننا أمام الجميع.

- وهل تنتظر راعيًا ليعقده باسم روح آربوس؟

- أنا أعبد من خلق روح آربوس، وخلق الدنيا كلها، إلهي فوق السماوات.

- وأنا سأعبد ما تعبد، لكن لِم لمْ تُعلّم الصغار ذلك وتخبر به الكبار؟

- كنت أنتظر استقرار معيشة الوافدين بالمملكة وتوقف القلاقل من حولنا؛ مخافة أن يُحدث الأمر صخبًا وجدلًا، لكني أيقنت مؤخرًا أنه لا توجد هنا حياة آمنة على الدوام،

وأن تأخيري لم يكن له داعي.

- إذًا، ما إن نعود ستعلّمني ما تعرف، ونعقد قراننا كما أسلفت.

وافقتها على ذلك مبتسمًا ليأخذنا الحديث الهامس لساعةٍ إلى أن غفِيَت تُسند رأسها إلى كتفي وأميل برأسي على رأسها، في حين لم أغفُ بل عصف بعقلي وقلبي ذكرى إسراء، من وعدتها بالعودة نحو أرضنا لنشيخ سويًا ونزور شاطئ الفنار كهلين يتأبط أحدهما ذراع الآخر، من لبثت أناجيها طوال سنوات خلت بأني لا زلت عند وعدي، من لا زال الحنين إليها يزاحم صدري، لكن لم يعد للقاء وسيلة بعدما فرقت بيننا الخطوب الراسيات، بل صرت الآن لا أعرف، هل من الممكن أن تتغير المقادير وأجد سبيلًا للعودة نحو أرضنا كما أملت دومًا، أم حُبِسنا بهذه الأرض إلى الأبد؟ وإن عدنا، لا أظنني سأترك ميرا، فقد صار لها قسم من روحي ووعد قاطع، لكن عندها سأحاول على الأقل أن أنفّذ وعدي لإسراء بالرجوع لأرضها والفرار من هذا العالم المظلم.

أنهكني الفكر فحاولت الاستسلام للنعاس، إلا أن أحلامي لم تفلت من ذكرها أثناء ثباتي، ففراق الأجساد هيّن أما افتراق القلوب له غصة، كضريبة مقسومة على صدور المفارقين.

«إسراء، يا من لست مارينا، لم أعد أملك نفسي، فلا تلوميني».

استفقت من نزاع قلبي وعقلي إثر صوت خطواتٍ بالخارج، عاجلتني ميرا بوضع إصبعها على شفاهي بما أوحى أن هناك مقتربين، انتظرت ابتعادهم قبل أن أهمس:

«متى استيقظتِ؟».

- منذ ما يقرب من ساعة.

- وهل تكرر مرورهم؟

- تكرر لمرات ومرات، لكنها لا تبدو كخطوات جنود، من المرجح أن هذا النفق يمثل جزءًا من طريقٍ نحو القمم، يسلكه أبناء قبيلة أو أكثر من قبائل الوافدين.

- أيعني ذلك أننا لا زلنا بعيدين عن موقع تمركز جيش الشمال مقابل المملكة؟

- أنا موقنة من ذلك، كما أظن أن كثافة الجند داخل الأنفاق ستكون كبيرة ليوم أو يومين، من بعدها ستتناقص وطأة تعقبهم، ذلك لسببين، أولهما أنهم سيوعزون لكافة القبائل بهروبنا، معلنين عن مكافأة لمن يأسرنا أو يخبر عنا، بينما يتوعدون أشد الوعيد لمن يعيننا، سيضعون قسمًا من

عبء الإمساك بنا عليهم، أما السبب الثاني أنهم سينتظرون ظهورنا لدى القمم، هم على يقين أننا نحاول الرجوع للمملكة، ولا يعرفون بأمر نفقي، لذا يعتقدون أننا سنحاول التسلل إلى أسوار المملكة من أعلى القمم، لهذا سوف يشددون حصار الأسوار، ويزيدون مراقبة كافة المنافذ المؤدية إليها، سواء عند جيش الشمال أو الجنوب.

- إذًا ماذا ترين؟ هل نواصل المسير أم ننتظر؟

- هنا النهار يشبه الليل، سيزهو بصيص النور نهارًا بقدرٍ ضئيل في بعض المواضع، وما سيزيد هو حركة المارة لجلب الماء والزاد. أرى أن نتحرك ليلًا، إلّا أنك ستبقى الآن هنا فيما سأحاول بلوغ موضع إحدى القبائل بينما انصرف معظم قاطنيها، لأستل لنا زادًا وشعلة زيت أو كبريت، أعطني ملابسك الجلدية كي أظهر مثلهم، ولتحاول ارتداء ملابسي الكتانية، لكن إياك أن تمزقها.

أفلتت منها ضحكة قصيرة وواصلت:

«سأعكّر وجهي ببعض التراب وأغطي شعري بخرقة معي، ولنتمنى ألا يراني من يعرفني».

- بل تبقين وأذهب.

- أنت لا تعرف الحياة بجوف الجبال مثلي، سوف أشتم رائحة القبائل من بعيد، ثم أقعد لهم لأتلصص أخبارهم، سأعرف هل خرج الرجال والنساء الأشداء أم بقوا، قبل أن أتسلل من حيث لا يشعر الماكثون، ألج خلسة وأخرج على عجل.

أطرقت للحظات قبل أن تضيف بأسى:

«هذا سيفي، إن طال غيابي فلتواصل المسير نحو المنطقة الوسطى، حيث ترقد مملكتنا بالأعلى، حاول تفرّس موضع منزلي، ثم فتش بعينيك متحريًا في أعلى النفق الذي تسلكه، إلى أن تجد شقًا دائريًا بالسقف، ستظنه مسدودًا وقد تعبر لا تعيره بالًا لكنها صخرة تواري خلفها نفقي الصاعد وهذا سبيل بلوغك».

- لن أكمل المسيرة دونك، وأعرف أنكِ لن تتركيني وحدي.

احتضنتني قبل أن تغادر وتغلق الكوة من خلفها، ليمر الوقت ثقيلًا متباطئًا، انقضى ما يقرب الساعتين دون عودتها حتى كدت أخرج لأبحث عنها، إلّا أنها بالأخير عاودت تحمل قربة ماء وبعض الزاد وشعلة كبريت لم توقد نارها، أخبرتني بقرب جحرنا من مواضع بضع قبائل متفرقات تقطن المنطقة الشمالية حولنا، لكن الأعداد بكل قبيلة لا تُجاوِز عشرة بالمائة

مما كانت عليه قبل نهوض مملكتنا فوق الجبال، ما أحزنني هو قولها إنها أنصتت السمع لتدرك أن بعضًا من أهلنا بالمملكة هربوا منها إلى تلك القبائل عندما بلغهم سقوط غولار، قبل أن يأمر يزن بإغلاق بوابات المملكة ويمنع خروج أي من أهلها.

لكني عزّيت نفسي بأني مكثت موقتًا منذ أول نهضتنا أن الكثير من أهل المملكة لم تتشبع أرواحهم بالحرية والكرامة بعد، ظلّوا مفتقدين لقيمة الانتماء لأرضهم ولبعضهم، وكيف من الممكن أن يمنحهم هذا الإحساس قوةً للثبات، بل على النقيض استمر الخوف سيدًا لأنفسهم ممسكًا بنواصيهم، بعدما عاشوا جيلًا بعد جيل كأنعامٍ تطاردها الضباع، لا يعرفون للمقاومة معنى ولا يقر يقينها في صدورهم، لا ألومهم بل بالأحرى أشفق عليهم، كانوا يحتاجون لمزيدٍ من الوقت كي يعتادوا تلك المعاني، هم ضحية جشع الإنسان وطمعه مثل أولئك الذين يعانون بعالمنا عبر صور غير مباشرة للعبودية، إلا أنني أدركت صواب رأيي باستبقاء يزن على المملكة، لم يخِب ظني يومًا، بل على الدوام أثبت أهليته للخطوب الثقيلات. سيقاوم إلى أن أعود فندبر أمرنا سويًا.

بقينا ساعات النهار كامنين، حتى حل الليل وخفت دبيب

الحركة، عاودنا المسير بتؤدة، مواصلين نحو الجنوب، نوقد شعلتنا كل ساعة لثوانٍ معدودة قبل أن نطفئها على عجلٍ علّ ميرا تستكشف أي معالم لطريقنا، إلا أننا لبثنا نتحرك دون يقين، متأملين بلوغ موضعٍ يشي بقربنا من المنطقة الوسطى، حتى تملكنا اليأس في إمكانية الوصول بليلتنا، لا سيّما مع تواتر دوريات الجند التي كادت تحطنا أكثر من مرة فيما بقينا نراوغها مرارًا، اعتدنا العودة من حيث أتينا ما إن نلمح ضوءهم من بعيد، ثم نُخلف طريقنا، أو نتوارى بمفارق الأنفاق القريبة -إن وجدنا لذلك سبيلًا- في انتظار عبورهم، من ثمّ نعاود لنفس دربنا، متمسكين بميزة سيرنا في الظلام وتعقبهم لنا بالمشاعل، كذلك فتّ من عزمنا بهذه الليلة اضطرارنا لتجنب مواضع القبائل كلما قابلناها، مما أدى لحيدنا عن الجنوب وتعطّل مسيرنا أكثر من مرة.

لذلك ما إن جاوزنا منتصف الليل بساعتين وفقًا لتقديري، وتملك منّا التعب ونفد الزاد، أخذنا نفتش عن موضعٍ جديد لنكمن فيه حتى المساء التالي؛ لم نظفر بمثل الجحر الأول، بل صادفنا خلال بحثنا نفقًا ضيقًا انخفض سقفه للحد الذي يستلزم أن نسير فيه راكعين، وشى ذلك بعدم اتخاذه كممر لأهل القبائل أو الجند، لذا اتفقنا على المبيت فيه، على أن يخلد أحدنا للراحة فيما يبقى الآخر للحراسة. تناوبنا أمرنا

حتى الصباح، وما إن استفقنا شرعنا نُفتش عن موضع قبيلة قريبة لتستلب منها ميرا ما يقيم أصلابنا، أنجزت مُهمتها على عجلٍ كعادتها قبل أن نعود مسرعين إلى مكمننا لنبقى فيه حتى المساء الذي واصلنا عنده التحرك. لم يصدق حدثها بشأن تناقص عدد الجند باليوم الثالث، بل على النقيض ما إن تحركنا لساعة فاجأنا زيادة أعدادهم وتعاقب دورياتهم عن اليومين السابقين؛ تفرست أننا صرنا أسفل موقع تمركز جيش الشمال مقابل المملكة لذلك تكاثرت أعداد الجند، مما دلّ على سلامة اتجاهنا نحو الجنوب على الرغم من تعثرنا وتغير وجهتنا عدة مرات طوال الليلتين السابقتين، إلا أن هذا الزخم ألجأنا للتوقف أكثر من الحركة، ولم نحز تقدمًا إيجابيًا بتلك الليلة سوى أننا صادفنا نفقًا عرفته ميرا يصل إلى ساحل البحر بالجهة الغربية من سلسلة الجبال، ارتأيت أن الاقتراب من البحر يعني خيارات أكثر للتخفي، وإمكانية للحركة على شاطئه لدى البقاع التي لا تظهر للقمم، كما أنني شعرت برغبةٍ عارمة في مفارقة هذه الأنفاق لنلتقط أنفاسنا لبرهة.

ابتدرنا المسير خلال هذا النفق منحدرين لأسفل، لم نلقَ جندًا ولم تعقنا خلاله قبائل سوى قبيلة واحدة بزغ نورها يسارًا في نفقٍ قطع نفقنا لدى تقاطع رباعي، لم نتوقف بل

واصلنا إلى أن بزغ لنا ساحل البحر تحت ضوء القمر، خرجنا إلى الشاطئ بينما أرمي نظري لأعلى تحسبًا لوجود مراقبين أعلى القمم، أخبرتني ميرا أنها تعرف هذه البقعة، لا تظهر لمن بالأعلى لبزوغ القمة عندها عن السفح، لذا بدأنا نتحرك بحذاء الشط نتلمس شقوقَ سفح الجبال، لم نجد ما يُلائِم مقصدنا حتى قابلتنا بقعة تضرب فيها الأمواج السفوح، عبرت ذلك الموضع سابحًا في حين تعلقت ميرا فوق كتفيّ رافعة يدها التي تحمل الشعلة الخامدة لأعلى، ثم واصلنا على الساحل إلى أن بلغنا كهفًا بباطن السفح بدا مدخله كبيرًا.

ظننت أننا سنتخذه مستقرًا لنا، لا سيّما بعدما ابتعدنا عن مخرج النفق، إلّا أن ميرا أخبرتني أنه مكشوف للعيان ولا يمكن مواراة مدخله، لذا واصلنا المسير إلى أن بلغنا شقًا صغيرًا للغاية بجانب الجبل يقل ارتفاعه عن ذراع واحد من فوق الأرض، رقدت ميرا ثم زحفت عبره إلى أن اختفى جسدها بالداخل، لم تمر سوى ثوان ونادتني بأن أتبعها، لحقت بها لأجدها قد أوقدت شعلتنا، اتضح على نورها أنه نعم المأوى، بدا من الداخل كهفًا مربعًا بعرض عشرة أذرع وطولًا مثله، ذو أرضية من الرمل وليست صخرية كسائر السلسلة الجبلية، ما استرعاني فوق كل ذلك هو وجود نقش محفور على جداره الشمالي، لاحظته عن يساري مجرد ما

اعتدلت واقفًا بداخل الكهف بينما ظهري لكوّته الصغيرة، كأن هناك من سكنه قديمًا، اتجهت نحو النقش وأخذت أتفحصه فيما تشدّ ميرا الكوّة بإحدى الصخور، لم أفهم مغزاه حيث رُسمت بعض خطوط متعرجات طولية، استقر أمام حدها الأسفل سهم أفقي يتبعه سهم حتى تصل الأسهم إلى خطوط متعرجات بالعرض، تركته حين احتضنتني ميرا من الخلف هامسة:

«ما لم يدر بخلدي يومًا، أن أجتمع بك وحدنا في مثل هذا الموضع الساحر، والأكثر سحرًا أن يصير ذلك بعدما بقيت لي».

استدرت لها مبتسمًا:

«بل سنجتمع أيضًا بالأعلى، هل تذكرين ليالي شرفة منزلي؟».

أومأت بمعنى الموافقة، فواصلت:

«سنقضي بها ليالينا الباقيات، لكن بعدما اجتمع قلبانا».

ضربتني بقبضة يدها في كتفي برفق:

«كم كنت فظًا حينما لبثت تردد أنك تراني مثل أختك».

احتضنت رأسها إلى صدري:

«ستظلين أختي الصغرى وحبيبتي وسند ظهري وقوام روحي».

اطمأنت أنفاسها فجلسنا نواصل الحديث الخافت إلى أن غفينا متجاورين، حتى إذا ما طلع النهار استأذنتني ميرا لتعبر البقعة التي يضرب فيها الماء السفوح كي تذهب نحو تلك القبيلة القريبة لتستل زادنا، حين بدا أنها صارت أكثر ثقة في إمكانية تحركها بقلب القبائل دون التعرف عليها؛ أذنت لها فيما بقيت أمام الكهف أنتظر إيابها، لكن الغريب بهذه المرة أنها تأخرت على غير العادة، جاوزت الساعتين وزيادة، أخذت الريبة تتملكني بشأن تغيبها حتى مرت ساعة أخرى، ففارقت الكهف واقتربت متحرزًا من موضع القبيلة، تواريت حيث أستطيع رؤية مدخل كهفهم ثم أخذت في الانتظار، لأشعر أن هناك ثمة حركة مضطربة، صرت أرى رجالًا يهرعون خارجين وآخرين يعودون، إلى أن بزغ من جاء يتبعه بعض الرجال والنساء، بدا راعي القبيلة عائدًا من لدى القمم، عندها أدركت أنهم أمسكوا بميرا ولبثوا ينتظرون قدومه ليفتيهم في أمرها.

انتاب جسدي صقيع خانق، ارتعدت أطرافي وجف حلقي،

بقيت شاخصًا لا أقوى على تحريك الأفكار برأسي، هل هنا تضيع ميرا ويذهب حلم الرجوع سويًا لأدراج الرياح؟! صرت أتساءل: ما الذي انتووه بشأنها؟ يا تُرى هل من الممكن أن يتركوها، أم تأخروا في تسليمها للجند لأنهم يحاولون استنطاقها بشأن موضعي؟ مكثت لا أقوى على اتخاذ قرار، إلى أن رأيت أربعة من الرجال يصطحبونها، اثنان منهم حملا يديها على أكتافهما، في حين توسطتهما تجرجر قدميها على الأرض، تبعهم آخران يرفع أحدهما مشعلًا، بدا من إنهاكها، وعدم قدرتها على الحركة وحدها، وأثر الدماء على جسدها، أنها قاومت حتى أثخنوها بالجراح، يا لكم من عبيد جاحدين! يا لكم من عديمي مروءة! يا لكم من خونة!

لم أطل التفكير في الأمر، لا سيّما أنهم أخذوا يقتربون من موضعي كي يسلكوا ذات النفق الذي نزلنا عبره إلى الساحل ليصعدوا خلاله لأعلى، مبتغين بلوغ القمم لتسليمها للجند المحاصرين لمملكتنا، عقدت العزم على القتال، سيفي بحوزتي، ورمق الحياة يدبدب بقلبي، إما أن أرجع بها أو لا نرجع معًا. انتظرت إلى أن سلكوا النفق صعودًا وقطعوا فيه شوطًا مبتعدين عن قبيلتهم، بينما أتسلل من خلفهم بهدوءٍ حتى لحقت بهم عند بداية تفرع الأنفاق.

في حركةٍ خاطفة احتضنت المتأخر الخالي من خلفه مسلطًا سيفي على عنقه، فيما جعلت جسده درعًا لجسدي، صرت أسحبه لأتقهقر عنهم بمقدار عدة خطوات، حين قلت جازًا على أسناني: «اتركوها وألقوا أسلحتكم وإلا نحرت عنقه».

أهل الفتنة

(يزن)

انقبض قلبي وسألت متخوفًا: «رؤوس من وجدتم؟»، ليجيبني شاخصًا نحو الأرض بأنهم وجدوا رأس فارس وسط رؤوس بعض جنودنا ورأسين مشوهتين. نزلت كلماته كصاعقةٍ فوق رأسي، مادت الأرض من حولي، لكني تمسكت بثباتي على أقصى ما وهبتني نفسي، سألته عمّا إذا وجدوا أثرًا لميرا أو لسيدي يوسف، فأجاب بنفيٍّ مضطرب كأنه يخشى أن تكون الرأسان المشوهتان لهما، امتطيت فرسي وتبعنا الحرس نحو البوابة الشمالية، وجدتهم قد وضعوا الرؤوس بداخل غرفة حرس البوابة، بينما تجمّع عدد من الخلق أمامها، أدركت أن الخبر سينتشر بين العوام مثل اضطرام النار في الهشيم، لذا استجمعت رباط جأشي عندما توقف ركبنا، أمرت بصرف الناس إلى شؤونهم في حزمٍ واستدعاء ذوي أولئك الجند وحسب، قبل أن آمر بدخولي وحيدًا إلى الغرفة، أغلقت الباب من خلفي بعدما خرج الجند منها، تحركت يرتعد جسدي في خطواتٍ متثاقلة نحو الرؤوس التي وضعوها فوق أحد الأرائك متراصات جوار بعضها، أخذت أتفحص الرأسين المشوهتين على نور النهار

المتسلل من نافذتيّ الغرفة، قطعوا أنفيهما وآذانهما، انتزعوا أعينهما من محاجرها، قصّوا الرموش والحواجب، لم يكتفوا بذلك بل سلخوا جلد شعرهما، لم يتركوا علامة يستدل بها على صاحبيهما.

التفتُّ إلى الرسالة الموضوعة جوار الرؤوس، فضضتها بيدٍ مرتعشة وقرأت:

«هذان الرأسان لمن تدّعون أنه سيدكم ولقرينته الشقراء، أردنا أن نبعثهما على حالهما كسائر الرؤوس إلّا أن إخوانكم من وافدي الجبال هم من عبثوا بهما انتقامًا لما فعلاه ببعضٍ من أهلكم أثناء هروبهما بالأنفاق، أما البقية أسقطناهم أثناء فرارهم وسلمّناهم على حالتهم كما ترون، إن مكثتم تنتظرون رجوع سيدكم وأعوانه فها قد بلغكم خبرهم، ولو تظنون أنكم ستقاومون للأبد، فلن يسعفكم شهر الصيف وانقطاع الماء، عهدنا لكم بالأمان، مددناه لعشرة أيام وحسب، من بعدها استعدوا لجحيمٍ لم ترونه في أسوء خيالاتكم ولا عهد بسلام بعدها».

عدت نحو الرأسين أتلمسهما برجفةٍ إلى أن اعتدلت مخاطبًا حالي، هذه ليست رأس سيدي يوسف ولا تلك، من الجائز أن يساورني الشك بخصوص ميرا بينهما، أما سيدي

وصديقي فأنا أحفظ كل تفصيلة منه عن ظهر قلب صادق في الطاعة، لقد لبثت أنصت لحديثه ومشهده بكل جوارحي حتى حُفرت هيئته بعقلي، إن شوهوا الملامح لن يشوهوا الأبعاد، هم يظنون أنهم لو بعثوا رأس رجلٍ تقترب من رأسه سينطلي عليّ خداعهم، لكنهم لا يعلمون أنها لو رأسه لشعرت بقلبي قبل عينيّ، على النقيض هم أكدوا أن سيدي لم يُقتل بعد، بل فر منهم، بالأحرى لا زال يناضل من أجلنا، إن ابتغوا إثبات قتله لبعثوا بجثته كاملة، فإذا احترنا بأمر الرأس يؤكد الجسد، وأظن ميرا لا زالت بصحبته، فيما ضحى فارس وأولئك الجند بأرواحهم.

تصاعد دبيب الأمل بقلبي لتلك القناعة، لكن ما إن مِلت برأسي نحو رؤوس الجنود ورأس فارس؛ تبدل حالي واعتصر قلبي مشهدهم، لا سيّما صديقي البشوش، من لم أطمئن جوار أحدٍ بعد سيدي يوسف وأكمل بقدر ما اطمأننت إلى جواره طوال سنواتٍ مضت، من لبث يشد من أزري ويزود عن هذه الأرض متجاسرًا إلى أن زهق دونها، ليتركني الآن يحيطني الجزع بحضرته لأول مرة.

اقتربت من رأسه على مهل، نزلت على ركبتيّ إلى أن أصبح وجهي في مواجهة وجهه مغمض العينين، أمسكت

رأسه واقتربت بجبهتي حتى لامست جبهته، قبل أن أنفجر في البكاء والنحيب، صار جسدي ينتفض مرة بعد مرة، تنخنق أنفاسي، يعتريني الغضب والافتقاد والانتقام، أغمض عينيّ فتدور الأفكار في رأسي ما بين ذكريات مضت وآمال انقطعت وغائبين لا أتمنى أن أراهما بذات المشهد، إلى أن انهار جسدي فأدرته مسندًا ظهري إلى الأريكة، لأواصل التشنج والزفرات، تركك فارس يا يزن، ذهب أكمل أولًا والآن لحق به فارس، ويا ترى من بعدكما؟ ليتني كنت أول الراحلين! ليتني لم أبقَ لأشاهد مصارعكما وحدي!

لبثت أنتحب مرات بعد مرات إلى أن اجتذبتني طرقات لدى الباب، كفكفت دموعي وبقيت هامدًا لبرهة كي يطمئن جسدي وأواري جزعي، وقفت ولم أنظر خلفي كأنني أهرب من أعينهم بينما أخرج نحو الجند، أمرتهم بصوتٍ جاف خلا من الروح أن يواروا الرأسين المشوهتين قبل أن يسمحوا بزيارة ذوي الجند وحدهم لفقداهم ثم يعدّوا الرؤوس للدفن، مبتغيًا طي هذه الصفحة عاجلًا كي لا أثير رهبة العوام. انتظرت لدى البوابة وسط دموع الثكلى وصرخاتهن حتى غسّلوا الرؤوس بالماء وأحسنوا لفّها بقطع الكتان، أعقبوا ذلك بأن وضعوها فوق إحدى العربات التي يجرها فرسان، أمرت بتغطية الرؤوس جميعًا بقطعةٍ واحدة من القماش، بعدها

اتجهنا في موكبٍ من بعض الجنود وذوي فقدانا أحاطوا تلك العربة، قاصدين المقابر الموجودة بطرف المملكة الجنوبي، زاد الخلق المشيعين أثناء تحركنا، صرنا بضع مئات يمشون بين الطرقات الباكية إلى أن انتهينا من الدفن وانصرفت نحو منزلي.

لم تمضِ سوى ساعة واستدعيت قادة الجند والوزير جمال لدى مجلسي كي أطلعهم على فحوى الرسالة وقناعتي بشأن الرأسين المشوهتين، لا سيّما أن هناك من رآهما من الجند، وأول ما قد يدور ببالهم أنهما لسيدي يوسف ولميرا كما قد يعتقد القادة في ذلك أيضًا، لذا أردت أن أبث بداخل الجميع الأمل، بل وأحفزهم ببقاء الرجاء في عودة الغائبين، وأن هذه الرسالة لا تمثل سوى وسيلة لخلخلة عزيمتنا.

استبشروا لحديثي فأوعزت إليهم ألا يتناقلوا ذلك إلا مع جند البوابة الذين رأوا الرؤوس المشوهة وحسب، مع التشديد على عدم تداول أي أخبار بشأن الحصار مع العامة، وإن سأل سائل عما جاء بالصباح فليخبروا أنها تلك الرؤوس المعروفة وحسب، ذلك قبل أن ينصرفوا نحو مواقعهم.

ما لم أحسب له حسابًا أن يأتيني مساءً بعد ليلتين، جمع من شيوخ المملكة وكبرائِها لدى مجلسي يتقدمهم عم

فارس الذي كان راعيًا فيما سبق، استقر بعضهم على المقاعد المتقابلة، بينما لبث البقية واقفين من حولهم، فيما أُضيء لنا نور مصابيح المجلس الزيتية، ليخبروني وقد تشربوا بالخنوع والهزيمة، أن علينا الاستجابة لرسائل ملكيّ آربوس، نسلّم لهما كيلا يهلكا الأطفال والنساء والعجائز، متأملين رحمتهما حتى لو هدما دورنا وأسوارنا وأعادونا إلى كهوف الجبال السفلية في قبائل متفرقات، عضدوا أمرهم بقول أننا لا يجب علينا انتظار من لا يقين في حياته.

أثناء الحديث تفرست وجود قائد من بين قادة الجند تميل نفسه لهذا الرأي، إلا أنه لم يقدر على مواجهتي يوم تسلم الرسالة الأولى، زاد من رهبته ما حدث من رحيل فارس -ركن المملكة الشديد- وشكه في قناعتي بشأن الرأسين المشوهتين، إلى جانب جزعه من فوات المهلة، لذا مرر أمر الرسائل إلى غيره من الشيوخ ليتولوا أمر مناقشة الاستسلام دون أن يفصح عن ضعفه وجبنه، ما عني أن كل أمرنا سينتشر بين العوام.

أدرت بذهني أن أحبسهم جميعًا كما عوقب المتحدثون بالفرار من قبل، لكن الجمع بدا كبيرًا، بضعة وعشرون رجلًا، منهم من كانوا رعاة وقت نهضتنا الأولى ولهم كثير من

الأتباع والأقارب الذين وإن طال بنا الأمد في تحرر سيظلون تحت وصايتهم، خشيت إن حبستهم يثور أتباعهم ويتسببون في قلاقل لا نعوزها بهذا التوقيت، إلا أن ذلك لم يكن السبب الأهم في عدم حبسهم، بل أردت قبلًا معرفة القائد الذي سرب فحوى الرسالتين ومدى اتفاقهم وعلاقتهم به، لذا أخذت أناقشهم في الأمر كي تفلت ألسنتهم، لأتأكد من بين ثنايا حديثهم ومعلوماتهم أن أحدهم تناقش في أمر التسليم جديًا مع أحد قادة الجند الثلاثة ووافقه على هذا، لكني لم أستطع تفرس أيٍّ من القادة فعلها ومع أيٍّ من الشيوخ تكلم، لذا تيقنت أن الأمر آخذًا في التزايد، ومن الممكن أن يقلب ذلك القائد جنوده المقربين على العصيان كما تحدث مع أحد الشيوخ، فيخرج أمر تخاذله في تلك الحالة من إطار العامة لينتشر بين الجند أيضًا، بالأخير طلبت منهم أن يمهلوني لأجل التفكير في الأمر والتشاور مجددًا، بينما أردت إعطاء نفسي مهلة للإيقاع بمن يناصرهم من قادة الجند.

في اليوم التالي استدعيت قادة الجند الثلاثة كل واحدٍ على حدة، كي أناقشهم في الأمر وأتقصى مكنون صدورهم موحيًا بجديتي في الاستسلام، لأستقر بعد ساعاتٍ من النقاش على قائد كتائب المشاة، قرأت في عينيه الضعف لا سيّما عند حديثه كثيرًا عن الصغار، لم يبدُ لي خائنًا بل بدا

جبانًا تم التغرير برأسه، ما إن خرج من عندي أمرت بحبسه وتعيين غيره في مكانه، كذلك أمرت بحبس كل الذين جاؤوا يطالبون بالتسليم قبل أن أذهب نحو كتائب المشاة بشرق المملكة، وقفت بساحتهم المربعة التي أحاطتها الثكنات بشكلٍ مربع ينقصه ضلع، فيما اصطفوا أمامي في ثلاث تشكيلات كبيرة.

خطبت فيهم ما بث في قلوبهم الحمية والعزة، أنهم هم المستأمنون على هذه الأرواح، أننا كجنود بكل الأحوال هالكون فلن نسلّم دون قتال قد يكون النصر فيه حليفنا، وكاشفتهم أنني على قناعةٍ بأن سيدي يوسف لا زال يقاتل من أجل العودة نحونا وإلا لأثبت لنا أولئك المحاصرين بيقين قاطع أنه ولّى، وليس بإرسال رأسين مشوهتين.

لكن لم يستقر الأمر على ذلك وتهدأ القلاقل، بل أيقظوني في اليوم التالي ليخبروني أن هناك تجمهرًا بقلب ساحة المملكة من الرعية، يبلغ عددهم عدة مئات أكثرهم من الشيوخ والنساء إلا أنهم لم يخلوا من الرجال أيضًا، يطالبون بعزلي عن منصبي ومشاورة أمر التسليم قبل انتهاء مهلة الأيام العشر. أدركت أنها أول خطوة في طريق الشتات والفرقة، أعدها أولئك المحبوسين بزنازينهم وتلقفها

الخانعون الذين يتبعونهم بالخارج، فليس العدو من يقف بعيدًا ينتظر سقوطك وحسب، قد يكون العدو من بين ظهران أهلك الذين تحارب لأجلهم.

أدرت بذهني أن أفتح لهم البوابات كي يغادروا غير مأسوفٍ عليهم، إلا أنني خشيت أن تصير قاعدة لمن يريد الفرار من بعدهم، بتلك الحالة قد يبدأ الضعف يتغلغل في نفوس باقي العوام بل وفي نفوس الجند أيضًا، لذا جمعت أعضاء مجلسي الأربعة وأمليت عليهم تدبيري، حيث أمرت بتجهيز خمسمائة مقاتل من المشاة ليستعدوا للإحاطة بالساحة، كذلك طلبت مائتي رامي ليصعدوا أسطح البنايات المطلة عليها، فقد لبثت الساحة على حالها منذ شيدها سيدي يوسف أول مرة، أرض خلاء دائرية بوسط المملكة، تحيطها مقاعد صخرية تلتف حولها في ست دوائر متراصات، لا يقطعها سوى منصة صخرية صغيرة بارتفاع ثلاثة أمتار من أجل إلقاء كلمات التحفيز أو المواساة أو النصر، بينما أوصيت أن يكون الجند المجهزون من النظاميين وليس العوام المستدعين، وأن يكونوا ممن جاؤوا المملكة عند نهضتها فرادى من القبائل، دون أن يكون لهم أسر وأقارب، مثلي ومثل أكمل وميرا وغيرنا من مئات الشباب الذين فقدوا عوائلهم بأيام التعقب.

اتجهت بعدها نحو الساحة أحمل قوسي وجعبة سهامي يتبعني الحرس وقادة الجند ووزير المملكة، ما إن بلغناها أحاطها فرقة الجند وظهر الرماة فوق أسطح المنازل، لتسود الهمهمات بين المتجمهرين، لم ألقِ لهم بالًا واعتليت المنصة ثابتًا، ثم بدأت أقلب نظري في الوجوه شاخصًا دون حديثٍ إلى أن انقطعت همهماتهم، فقلت بصوتٍ جهور:

«لقد عشنا سويًّا بهذه الأرض لعدة سنوات، كلنا سواسية، لكن ما إن صرنا بحالة قتال أصبحنا نحن معشر الجند وصاة، وما سوانا موصى عليهم».

ارتفعت الهمهمات قليلًا فأشرت بيدي كي يصمتوا وواصلت:

«أنتم منا ونحن منكم، لا نبتغي لكم إلا النجاة، حتى وإن زهقت أرواحنا في سبيلكم، لكن لا تظنوا أن النجاة بالتسليم الهين، ولا تصدقوا ما قالوا في رسالتهم عن العفو عنكم، بل بالأحرى صدقوا ما جاءكم من غولار، سيطاردون جميع أهل المملكة ويقتلونهم شر قتلة، أطفال ونساء وكهول، حتى وإن هربنا للكهوف تاركين لهم هذه المملكة، ذلك كي يدفنوا ذكرى انكسارهم أمامنا للأبد، وإن أرادوا عودة عبيد الوافدين بقلب الجبال، ما الذي يمنعهم من الإتيان ببعض

وافدي البحر الجدد وتركهم للتناسل أو ترك أولئك الذين لبثوا بالكهوف طوال السنوات الماضية ولم ينضموا إلينا؟ فهؤلاء أولياؤهم».

ابتلعت ريقي وأخذت نفسًا طويلًا ثم أكملت حازمًا:

«لا تظنوا أننا ضعفاء بل نحن أولو بأسٍ شديد، زادنا يكفينا لأشهر، أسوارنا حصينة، ورجالنا أشداء، ربما تأتي العواصف فتميد الجبال بهذه الجيوش الظالمة، قد يفقدون الأمل في استسلامنا، وقد ينقلبون على بعضهم فيضرب الظالمون الظالمين وننجوا، أما إن بقوا وفرغ الزاد فلن نسلّم عندها أيضًا، بل سنقاتل قتالًا مريرًا ننتصر فيه أو نموت، لكن أحرارًا شجعانًا مرفوعي الرؤوس».

صمتُّ لبرهةٍ قلّبت وجهي فيها بينهم قبل أن أواصل بحزمٍ أشد:

«هذا تحذيري الأول والأخير بحكم ولايتي عليكم من سيد الوافدين، من أنا على يقين من بقائِه يناضل من أجل العودة نحوكم فيما تحاولون خذلانه، من ابتغى الفتنة من بعد هذه الساعة لن يُحبس بل سندق عنقه، ومن بقيَ منكم بالساحة حتى نزولي عن تلك المنصة فليعتبر نفسه من أهل الفتنة».

وقفتُ بعدها شاخصًا نحوهم فيما أخذوا يتهامسون في جماعاتٍ وثنائيات إلى أن انصرف جمعٌ زاد عن ثلثيهم، انتظرت حتى بقي من بقيَ وغادر من غادر ثم رفعت يدي نحو الرماة فاستلوا سهامهم وشدوا بها الأقواس، منتظرين نزولي عن المنصة، قبل أن أصرخ فيمن بقوا:

«إن دواء الهلاك الذي يقودنا الخوف نحوه، هو مجابهة ذلك الخوف بما هو أكبر منه فزعًا، من أراد البقاء على قيد الحياة منكم فليرحل الآن، ومن بقيَ أقسم بروح آربوس لن أتردد في درء فتنته».

أنهيت مقولتي وأمسكت قوسي، سحبت فتيله بسهمٍ اجتررته من جعبتي موجهًا رأسه نحو الحشد الباقين، ثم أطلقته متعمدًا أن يصيب الأرض وسط الحشود ولا يقنص أيًا منهم، كي يثير مشهد انغراز نصله الرعب في قلوبهم، ذلك قبل أن أستدير نازلًا على درجات المنصة بخطواتٍ متمهلة.

اتفاق الملكة

(مارينا)

لم أجب زهرة عن قولها بزواجي من مالك، ما داعب رأسي هو مراسلته كما أشارت، كي أضمن بقاء فجوة بين حكام القرى تُوقف كيد زينة البحر، لكني انتظرت تواتر أخبار الحرب مع الراحلين والقادمين، لأعرف بعد عدة أيام أن يوسف قد أفلت من ملاحقيه عند سفح سلسلة الجبال الغربية بينما سقط كل من ساعدوه على الفرار عدا الفاتنة الشقراء واصلت فرارها بصحبته، لم تُنشر تلك الأخبار لدى العامة، بل أذاعوا أن يوسف قد قُتل هو وباقي معاونيه وأرسلت رؤوسهم نحو مملكة الوافدين بقلب سلسلة الجبال، في ذلك الوقت لبثت أتابع تواتر الأقاويل بين المعمرين من خلال زهرة وبعض الوصيفات، لأكتشف أن كيد زينة البحر أخذ في التراجع بانتشار أنباء مقتل يوسف، ما أرّقني أن الحقيقة لا زالت غائبة، ماذا سيقولون إن عاد يوسف من جديد، أن الملكة كذبت على العامة لتواري خطأها الجسيم؟! وما الذي سيحدث إن قاوم وانتصر كما طرحت زهرة؟ سيعزون رجوعه وانتصاره إلى سوء تقديري يوم آربوس وكأنني لست من تسببت في أسره بالبداية، بالأحرى لو ما

أسر وما هرب من بعدها لكان أكثر خيرًا لي، أما بعدما يعود وينتصر -إذا ما فعلها- فأنا الملكة الضعيفة التي سقطت غولار بأول حكمها وحكم ابنها من قبل أسر يوسف، وأنا أيضًا الملكة الضعيفة التي لم تستطع أن تحافظ على صيد المملكة الثمين وأضاعت انتصارها ليحل محله الهزيمة وسقوط المملكة بأسرها فيما بعد -إذا ما استمر حكمي- كما سيشيعون.

كأن كل النجاة أصبحت معلقة بالإمساك بيوسف، وكل الفتن معقودة على اكتمال نجاته، لم أعد أعرف هل أتمنى تمام فراره كما وددت دومًا، أم أرجو سقوطه كي أعضد حياة ولدي الصغير؟ كل ما أعرفه أنني أتمنى له ولابني السلامة حتى وإن ضحيت أنا من أجلهما.

بتلك الليلة لبثت أنظر نحو جاد آسفة بينما تتصارع الأفكار في رأسي، أراقب أنفاسه أثناء نومه إلى جواري، أتمنى ألا تعتريه نوبة الفزع التي صارت تهاجمه كل ليلة من بعد حادثة الساحة، فقد صار ينتفض من نومه مذعورًا، يحتضنني بشدة لاهثًا: «أنا خائف يا أمي»، بل أصبح متوجسًا على الدوام لا يكاد يفارق ظلي، ألا لعنة على المُلك والملوك والحكام! ليت أباه لم يورثه الحكم! ليتني لم أقبل بتلك الوصية!

لم تمر سوى ساعة وانتفض من نومهِ مبللًا ملبسه، عانقني باكيًا:

«لا تأخذيني للساحة، لا أريد الذهاب إلى هناك».

أحطته مطمئنة: «لا تخف يا صغيري، أنت ملك آربوس، لا يستطيع أحد أن يمسك بسوء».

انتظرت حتى اطمأن بين ذراعي ثم أجلسته جواري وأضفت مبتسمة: «ألم تعدني أن تتعلم الرماية والمبارزة كي تصير قويًا وتدافع عن أمك وعن المملكة كلها؟ إن تلك الألعاب التي جرت بالساحة لا يجب أن تثير خشيتك، أنت فارس مغوار مثل الجنود الذين هبّوا للدفاع عن المملكة بعد ما حدث».

طأطأ رأسه ورد منكسرًا: «لكني لا زلت صغيرًا على ذلك».

اتسعت ابتسامتي: «ستكبر وتصير شابًا فتيًا، كل ما عليك الآن هو أن تتحلى بالشجاعة لأنك ملك كل هذه البلاد».

أومأ برأسِهِ موافقًا، فبادرت إلى تغيير ملابسه وحدي، لم أنادي على زهرة أو غيرها كيلا أظهر الملك الصغير في موقف جزع، بينما أخذت أتساءل: أكل هذه الفتن تحاك عليك يا فلذة كبدي الصغيرة، يا من لا زلت تبلل ملبسك فزعًا؟! إلى

متى سيتصارعون على القوة والحكم والنفوذ؟ ولأي مدى قد يصلون لأجل ذلك؟ لكن أعدك يا صغيري أن تبقى آمنًا طالما بقيت على قيد الحياة، سأصارع العالم كله لأجلك، حتى لو اضطررت لقتل زينة البحر وولدها ومَن خلفهم، لا زلت الملكة مارينا وأنت ملك آربوس الشمالية جاد بن زايد.

بصبيحة اليوم التالي عقدت العزم على اتخاذ خطوة جدية لأجل تعزيز مكانتي بأن قررت الانصياع لمشورة زهرة ومراسلة مالك لأضمن وقوفه بصفي إذا ما تكالبت الخطوب، استقدمتها إلى غرفتي بالمساء، أجلستها على أحد المقعدين المجاورين لباب الشرفة، بينما صرت أتحرك ذهابًا وإيابًا أمامها، سألتها إذا ما لديها بين الجند الذين ينقلون الزاد والمتاع نحو موقع الحصار من نستأمنه على رسائلنا، استبشرت وردت بأن هناك من يتودد إليها من حرس القصر منذ أمدٍ وهو ممن أوكلوا بتلك المهمة من بداية الحصار، وقفت بمنتصف الغرفة تعلو وجهي ابتسامة خفيفة لاضطراب وجهها إثر ذكر ذلك الحبيب، قبل أن أعود لحركتي المضطربة متجاوزة للأمر كي لا أضاعف حرجها، أخذت أستيقن من أمره وأؤكد عليها بأن الأمر لا يقبل المخاطرة، فإن كانت تثق به تمام الثقة نبعث معه رسالتنا، ولو خالجها الظن بقدرٍ ضئيل نفتش عن غيره؛ أكدت إخلاصه وتقديره

لي كملكة على عرش آربوس الشمالية، إلى جانب وفائِه لها كحبيبة، ثم أربد وجهها من جديد على ذكر حبه، وددتُ مناقشتها بشأن هذا الهوى إلا أن ظروف اضطراب الحال لم تسمح بذلك، ابتسمتُ في عجالةٍ قبل أن أنتقل إلى تعزيز أمان الرسالة بأن أوعزت إليها أنني سأختمها بختمي فوق رباطها، إذا حاول فضها ظهر ذلك عند الأمير مالك؛ ابتسمت بثقةٍ وردت بأنه لن يحاول فضها، لكن يظل ذلك زيادة في الحرص.

جلست جوارها وأخذت أناقشها في أمر متن الرسالة مع الإيعاز بعدم التلميح بزواج أو غيره، بل نجعل الأمر كخطاب امتنان عما فعله بيوم آربوس، ونسأله عن حال جيشنا وحاله، كنوع من إبداء الصداقة والود؛ وافقتني على ذلك لنشرع من بعدها في الاتفاق على مضمون الرسالة، إلى أن استقررنا بالأخير على فحواها، فأحضرت محبرة وعدة أوراق ثم بدأت في إملائها، بالأخير قرأت عليّ قائلة:

«من الملكة مارينا سليلة الملك زهير الأول، واصية مُلك آربوس الشمالية إلى الأمير المقدام مالك ولي عهد رانتاز وابن قائدها الحكيم عوّاف سليل الملوك، وددت أن أبلغك أسمى آيات تقديري وامتناني عمّا بدر منك بيوم آربوس،

حين دافعت عني وعن الملك جاد مبديًا عزمًا وشهامةً منقطعين النظير، فلا يخفى على الأمير ثاقب الرأي واسع العلم والفكر أن المتربصين بالملك ليسوا من أولئك الهمج وحسب بل من داخل المملكة ومن المقربين للعرش أيضًا، ما لاحظت أن الأمير استوعبه في حينه، فلكم منا جزيل الشكر والعرفان، كما نود الاطمئنان على حال الأمير وحال جيشنا من حوله، لأننا نتعجل تمام النصر كي تستقر أمور المملكة، وتخبت قلاقلها الخارجية، كذلك كي تهدأ المكائد التي تحاك في الظلام بداخلها، والتي قد تزلزل أركانها إن تمادت، كما نود أن تعودوا سالمين غانمين كي نحتفل بأوبتكم وتعاودوا تشريف جنبات ساحة آربوس وتشريف قصر الملك».

ابتسمت موافقة وأحضرت ختمي لأمهرها، قبل أن نضعها في غلافٍ جلدي، من ثم أخذتها زهرة كي ترتب إرسالها.

لم يمضِ سوى أسبوعٍ واحد وجاءني رد الأمير مالك، قرأته عليّ زهرة مساء قدومه بينما تملكها الانشراح والاغتباط:

«إلى ملكة آربوس سليلة الملوك، مُهابة الحضور، واسعة الجود، نور المملكة وقاطنيها، من خادمها المخلص مالك بن عوّاف..

لقد أظلتني السماء بغمامة فخرٍ ورفعة، وأحاطني رحيق

الأرض وعطرها، عندما لامست كتابًا زيّنته كلماتك، ارتفع نبض قلبي وأنا الذي لا أخشى الخطوب الثقيلات، فابتعدت عن مواقع الجند كأنني أبتغي الانفراد وحدي بوقع كلماتك على صدري، صرت أقرأها على مهلٍ كي لا أفرغ من ذلك الوصال سريعًا، ولما انتهيت أعدتها مرارًا وتكرارًا حتى نقشتها بعقلي ثم أحرقت الخطاب إمعانًا في الحفاظ على سر المملكة.

أما بشأن ما وردنا فيها، أود إطلاع مولاتي أننا على علمٍ بالمتربصين اللئام، بل حاولوا استمالتنا لكنهم وجدوا منا آذانًا صماء وقلوبًا مخلصة لوحدة المملكة تحت راية حكمك الرشيد، وأننا لو كنا قبل خطابك نحفظ لشرعية الحكم رفعتها فإننا بعد الخطاب ازددنا يقينا في حكمة حُكم مولاتي وتفريقها بين من تستطيع الاعتماد عليهم ومن يجب عليها التحرز منهم. هذا يعني توافق مرامينا التي أود أن تدوم على ذات الوئام، وأن أبقى على شرف التواصل والقرب دومًا.

أما عن أمور الحرب، فلقد تفاجأنا بما لاقينا هنا فوق الجبال، من رأى خيرًا ممن سمع، إن هذا الرجل المدعو بسيد الوافدين أفنى عدة سنواتٍ في توطيد مملكته، صارت ممتدة بعرض سلسلة الجبال حتى أطلت على ساحل

البحر غربًا، ولم يترك من امتداد العرض سوى شطرٍ صغيرٍ بالشرق لوعورة تضاريسه، رفع أسوارها وزاد من سمكها حتى أصبحت عصية على الهدم بقصف الراجمات، كما دعّم تلك الأسوار بعشرات الراجمات التي تعرف أين تُلقي حممها لتحرق من يقترب، لكن أهم ما قام به أنه استطاع استقطاب الآلاف من وافدي الجبال بعدما أثبت منعته وأحسن لهم المأوى، اتخذ من بينهم جندًا كثيفًا ودرّب غيرهم على حمل السلاح لحين الحاجة، لم نجد الأمر هينًا كما تأملنا لا سيّما أنه ترك على المملكة قائدًا صعب المراس يُدعى يزن، ما خلخل من عزمه تهديداتنا أو محاولة إيهامه بمقتل سيده، إلا أن كل ذلك لم يفت من عزيمة جندنا، فلقد لجأنا لحيلة قطع الماء عنهم، لن يمر سوى شهر أو شهرين على أقصى تقدير قبل أن تجف بحيرتهم الصغيرة طالما انقطع الإمداد، عندها سيخرجون إلينا ليلقوا مصيرهم معترفين بصغرهم، كل ما يخشاه بعض قادة الجند والأمراء المُلمين ببواطن الأمور هو عودة سيدهم يوسف إلى مملكته من حيث لا ندري، أظنهم رأوا فيه إعجازًا أو إلوهية، يعتقدون أنه لو عاد لن تسّلم تلك الأسوار وكأنه سيستدر عطف السماء لتمطر صيفًا، بل قد يعتقدون أنه من الممكن أن يأمر الجبال فتميد بنا، أنا لا أرى فيه ذلك إنما أراه قائدًا قويًا ليته من المعمرين، لكنه لن

يغير من الأمر شيئًا إن عاد، فنتيجة هذه الحرب محسومة بوجوده أو بغيبته، لذا لتطمئن عينا مولاتي ولتهدأ سريرتها.

بالأخير، لقد لبثت أتمنى نهاية هذه الحرب بنصرنا كي أعاود مراقبة مولاتي من بعيدٍ أثناء احتفالات المملكة، حتى وإن لبثت لا تراني بأفقها، أما الآن صرت أحترق شوقًا لنهايتها كي أبادل مليكتي الحديث ولو بالأعين من بعيد.

خادمك المخلص مالك بن عوّاف».

أنهت زهرة الرسالة وقد اتسع ثغرها مبتسمًا ثم قالت: «كنت أظنه يهتم لأمر الملكة وحسب، لكن يبدو أنه يهيم بها عشقًا».

شابت وجهي حمرة الخجل، لذا قطبت حاجبي كي أبدي الجديةورددت:

«إنه يصغرني بخمسة أعوام على الأقل، وما تفكرين فيه قد يقلب علينا من سواه في حين أن من الممكن إبقاء وده دون زواج أو غيره».

- لنترك تلك الأمور لوقتها، نحن نقارب الود ونتحسب، إذا ما ظهر بالأفق بوادر موج ينقلب فيه علينا من تعنيهم، نجد ركن المملكة الشديد يناصرنا أشد المناصرة، بل يضحي

بروحه لأجلنا، ولن تكون تلك التضحية الكبيرة دون ضريبة.

لذت بالصمت بينما أخذت الأفكار تلاعبني، يا ترى أي مصير سيتخيرنا؟ وأي قدر سيكتب سطور خطواتنا، أنا ويوسف وجاد؟

بالصباح التالي جاءني الحاجب ليخبرني أن الوزير الكهل يطلب لقائي بمجلس الملك، صرفته موعزة بقدومي بعد قليل، بينما أخذت الأفكار تتخبطني أثناء ترتيب حالي للقائِه، لمَ جاء بهذا التوقيت ونحن لم نلتقِ منذ أسر يوسف؟ هل بلغه أمر مراسلتي لمالك؟ ماذا من الممكن أن يقول؟ وبم يفكر هذا اللئيم؟

تمالكت نفسي ونزلت إلى المجلس، ليقابلني بوجههِ الخبيث مبتسمًا، جلست لدى كرسي الملك فيما عاد نحو أول المقاعد ناحيتي قبل أن يقول:

«بلغني أن مولاتي تود الاطمئنان على سير الحصار؟».

لم أفهم مغزى لكلامه، هل عرف يقينًا بمراسلتي مالك، أم بلغه أنني بعثت رسالة نحو الجند وحسب؟ تمسكت بثباتي ورددت بلا انفعالات على وجهي: «إن الملكة على اتصالٍ دائم بجند المملكة، تبتهل من أجل نصرهم تحت حكم ملكهم

جاد، لا تظن أيها الوزير حكيم أنني حينما لبثت أفكر في مخططكم لاعتقال يوسف من خلالي وترددي بشأنه كان ضعفًا أو جزعًا أو تخاذلًا، إنما فضيلة واتقاء للغدر الذي ما اعتده، أنا لا أعرف من يوسف، ولا أدرك مغزى لما يردده من أساطير، ما أعرفه أنني لن أتورع عن حرق كل من يهدد عرش الملك جاد».

صمتُّ لبرهةٍ ثم أضفت مبتسمة:

«لم نلتقِ وحدنا من وقتها، إلا أنني لا أنسى تلميحك الدفين بأن بقاء حكم جاد وبقاء وصايتي عليه يتعلق باعتقال يوسف، لكن أتدري، رأيك كان صائبًا، إن المكائد التي كانت تحاك بوقتها لم يكن ليوقفها سوى أسر يوسف واسترداد أراضينا».

اتسعت ابتسامته:

«أنا لا أشور على مولاتي إلا بما فيه الصواب والخير للمملكة وللملك جاد، لذا جئتها اليوم لأخبرها أنها إن أرادت الاطمئنان على الجند أو تعزيز اتصالها بقادته فأنا طوع أمرك، اطلبي حضوري فآتي من وقتي، كما تعلمين زوجتي قد رحلت وتزوج أبنائي، وأمور المملكة هنا ليس بها ما يستدعي طول بقائي بمجلس التنظيم».

صمتٌ لبرهةٍ أتفرسه، بدا عرضًا مغلقًا للزواج، هذا الكهل ربما عرف أنني راسلت مالك، من المؤكد أن له من العيون بكل موطئ قدم، قد يكون هناك من رأى رسولنا وهو يُسلم مالك رسالتي، أما البقية استنبطها من رأسه، ليأتي ويخبرني أنه سيظل سابقًا بخطوة، مستعدًا لإفساد كل ما أُدبره لمجابهة سيطرتهم، وأنا لا آمن لهذا الكهل أبدًا ولا أطيقه.

المنطقة المحظورة

(يوسف)

في حركةٍ خاطفة احتضنت المتأخر الخالي من خلفهِ مسلطًا سيفي على عنقه فيما جعلت جسده درعًا لجسدي، صرت أسحبه لأتراجع عنهم بمقدار عدة خطوات، حالما أقول جازًا على أسناني: «اتركوها وألقوا أسلحتكم وإلا نحرت عنقه».

أشهر المتأخر الثاني -حامل المشعل- سيفه بحركةٍ تلقائية لكنه لم يلاحقني بل وقف متأهبًا، بينما أفلت المتقدمان ميرا لتسقط على الأرض مغشيًا عليها، هنا أخذ الوقت في التمهل، صرتُ أشعر بالمشاهد تتحرك على مهل، بل تكاد تصل حد السكون، دار برأسي أنهم حتى إن استسلموا فلن أقدر على المواصلة بها على حالتها قبل أن يخبروا أهل القبيلة وربما الجند ليلحقوا بنا، لا مفر من إردائهم جميعًا لو أردت الهرب، فهل أقدر على مقارعة الأربعة؟ انتزعني من أفكاري أن سحب أحد المتقدمين سهمًا من جعبته المعلقة على كتفه ورفع قوسه باتجاه رأسي، بذات الوقت أخرج مجاوره خنجرًا من حزام خصره، بدا أنهما انتويا القتال.

لم يمهلوني كي أجيل الأمر برأسي، حيث انطلق حامل المشعل بسيفه نحوي، لأبادر بنحر العنق التي تحت يدي بينما أطلق صاحبها خوارًا أثناء تفجر الدم من رقبته، أسقطته أمامي كي أواجه أول القادمين إلا أنه بلغني بحركةٍ خاطفة رافعًا سيفه ومشعله قبل أن أعتدل لألاقيه، كاد أن يهوي على رأسي لولا اختراق سهم الرامي لرقبته؛ انكفأ محشرجًا جاحظ العينين ووقع مشعله على الأرض، حين التفتُّ بدوري نحو الرامي ظانًا أنه أخطأ الرمي، لكني رأيت ما هالني، سحب سهمًا آخر بسرعةٍ خاطفة وأطلقه نحو ظهر شريكه الذي أوشك أن يبلغني بخنجره، ليخترقه السهم وتبزغ الرأس المعدنية من صدره، قبل أن يسقط على وجههِ صريعًا.

وقفتُ مشدوهًا للحظات، أتوسط ثلاثة قتلى لم أصب منهم سوى واحد، فيما ينظر لي الرامي ممسكًا بسهمِهِ الثالث، بدا أني أعرفه، رأيت هذا الوجه سابقًا، تلك الندبة الطويلة بعرض جبهته، سواد البشرة الصافي، وضخامة جسده، لبثتُ أنتظر ما ينتويه بشأني، لا أدرك لمَ قتل مصاحبيه، أو لماذا بقيَ موجهًا قوسه ناحيتي، حتى قال بخفوتٍ مضطرب: «أنا من سكان مملكة الوافدين الذين هربوا منها وقت سقوط غولار قبل إغلاق البوابات، ولي زوجة وولدان حُبِسوا هناك بعد الغلق».

أطرق لثانية ثم استأنف بذات اضطرابه:

«سبقتهم إلى هنا كي أفتش عن قبيلة ننضم إليها، منتويًا العودة لأصطحبهم ما إن أجدها، ليفاجئني إيصاد المملكة وحظر الخروج والدخول، كدث أجن لفراقهم وللوعتي عليهم، فسببتك ولعنتك أنت ومملكتك، تمنيت قتلك، لكن أتدري، أنا لم أعتقد أبدًا أني سأزدري حياة العبيد هنا لمّا أعود إليها بحثًا عن النجاة لأسرتي، فقد عشنا فيها من قبل لسنين طوال، إلّا أنني بمرور الأيام الظلماء وسط قهر أولئك الجنود، وجدت الرجوع هنا صار مثل الموت بل أشد مرارًا، لا سيّما بعدما تذوقت حياة الحرية والنور بالمملكة، لا أعرف هل أنت نقمة علينا أم نعمة، رحمة أم عذاب، سبب في البطران أم الأمل، ما أعرفه أنني عندما رأيتك واقفًا أمامي بادرت لقتلهم لأني تيقنت أنني أود الرجوع إلى المملكة بصحبتك علّها تقاوم من جديد، فهل تقبلني وتسامحني؟».

أشرت برأسي موافقًا حين بدأت أقترب منه بتحرز، حيث لبث منفعلًا ينتفض جسده إثر إراقته لدماء مصاحبيه دون أن يرمش له جفن، ثم أشحت بيدي من بعيد مطمئنًا:

«بالطبع أسامحك، بل ستصير من أبطال المملكة، ليس من العار أن نُخطئ ولكن العار هو التمادي في الزلل».

عندها أنزل قوسه، فهرعت نحو ميرا يعتريني الهلع على رقودها واستمرار نزيف بعض جروحها، صرت أتفحصها شاخصًا ثم رجوته وقلت:

«أعنّي على حملها كي نعود بها نحو ملاذنا».

جمع أسلحة زملائه في عجالةٍ قبل أن يساعدني سائلًا: «أين ملاذكما؟».

رددت حين بدأنا التحرك: «كهف لدى الشاطئ».

ما إن بلغناه أرقدتها على ظهرها جوار الجدار الشمالي، أخذت وجِلًا أخلع عنها ملابسها دون مواطن عفتها، لتبدو جروح متفرقات بجسدها، ظهر أشدهم في الأثر جرحان غائران لبثا ينزفان، أحدهم بدا كضربة خنجر بجانب بطنها أسفل صدرها الأيسر بقدر ثلاث أصابع، والثاني بزغ طوليًا بمقدمة فخذها الأيمن، أما الأخير بدا غير غائر تختثر الدم فيه لذا ضعُف نزيفه، لكنه كان طويلًا بعرض ظهرها من أعلى، جلست عند رأسها يتفطر قلبي على مشهدها الشاحب، إلا أن ذلك الوافد انتزعني من هول ما أرى بأن أخبرني بضرورة كي تلك المواضع حتى يتوقف نزيفها ولا تتقيح، ثم نبتهل أن تطيب مع الأيام، انتفضت ممسكًا برقبته وصرخت:

«كيف طاوعتكم قلوبكم على مثل هذا؟ أنتم بئس العبيد الآبق، لا تستحقون سوى تلك الحياة وذاك الذل».

أفلت يدي من رقبته وتراجع للخلف رادًا:

«أنا لم أشارك في ذلك، كنت بصحبة الراعي لدى القمم، لكني تطوعت لتسليمها لمعسكر الجند».

بقيت شاخصًا نحوه للحظاتٍ لكني لم أتمادَ في لومه بل أحسست بخطئِي نحوه، لا سيّما وقد قبلت مسامحته ورجوعه منذ دقائق، ثم نزلت آسفًا عند رأسها من جديد يكوي صدري مرآها بتلك الحالة، فتراجع نحو شعلتنا دون حديث، أوقدها ووضع خنجرًا فوق النار إلى أن تحول للون الأحمر، قبل أن يطلب مني تكتيف يديها وقدميها مع وضع مقبض خنجر آخر بين فكّيها، سارعت إلى تنفيذ ما طلب، ليبدأ كي الجروح متعجلًا، فيما صارت تنتفض وتصرخ كلما كوينا جرحًا، تنظر نحوي ثم تغيب عن الوعي، إلى أن أنهينا سائر الجروح وغطينا جسدها.

ما إن انتهينا استأذنني الوافد في المغادرة كي يقتات لنا من أي قبيلة غريبة، استوقفته معتذرًا عما بدر مني واجتررت الحديث معه لأطيّب خاطره، أخبرني أن اسمه ماجد وأنه من الذين تدربوا على الرماية بالمملكة دون

أن يلتحق بالجند النظاميين، لأنه بارع في صيد البحر، وتكسّب من خلاله حياة طيبة أثناء إقامته بالمملكة، ثم انزوى للحديث عن ولديه، ليبدو أنه يحمل من اللوعة عليهما ما نحمل على من نفقد بل أكثر، يخشى أن يهلكهما الجند إن دخلوا المملكة وألا يراهما مرة أخرى، أخذت أقوي من عزيمته مؤكدًا أنها لن تسقط وأننا عائدون لنشد من أزرها وندحر عدوها، استبشر موعزًا بأنه عندما رآني تيقن أنها لن تسقط، قبل أن ينصرف بوجهٍ أكثر بشاشة.

عدت إلى جوار ميرا أنتظر استفاقتها، بقيت مستكينة لقدر ساعة ثم أخذت تهذي بكلماتٍ مجتزئة، وضعت يدي فوق جبهتها محاولًا طمأنتها فلاحظت اتقاد حرارة بدنها، فسارعت إلى تمزيق قصاصات من قميصي وذهبت بها نحو البحر، بللتها بالماء وعاودت أفرّقها على أجزاءٍ من جسدها المسجي خائر القوى، كررت الأمر لعدة مرات، إلى أن جاء ماجد يحمل قربة ماء وبعض الأرغفة، وضعهم جانبًا وجلس على الناحية الأخرى من جسد ميرا، أخرج من تحت قميصه بعض الطحالب البحرية بدا خضارها يميل للون الأصفر، أخذ يضع قطعًا منها بين حواف جروحها، لتفتح ميرا عينيها وتأن قبل أن تغفو من جديد، خشيت أن يفاقم صنيعه من علّتها لكني لم أبدِ اعتراضًا لانعدام علمي بأي وسيلة أخرى تطّهر

تلك الجروح.

انتهى من أمرِه ثم اجتذبني عند كوة الكهف قائلًا بأسف:

«يغلب على ظني أنها لن تنجو».

رددت وقد هالني قوله:

«لا تقل ذلك، أنا أعرف ميرا، وأثق أنها لن تستسلم لعلّتها».

أومأ برأسِه موافقًا دون اقتناعٍ قبل أن يأخذ عدة سهامٍ ويقول:

«سأتجه للغوص بالبحر كي أبحث عن بعض حبّارٍ أو أخطبوط».

عقدت حاجبي، فواصل:

«إن حبرهم الأسود خير من تلك الطحالب لاندمال الجروح، كما سيمنحنا لحمها طعامًا لعدة أيام».

أنهى جملته واستأذنني مغادرًا، لأعود نحو ميرا منكرًا لما قال عن حالتها، متشبثًا بعزيمتها، مكررًا على نفسي أنها ستقاوم وتنجو، ولأثبت لنفسي سلامة يقيني. بادرت بمد يدي إلى وجنتيها، أخذت أربت عليهما بهدوء، إلى أن فتحت عينيها بوهنٍ كأنها لا زالت غائبة عن الوعي، قلت مغالبًا

دموعي:

«حبيبتي، لا تتركيني، لن أواصل دونِك، بل لن أتحمل الحياة بهذه الأرض إذا فارقتِها».

ثم ابتسمت مداعبًا جبهتها وغرة شعرها:

«ميرا، أنا أنتظر رجوعك الصاخب ووجهك المشرق وعزيمتك التي لا تكل، مثلما ينتظرك كل أهل المملكة».

قاومت لترسم على ثغرها شبح ابتسامة، فابتهجت لأنها استردت ولو شيئًا ضئيلًا من وعيها، بينما دار بخلدي أنني قد أستطيع سقيتها قبل أن تغمض عينيها من جديد، لذا اجتررت القربة وقرّبت فوّهتها بين شفتيها، أخذت أعطيها رشفات صغيرة فيما أقول متحفزًا:

«سنعود إلى المملكة يا ميرا، سنعود لنعمّر بيتنا المطل على البحر سويًا، ننجب أطفالًا تأخذ أعينهم لون البحر بعينيكِ، يترعرعون حولنا بلا خوف، ويكملون ما بدأناه، ميرا أتوسل إليكِ لا تتركيني».

بلعت قدرًا ضئيلًا من الماءِ بصعوبةٍ بالغة قبل أن تمتنع عن تلقي المزيد، صرتُ أكرر الأمر كلما استفاقت وفتحت عينيها، حتى عاد ماجد عند الغروب وبيده بعض حبّار أبيض

وأخطبوط أحمر قد يزن عدة أرطال إلى جانب قليل من قطع الخشب، فرش صيده فوق صخرة وأخذ يستخرج منهم حبرًا أسود، قبل أن يباشر إلى إزالة قطع الطحالب التي وضعها بجروح ميرا ويستبدلها بدهان تلك المادة السوداء، حتى انتهى قائلًا:

«يبدو عليها الهزال الشديد، لا بُدَّ من إطعامها».

قام إلى حطبه أشعله، ثم أخذ يشوي بعض ذراع من الأخطبوط حتى طيّبهم، أخذت أحدهم وصرت أفتت لحمه محاولًا إطعامها على مهل، بلعت منهم قدرًا ضئيلًا قبل أن تتوقف عن تلقي المزيد، فعدت نحوه لنجلس متقابلين إلى عشائِنا، بالكاد أكلت ما يقيم صلبي، ثم سألته:

«هل لا زلت تظن أنها لن تنجو؟».

لم يرد أن يكسر بخاطري فرد قائلًا:

«لا أعلم، من الجيد أنها استطاعت أن تقتات، لا سيّما مع الدم الذي فقدته، من الممكن أن تتحسن حالتها لكن سيستغرق ذلك أمدًا طويلًا حتى نتيقن أنها جاوزت إمكانية التراجع».

أطرق للحظات قبل أن يضيف:

«لمَ لا نتحرك نحو المملكة لنحاول علاجها هناك؟ إن بعض قدامى الرعاة الموجودون فيها لديهم علم أكثر مني بطرق المداواة».

ابتسمتُ آسفًا:

«إن ميرا هي من تعرف طريق العودة، كما أننا لو تحركنا بها على حالتها وسط تلك الأنفاق فلن تقاوم لساعات وليس أيام».

أنهينا حديثنا على ذلك لتمر ليلتان من بعدها وهي على ذات حالتها، شاحبة اللون، دافئة الجسد، لا تقوى على حركة، تفيق لمدٍ ضئيلة مواربة عينيها وقد تنطق وقتها بكلمات تلفظها بوهن، فنطعمها ونسقيها مستغلين استفاقتها، قبل أن تعاود الغياب والهذيان، فيما انتابها بين الفينة والأخرى اتقاد في حرارتها وليس مجرد زيادة، بقينا كلما نشعر بذلك نهرع إلى صب الماء عليها أو وضع ضمادات باردة فوق أجزاء من جسمها إلى أن تنطفئ جذوة النار بداخلها، حتى لاحظت بالليلة الثالثة ظهور تقرحات طفيفة بالجروح، عندها أوعز لي ماجد أن هذا يمثل انتكاسًا بحالتها، وإن لم نجد دواءً له سينتشر ويتفاقم منهيًا لحياتها، سألته جزعًا عمن قد نجد لديه الدواء، ليجيب بأن تلك الحالة ما عاد يقدر عليها الرعاة،

ولن يقدر على علاجها سوى أطباء آربوس.

لم أجادله كعادتي كلما أحسست منه يأسًا، بل بثُّ ليلتي أسند ظهري إلى جدار الكهف الشمالي جوار رأسها، مشدوهًا عاجزًا ينازعني الاستسلام على إصراري، إن ماتت ميرا سأقفز إلى هذا البحر، ليس قتلًا لنفسي يا ربي، لكنها محاولة للرجوع، إما أعود من حيث أتيت أو أزهق محاولًا، لن يبقى لي مقام بهذه الأرض لو فارقتني، لن أتقدم دونها ولن أصل، بالأحرى ستنطفئ عزيمتي، أما مملكة الوافدين فلتقاوم وحدها، ما أنا سوى ملهم ألهمهم وعليهم البقية، آن الأوان أن يقرروا مصيرهم دوني، فيُبقوا على حياتهم أو يعودوا سيرتهم الأولى، حتى إسراء، ها قد أنجبت ولدها وصارت ملكة، أصبحت حياتها الحقيقية هنا وليس هناك، هي لا تذكر حياتها الأولى، لم قد تفكر في العودة نحو حياة لا تعرفها؟!

ساعدني يا ربي فقد ضعفت حيلتي.

مرت الساعات كئيبة متثاقلة حتى انتصف الليل، حينها لا أدري ما الذي ذكّرني بالنقش المحفور على الجدار الواقع خلف ظهري، لم أدرك له معنى حين رأيته أول مرة، إلا أنني قمت أتفحصه من جديد، لم تتغير نظرتي إليه عن المرة الأولى، ليس سوى نحت لخطوط متعرجات رأسية كأنها

موجات طولية متجاورات، نُحتت أمام حدها السفلي عدة سهام في خطٍ أفقي، سهم تبعه سهم نحو الغرب حتى انتهوا إلى خطوط متعرجات أفقية فوق بعضها كأنها موجات عرضية، إلا أنني لاحظت بهذه المرة أن تلك الموجات العرضية محفور فيما بينها ندوب صغيرة لا تكاد تظهر أو أنها بُهتت مع الزمن، ظننت أنها ربما ندوب بالحائط الصخري ذاته ولا علاقة لها بالرسم، لكني أحضرت الشعلة قرّبتها من النقش لأستوثق من الأمر، لم أفسر على نورها شكلًا لتلك الندوب أو انتظامًا في توزيعها، ما جد أنني لاحظت وجودها بقلب دائرة طُمس قطع من محيطها وبقيت قطعٌ أخرى بحيث توسطت الدائرة هذه الموجات، عندها أحسست أن بالأمر رسالة ما، لذا شرعت أفتش في باقي الجدران علّني أجد نقشًا آخر يحمل مغزى أو تفسيرًا لهذا النقش الأول.

أخذتُ أدور ممسكًا بشعلتنا مقربها من الجدران بينما غض ماجد في نومه، إلى أن رأيت أحد النقوش في الجدار الغربي أعلى كوة كهفنا، لاحظت وجوده بصعوبة، حيث كان محفورًا مثل النقش الأول لكن أقل غورًا في الصخر، لبثتُ أدقق فيه لأدرك أنها رسمة مربع بداخله نصف دائرة صغيرة لدى أسفله، تصاعد الأمل بداخلي وتحركت من جديد على نفس الحائط متجهًا نحو الجنوب، لأجد بعد قدر ثلاثة أذرع موجات

عرضية متراصات فوق بعضها مثل تلك الموجودة بالنقش المحفور على الجدار الشمالي، امتدت بقدر نصف ذراع ثم انقطعت، تركتها مواصلًا تفتيشي حتى بلغت بعد قدر ذراعين موجات عرضية جديدة لكنها بدت أطول وأكثر عددًا عن سابقتها، فيما تخللها دائرة برزت واضحة بمنتصف الموجات مثل نفس دائرة الموجات العرضية في نقش الجدار الشمالي.

هنا بدأت تغازلني فكرة غريبة، أن هذه الرسومات المتفرقات على الجدار هذا وكذلك النقش الموجود على الجدار ذاك، ربما لديهم علاقة ما ببقعة الحوريات، لذا واصلت تفقدي لباقي الجدران علّني أجد ما يعضد فكرتي، لكني لم أجد جديدًا، فعدت نحو موضعي عند رأس ميرا مسندًا ظهري للجدار، أخذت أضع الاحتمالات، هل النقش الموجود على الجدار الماثل خلف ظهري له رابط بالنقوش المحفورة على الجدار هذا، أي يكملهم أو يفسرهم؟ عندها سيزداد تفنيد الأمر صعوبة، أما لو كل منهم يمثل وصفًا منفصلًا لأمرٍ ما سيصير التفسير أهون. غلب على ظني أنهما طريقان مختلفان، إلا أنهما يؤديان بالأخير لنفس الموضع أو ذات النتيجة وهي الدائرة التي ظهرت بالموجات العرضية على نقش الجدار الشمالي ومثيلتها بالموجات العرضية الثانية على الجدار الغربي، فرسمة المربع ذو النصف دائرة بأسفله

والمنحوتة فوق كوة كهفنا قد تمثل موقعنا الحالي، أي قد يمثل المربع كهفنا المربع، ونصف الدائرة بأسفله هي هذه الكوّة النصف دائرية، أما الموجات العرضية التي وجدتها بعده على ذات الجدار مرتين، فقد يكون المقصد منها هو البحر نفسه، وتنقطع الموجات بين الفينة والأخرى لأن المقصود بها هو الأماكن حيث تضرب أمواج البحر السفوح، دون الأماكن التي لها ساحل لا يضربه موج البحر، حتى نصل بالأخير للدائرة بقلب الموجات الثانية، فإذا كان هذا تفسير نقوش الجدار الغربي، فما تفسير النقش بجدار الكهف الشمالي؟

قمت نحوه أتفقده من جديد لا سيّما موجاته الطولية التي حُفرت أمام حدها الأسفل سهام متتابعات حتى بلغت الموجات العرضية، لم أجد لتلك الموجات الطولية مغزى سوى شلالات بحيرة بالميري، إذًا هذا النقش يمثل طريقًا عبر نفقٍ يتخلل الجبال من لدى الشلالات حتى البحر، الذي رُسم بالأخير في شكل موجات عرضية تخللها نفس الدائرة، ثم ربطت ذلك التفسير بكلام الراعي معي قديمًا عن بقعة الحوريات، إذًا قد تكون هذه الدائرة هي بقعتهن والندوب الصغيرة بداخلها هي إشارة للحوريات ذاتها.

سارعت نحو نقوش الجدار الغربي مدققًا في الدائرة المحفورة بقلب الموجات العرضية الثانية، عندها تراءى لي بداخلها أثر طفيف للغاية لتلك الندوب الصغيرة، هنا وضعت تفسيري النهائي بأن هذه الدائرة تمثل بقعة الحوريات أيضًا، إذن هذا طريق وذاك آخر نحوها.

لم أنتظر حتى الصباح بل سارعت إلى إيقاظ ماجد، أخذته نحو نقوش الجدار الغربي، أريته المربع ذا النصف دائرة بأسفله الذي يمثل كهفنا، ومن بعده تلك الموجات الأولى لننتهي عند الموجات الثانية بينما أشرح له مقصدي، ابتسم قائلًا:

«بلى، كهفنا هنا يمثل منطقة لا تصل فيها الأمواج للسفوح، إذا ما اتجهنا ناحية الجنوب محاذين للسفوح سنجد بقعة يضربها موج البحر تُمثل تلك الموجات العرضية الأولى، لو عبرناها نجد منطقة أخرى لها ساحل لا تضرب فيه الأمواج، قبل أن نصل بعدها إلى المنطقة المحظورة، وظني أن تلك الموجات الثانية تمثلها».

سألته متلهفًا:

«وما المنطقة المحظورة؟».

«هي منطقة تضرب الأمواج عندها الجبال بشدة مخلفة دوامات هائلة، لم ينزل فيها أحد من قبل وعاد مرة أخرى، بل أظن أن المنطقة التي تمثلها الموجات العرضية الأولى لا ينزل فيها أحد هي الأخرى خشيةَ أن تكون مثل المنطقة المحظورة».

- إذًا فبقعة الحوريات عند المنطقة المحظورة.

- لا يمكن لأحد الجزم بذلك أو نفيه، لكن حتى وإن كانت هناك، لا تفكر في النزول عندها، هذا طريقٌ بلا عودة.

تركني راجعًا نحو مرقده فيما عدت عند رأس ميرا، أخذت أتذكر كلام الراعي من جديد عن بقعة الحوريات، بدا أن الطريق المرسوم على الجدار الشمالي من الشلالات إلى البحر هو ما حكى عنه، وهو النفق الذي اعتاد الملوك سلوكه بموعد لقائِهم السنوي مع الحوريات، حتى يبلغوا الكهف المطل على البحر، الذي يغمره الماء بقدرٍ يغطي منفذه نحو ذاك البحر، فيما تقبع بوسطه مسطبة ممتدة من جهة نفق الجبل تعلو مستوى المياه، حيث تظهر الحوريات من حولها لتقابل الملك الذي ينتظرها أعلى المسطبة، إلا أنني لن أستطيع بلوغ هذا الطريق الأول بيسر، بل قد لا أبلغه أبدًا، لا سيّما أن رسمته غير محددة المعالم، ومن المحتمل أن يقنصني الجنود أثناء

بحثي، بينما الذهاب عبر طريق الساحل قد يرديني كما أشار ماجد، أو ربما يجعلني أبلغ منفذ هذا الكهف من ناحية البحر من ثمّ أدخل إليه منها بديلًا عن بلوغه من جهة قلب الجبل.

صرت أتساءل: إن لم يكن لطريق الساحل فائدة ترجى، لِم رسمه من قطن كهفنا من قبل؟ يقينًا لهذا النقش حكمة، لكن يا ترى من ذاك القاطن القديم؟! وهل قابل الحوريات؟! وإن بلغت بقعتهن مثله -إن كان بلغها- هل سأجد كل القوة التي حكى عنها الراعي؟ هل أجد عندهن علاجًا لميرا ونصرًا للمملكة؟ هل أجد كل التفسيرات وطريق الرجوع، أم أذهب في طريق بلا عودة؟! لا أظن أن هناك إجابات وافية دون مخاطرة. ظلت تتقاذفني التساؤلات إلى أن غفيت، لألاحظ بالصباح التالي تزايدًا في تقرحات جروح ميرا حين جلسنا متقابلين عن جانبيها، لم يصعب علي قراءة عينيّ ماجد؛ وشت أن النهاية صارت محتومة إن بقينا على حالنا، أشرت له ليتبعني نحو الكوة وسألته دون أن ينطق: «كم يوم تبقى لها؟»، أجاب آسفًا: «لن تقاوم لأكثر من بعض يوم».

لم أبتئس هذه المرة، على النقيض أصبحت موقنًا من طريقي متحفزًا له، لم أعد متجهًا إلى المملكة، بل نحو بقعة الحوريات، لن أترك ميرا تصارع الموت ولن أعود للمملكة

دونها، إذًا لم يبقَ لي خيار سوى تلك المخاطرة، إما أضيع وتضيع ميرا، وإما أعود بكل الغنيمة.

أخبرت ماجد أنني سأتجه نحو المنطقة المحظورة، وأنني مثل زهير الأول ستُفتح لي بقعة الحوريات، فيما عليه البقاء جوار ميرا، حاول أن يثنيني عن قراري مشيرًا لكوننا بدأنا ليالي خفوت القمر، وما بقي على ليلة المحاق سوى سبع ليالي وبهذه الأيام تصبح الدوامات أشد قسوة، إلا أنني لم ألتفت لمناشداته، لكني عندها قرأت بعينيه سؤالًا يصرخ قائلًا: «ماذا إن لم تعد؟»، أجبته مبتسمًا: «سأعود يا ماجد، أتعرف ذلك الإحساس الذي خالج قلبك بأن المملكة لن تسقط عندما رأيتني بالنفق؟ لقد كان إحساسًا صادقًا، لأنني سأعود».

ربّت على كتفي قائلًا:

«وأنا لا زلت أثق في عودتك».

عدت وقتها نحو ميرا، اقتربت من رأسها وبدأت أربت على خديها إلى أن فتحت عينيها فقلت مبتسمًا:

«ميرا، حبيبتي، سأذهب نحو بقعة الحوريات، لطالما عرفت أن ذلك مصيري يومًا ما، لكني لبثت أحاول الإنكار، أما الآن

فأنا ذاهب لأجلك، ولأجل المملكة، سأعود عاجلًا يا ميرا، لذا فلتصمدي وتنتظري رجوعي».

جاهدت لترسم على ثغرها ابتسامة ضئيلة، ثم أفلتت دمعة من عينها، تماسكت نفسي وقبّلت جبهتها قبل أن أقوم إلى ماجد، أخذت خنجرًا وقوسًا وجعبة سهام، احتضنته بحرارةٍ وغادرت نحو المنطقة المحظورة.

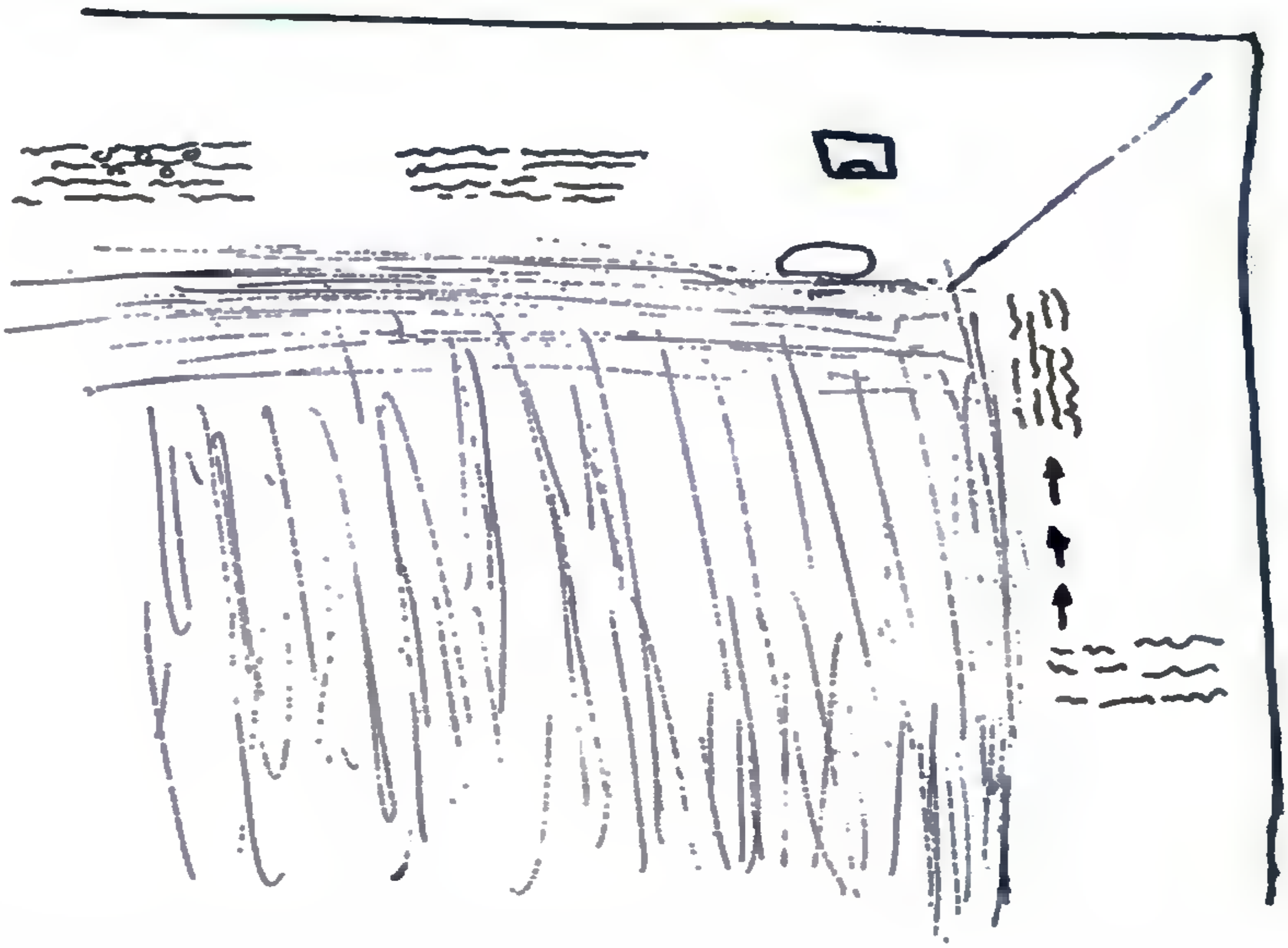

حصار بقلب الحصار

(يزن)

أنهيت مقولتي وأمسكت قوسي، سحبت فتيله بسهمٍ اجتررته من جعبتي موجهًا رأسه نحو الحشد الباقين، ثم أطلقته متعمدًا أن يصيب الأرض وسط الحشود ولا يقنص أيًا منهم، ليثير مشهد انغراز رأسه الرعب في قلوبهم، ذلك قبل أن أستدير نازلًا على درجات المنصة بخطواتٍ متمهلة، بينما أخذ قلبي يطرق الضلوع طرقًا، صرث أنتظر سماع صوت انصرافهم، في حين أعرف أن الرماة لن يطلقوا إلا إذا اكتمل نزولي، بل قد ينتظرون إشارةً حاسمة بالإطلاق، لكن ها لم يبقَ سوى عدة درجات ولا أدري هل سيغادر أولئك الخلق أم يبقون على عنادهم؟ وإن مكثوا هل من الممكن العدول عما قلت؟ لو تراجعت لارتأوني ضعيفًا لا أقوى على حزم قراري.

أثناء نزولي رأيت الوزير جمال يشاور بيدهِ صارمًا نحو الخلق المتجمهرين بما يعني انصرفوا أيها التعساء؛ استبشرت لفعلته، فكل أهل المملكة يوقرونه حبًا وعرفانًا، لطالما أعان المحتاج وأعطى المعوز بلا حساب، إلا أنه حاول صرفهم بيدهِ لمرة وللثانية لكن بدا أنه لم يفلح، ليستبق

استوائي على الأرض ويندفع نحوهم حين اكتمل نزولي، استدرت نحو الساحة بينما وقف جمال وسطهم قائلًا لي:

«أمهلني برهة قصيرة يا ملك الوافدين وسيدهم».

بدا وقع الكلمة على مسامعي صادمًا؛ تلعثمت من تصرفه ومن مناداتي بذاك اللقب، بل سرت الهمهمات بين المتجمهرين وبين الجند أيضًا، لكني رفعت يدي للرماة رادًا عليه:

«لقد نفد ميعادهم، لكني أمهل الإطلاق للحظةٍ لأجل خروجك».

عندها التفت جمال إليهم صائحًا:

«إن أردتم لي هلاكًا معكم فلتمكثوا، وغادروا إذا أردتم استبقائي خادمًا لأهلكم، أما إن بقيتم وزهقت دونكم فأنتم من خلعتموني وأُعفي الملك والجند من دمي كما أعفيهم من دمائكم لعصيانكم أمره».

سرت عندها همهمات مرتفعة بوسطهم بما يوحي شروعهم في مشاورة الانصراف، ثم لم يلبثوا أن تثاقلوا خارجين فيما يلومون على الوزير جمال، بدا أنهم ظلوا يستكبرون الانصراف صاغرين وأرادوا خروجًا باللين، ليمنحهم تصرف

جمال ذريعة للمغادرة مرفوعي الرؤوس، كأن استسلامهم حفاظًا عليه، بذات الوقت انتشلني فعله مما كان سيشعل المملكة نارًا أو يجعلها صارمة تحت طوعي، كذلك حفظ قراري من التراجع فيه.

أشرت للرماة بإنزال أقواسهم، وأمرت قادة الجند بصرف الجنود إلى مواقعهم، حين جاءني جمال مأخوذًا مضطربًا، اصطحبته معي نحو مجلسي، حتى إذا ما بلغناه جلسنا متجاورين فيما بقي على ذات اضطرابه وخاطبني قائلًا:

«فلتسامحني يا صديقي، لطالما اعتدت منك الحكمة والتروي عندما كنت أشاورك بخصوص تسيير أمور المملكة قبل مغادرة سيدي يوسف، فهل تنصيبك حاكمًا أضاع حُلمك وحسن تدبيرك، لتصير صارمًا بهذه الدرجة؟».

رسمت التفهم والقبول على وجهي مبتسمًا، على الرغم من اعتقادِه الخاطئ أن حكم المملكة بدّل سلامة سريرتي، فأنا أثق به، وأعرف أنه لا يبتغي سوى النُصح الحسن، فقط لا يدرك أن مثل هؤلاء -الذين بادروا إلى الفتنة بينما لا زالوا آمنين في دورهم، ولم يُؤخذوا للقتال دفاعًا عن أرضهم، ولم تنقطع أقواتهم- لا يجب أن يؤخذوا باللين، لأن سيدهم الجزع والخوف، هو وليهم الأول وملاذهم الدائم، لن ينتموا

إلا إليه، ولن يسوقهم سواه، إذن ينبغي أن نستحضر سيدهم الخوف لدينا لنحسن حكمهم وتوجيههم، فهم لا يدركون معنى للانتماء لنا أو لهذه الأرض.

ثم أجبته باشًا:

«إن تصرفي ما هو إلا رسالة أردت إعلانها للكافة، أنه لا تهاون أبدًا في أمر المقاومة والثبات، أن عزيمتنا لا تلين بمحاولة خلخلتها بل تشتد، كيلا يتكرر مثل هذا الأمر مرة أخرى وتبقى المملكة كلها على كلمة سواء، ما فاجأني أنني تأملت مغادرة الجميع مع أول تحذير، لكن بقي أولئك الذين تشبثوا بالمكوث، لتحسن التصرف كما اعتدت دومًا يا جمال».

أطرقت للحظاتٍ ثم واصلت:

«لكن قل لي، لم خاطبتني بملك الوافدين وسيدهم؟».

أشاح بنظره نحو كرسي رأس المجلس قائلًا:

«لا يجب أن نعطيهم زريعة لفقدان الأمل، لا أحد يعرف على وجه اليقين ما إذا كان سيدي يوسف حيًا أو ميتًا، سيعود أم لن يقدر، دعنا من آمالنا وتوقعاتنا، يجب أن ننظر وفقًا لمنظورهم، إن أعطيناهم إحساسًا أننا متمسكين

بالمقاومة من أجل انتظار رجوعه، فهم يغلب على ظنهم الانهزامي أنه لن يرجع، لذا يطالبون بالتسليم، أما لو أوحينا إليهم أن هناك ملكًا يُدعى يزن، صعب المراس قوي الحجة لن يسالم ولن يستسلم، فنحن نؤكد أن قرارنا غير معلق على أمرٍ لا يقين بشأنه، بل هو قرارنا الصارم الذي لن نحيد عنه، لذلك أريدك أن تتبع نفس النهج، أنت منذ الآن ملك الوافدين صاحب قرار المقاومة».

عقدت حاجبي مغاضبًا:

«بل لن أتبع هذا النهج وأواصل في طريقتي، أنا مجرد حاكم أسيّر الأمر لحين عودة سيد الوافدين لمملكته، إنها ليست آمال وتوقعات يا وزير المملكة، لو أراد أولئك المحاصرون إثبات موته لبعثوا جثته كاملة، كما أنني على يقين أن أكثرية أهل المملكة متمسكون بالأمل في عودته وهو ما يشد عزيمتهم، فلا يجب أن ننساق خلف فئة ضالة ونغير قناعاتنا».

أومأ برأسه موافقًا دون اعتراضٍ وقد هاله انفعالي، ثم رد متراجعًا عن قوله:

«أنت الأقدر على تحديد أمر المملكة، وأنت من تركك سيدي يوسف حاكمًا عليها، لكني عرضت وجهة نظري ولك

الأخذ بها أو إهمالها».

ابتسمتُ مهونًا لأُخفف وطأةَ احتدادنا قبل أن أُغير دفة الحديث نحو شؤونٍ أخرى حتى انصرف، لتمر ليلتان استتب فيهما أمر المملكة، لكن من بعدهما عاودت القلاقل، لا سيّما أن مهلة العدو لم يبقَ فيها سوى أربعة أيام، فبعد مرور ست ليالٍ على بلوغنا الرؤوس، جاءني بالنهار التالي من أخبرني بتجمهرٍ جديد بقلب سوق المملكة الرئيسي المجاور للساحة، يطالب بمناقشةِ شروطٍ جيدة للتسليم، مثل أن نشترط على المحاصرين خروج كافة أهلنا من الشيوخ والنساء والأطفال نحو الكهوف القديمة ليتخفوا بين الأنفاق كما اعتادوا منذ عقود التعقب، من بعدها يسلّم الجند المملكة، وإن ابتغوا ألا يُسلّموها بعد انصراف العوام فهم أحرارٌ في ذلك، أو على الأقل تُفتح البوابات لمن يريد المغادرة دون مناقشةِ شروط للتسليم مع المعتدين، لا سيّما أن القوات المحاصرة تقف على مسافاتٍ بعيدة، لذا سينجح المغادرون في النزول إلى باطن الجبال وتُغلق البوابات قبل ورود هجوم.

سارعت نحو السوق عندما جاءني الخبر بصحبة قليلٍ من الجند لكن التجمهر انفض قبل وصولي، لكن بذات الليلة جاءني الوزير جمال ليخبرني أن بعض الجنود غير

النظاميين بدأ التذمر يستشري بينهم، بل منهم من أعلن التمرد وانصرف إلى دارِه، مرجحين لرأي المتجمهرين نهارًا، معلنين أنهم من العوام ويجب أن يغادروا معهم فيما يبقى الجند النظاميين وحدهم، لذا أمرت بتعقب المتمردين إلى دورهم وحبسهم لدى السجن الكبير قبل حلول النهار.

انتظرت إلى أن أتموا التعقب ثم بقيت طوال ليلتي ساهدًا، أتقلّب على فرشتي ذات اليمين وذات الشمال، لا أعرف إلى أي مدى من الجائز أن تبلغ تلك القلاقل، هل ستنطفئ جذوتها إذا مر ما بقيَ من ليالٍ على نفاد المهلة واكتشف أولئك الجبناء أن بنهايتها لم يجد جديد؟ يا لجزعهم وانعدام فطنتهم! هل يظنون أن بنهايتها سيقفز هؤلاء المهاجمون من فوق الأسوار ويحرقوننا؟ لو كانوا يستطيعون بلوغنا لفعلوا منذ أول ليلة بالحصار، لكنهم عرفوا كيف يستثيرون خوف أولئك الخانعين برسالتين ملأوهما وعيدًا ورأسين مشوهتين، هم يعرفون جيدًا مع من يتعاملون.

أحست زوجتي بسهادي، احتضنتني من خلفي بينما نرقد وقالت هامسة: «لا تقلق يا يزن، سيظهر سيدي يوسف، وستلقي عن كاهلك ذلك الحمل الثقيل ونعود لحياتنا الهانئة».

- أخشى أن يعود بعد فوات الأوان، بعدما يُضيّعوا كل ما أفنينا عمرنا في سبيله.

- حدثي لا يُخطِئ أبدًا، سيعود، لكن هيّئ حالك لتظل متماسكًا مهما تفاقم الأمر من حولنا.

انتهى حديثنا عند ذلك، واستمتُّ في طلب النعاس، ليأتيني الوزير جمال في الصباح التالي بنبأ التصاعد الأكبر لمجريات هذه الأيام الثقيلات، حيث تجمهر العديد من أهل المملكة باكرًا أمام البوابة الشمالية حاملين أمتعتهم واشتبكوا مع حرسها ممعنين في محاولة الخروج عنوة عبر البوابة، ليسقط قتيلان وعدة جرحى من العوام، قبل أن يفضوهم إلى دورهم، نصحني بألا أذهب نحو تشييع الجثمانين لأن الحال أصبح محتقنًا للغاية وانتشر الاستنكار والغضب بين من يبتغون المغادرة ومن يودون البقاء أيضًا، إثر سقوط صريعين بسبب قراراتي الصارمة بالإغلاق التام، كأن أهل المملكة اجتمعوا الآن على سوء حكمي وخطأ تدبيري للأمر، بل لأول مرة أخذ يناقشني في الموافقة على إتاحة المغادرة، أن نهادن قليلًا، ألا نمنع الخروج لمن أراد، دون مناقشة التسليم، لكني بقيت على قناعةٍ واحدة، أن هذه البقعة تظل مملكة بأهلها وليس بالأسوار والجنود المدافعين، أن بالأمر

فتنة ولو فتحت بابًا للفرار فلن يبقى أحد، وما بقاء الجنود النظاميين متمسكين بالمقاومة سوى لبقاء أهل المملكة فيها، إن انفرط العقد ستتساقط كل حبات اللؤلؤ. إلا أنني اقتنعت بعدم ذهابي نحو المقابر، متمنيًا أن يمر اليومان الباقيان على المهلة دون أن تشتعل الضغائن والحماقات، لكن فاجأني بمنزلي بعد قدر ساعة صوت صياح واضطراب بالخارج، استبقت نحو الباب لأجد حاجبيه يوعزان لي بإغلاقه والتراجع تجنبًا لسخط المتجمهرين، إلى أن يأتيهما مدد من الجند ليفضوهم، رميت نظري لدى الدرب المؤدي إلينا؛ رأيت مسيرة من الخلق تقترب، بدا أنها لا تقصد سوى داري.

تفرّست أنهم أنهوا طقوس الدفن ثم تجمعوا عائدين ليعلنوا العصيان الأكبر بالتجمهر عند منزل الحاكم، موقنًا أن الأمر أصبح يستلزم التروي والمهادنة وليس العنف والإجبار، لذا أغلقت بابي ونوافذ بيتي، قبل أن أشعل المصابيح الزيتية وأعود نحو أريكة قاعة استقبالي، فيما جاءت زوجتي تحمل زادة بينما ارتسم الفزع على وجهيهما إثر صوت الصياح بالخارج، الذي لبث يتصاعد كلما اقترب المتجمهرون، أخذت زادة من أمها، وضعتها على قدمي، داعبت أنفها بأنفي قائلًا:

«إنهم يلعبون ويلهون بالخارج، لا تفزعي يا قرة عين

أبيكِ».

ارتمت بحضني محتمية، كأنها لم تصدّق حيلتي لتهدئتها، هؤلاء الأطفال يسمعون بقلوبهم قبل آذانهم. لاح التساؤل بعينيّ أمها: ماذا سنفعل يا يزن؟ ابتسمت لها مطمئنًا، بينما لا أعرف ماذا يُخبئ القدر بعد ساعة، بل بعد دقائق.

زاد الهرج عندما بلغوا داري وأحاطوها، شرعوا يتصايحون: «فليسقط الحاكم يزن ويسقط كل أتباعه، ما عدنا نبتغي حكمه، افتحوا لنا الأبواب كي نرحل عنه ويغرب عنا، هو ليس بملكٍ علينا، قد ولّى الملك ولن يعود».

لم أخرج لهم بل لبثت منتظرًا للمدد، ليبدأوا بعد قدرٍ من الصياح والعويل في الضرب على النوافذ والجدران والأبواب، صارخين: «نريد أن نعود لسابق عهدنا يا يزن، ما عدنا نبتغي العيش بممالك مهددة، أنتم سبب شقائِنا، خلّونا لحالنا وأبنائِنا، فلتقاتل أنت وجندك إنّا راحلون».

زاد فزع زادة وأمها، احتضنتهما إلى جواري بينما أخذ الدبيب يتصاعد، بل كادوا يقتحمون الباب لولا أن سمعت صوت قائد كتائب المشاة أمام بابي يصرخ في جنوده بإحاطة الدار، لتظهر بوادر شجار ومشاحنات بدا فيها ذاك القائد حكيمًا يحاول صرف الناس بالحسنى، واعدًا بمناقشة

مطلبهم من جديد قبل انتهاء المهلة، لينصرفوا رويدًا رويدًا بينما يفلت منهم بعض صائح يقول: «لن ننتظر أكثر من الغد، لن نبقى حتى يهلكونا كما أهلكوا غولار».

ما إن انصرفوا جاءني القائد بمجلسي موعزًا أنه سيترك حماية كبيرة حول داري، وأنه معي حتى النهاية فيما أرتئيه، أخذ يردد أن أكثر من نصف أهل المملكة معنا داعمين، لا يبغون فرارًا، إلا أن الحمقى أكثر ضجيجًا، فهمت أنه يعرض بطريقة ضمنية أن أوافق على مغادرة المتآمرين، فهززت رأسي متفهمًا، بل أوشكت على الموافقة إلا أنني تذكرت مقولة زوجتي، أنا هنا مكان سيدي يوسف، لو كان بيننا لرفض بل لسجنهم أجمعين إلى أن تنتهي المحنة، ومن بعدها فليرحل من ابتغى غير مأسوف عليه، وليظل الباقون فوق رؤوسنا، لو فتحت الباب مرة لن يبقى أحد، سوف يفت جزع الحمقى في عزم الثابتين فيلين عزمهم، ثم يتسللون فرادى وجماعات نحو الكهوف من جديد. من انتمى لهذه المملكة لا يجوز له خيانتها بالفرار ساعة العسرة، من ضمته بين أسوارها آمنًا لسنوات ليس من حقه إسقاطها بهروبه، إن أهون حقوقنا تجاه بعضنا كجماعة نهضت سويًا أن نظل على ذات السواء إذا ما احتدمت الخطوب، ستسقط المملكة مع أول مغادر فار، لكنه سقوط معلق على اكتمال فرار الخلق

أجمعين.

نظرت نحو القائد موعزًا بأننا لن نسلّم ولن نهادن في أمر الفرار، موقنا أن بانتهاء المهلة سيكتشف كل أولئك الخائفين أن تلك الرسائل لم تكن سوى خدعة، ما عاد يعنينا سوى صبر يومين، من ثمَّ أمرته بتكثيف الحماية عند البوابات وعند معسكرات الجند وبيوت القادة، قبل أن ينصرف نحو معسكر المشاة، إلا أنني بقيت بذلك اليوم مترقبًا، أشعر باقتراب طامة، إلى أن حل الغروب وعدت نحو داري بعدما مررت على معسكرات الجند ومواضع الدفاع بالأسوار.

لبثت مترقبًا على حالي، تحيطني زادة وأمها بقاعة استراحتنا، حتى مرت عدة ساعات وبلغني صهيل خيل يقترب، ابتسمتُ موقنًا أن حدثي كان صحيحًا، لا يُسمح لخيل الجنود بالركض في المملكة، ما هي إلا دقيقة وسمعت من بدا أنه قائد تلك السرية من الفرسان يصرخ في جند المشاة المحيطين بداري قائلًا:

«لقد تم خلع السيد يزن من منصبه باجتماع قادة الجند ووزير المملكة، وصدر الأمر بانصرافكم إلى معسكركم، نحن من سنتولى أمر هذا المنزل».

رد عليه قائد جند الحماية بصوتٍ جهور:

«أنا لا أتلقى أوامري منكم، نحن هنا لحماية حاكم المملكة، ولن تصرفونا عنه إلا قتلى».

ثم صاح في جنوده:

«استعدوا للقتال دفاعًا عن الحاكم».

هنا سمعت صوت سيوفٍ تشهر، فيما صاح قائد سرية الفرسان في جنده:

«لا تشتبكوا معهم وانتظروا في مواقعكم لحين بلوغ الوزير».

توقعت ذلك منذ الصباح لكني ظننت أن قادة الجند أو أحدهم هو من سيحاول القيام بهذا الأمر، وسيعارضهم الوزير متخذًا صفي، بل لبثت منكرًا لما قاله قائد سرية الفرسان، لن يصل الوزير جمال، هم حبسوه، أو قتلوه، وما قالوه عن انتظاره مجرد حيلة، إلا أنني استفقت بالأخير على صوته يصرف جند الحماية عن الدار صارمًا، قبل أن أسمع طرقات على باب المجلس الخارجي فخاطبت زوجتي:

«خذي زادة وادخلي إلى غرفتنا كي أذهب نحو المجلس».

ردت بهلع: «لا تفتح لهم يا يزن».

ابتسمت مطمئنًا:

«لن يقتلونا، لقد جاء ليخبرني أنه اضطر إلى ما فعل، ليته يسمح فقط بمغادرة من يبتغي دون التسليم المخزي، كي يبقى شيء من الأمل!».

تركتهما واتجهت نحو باب المجلس فتحته، لأرى جمال وسط زمرة من الجند، خاطبني بينما يقف في موضعه:

«إنما اتخذنا هذا الأمر لحماية أهل المملكة أجمعين يا يزن، من الآن لن تغادر منزلك، وستبقى هذه السرية لحمايتك، لو تأخرنا للغد لأفلت الأمر من أيدينا ولكنت أنت وأهلك أول الهالكين».

رددت مبتئسًا:

«هل ستسلم المملكة كما أرادوا؟».

- سأنظر في الأمر مع قادة الجند.

ابتسمت مشفقًا:

«أنت تعتقد مثلهم أن سيدي يوسف قد ولّى يا وزير المملكة».

- ما عاد يعنيني ذلك يا يزن، يعنيني الآن أن أمسك

ابتسمت مطمئنًا:

«لن يقتلونا، لقد جاء ليخبرني أنه اضطر إلى ما فعل، ليته يسمح فقط بمغادرة من يبتغي دون التسليم المخزي، كي يبقى شيء من الأمل!».

تركتهما واتجهت نحو باب المجلس فتحته، لأرى جمال وسط زمرة من الجند، خاطبني بينما يقف في موضعه:

«إنما اتخذنا هذا الأمر لحماية أهل المملكة أجمعين يا يزن، من الآن لن تغادر منزلك، وستبقى هذه السرية لحمايتك، لو تأخرنا للغد لأفلت الأمر من أيدينا ولكنت أنت وأهلك أول الهالكين».

رددت مبتئسًا:

«هل ستسلم المملكة كما أرادوا؟».

- سأنظر في الأمر مع قادة الجند.

ابتسمت مشفقًا:

«أنت تعتقد مثلهم أن سيدي يوسف قد ولّى يا وزير المملكة».

- ما عاد يعنيني ذلك يا يزن، يعنيني الآن أن أمسك

بالزمام قبل إفلاته بالكلية، يعنيني تناقص الماء، يعنيني أن أنقذ هذه الأرواح.

قالها وانصرف ليسحب أحد الجنود باب المجلس مغلقًا له، عدت نحو زوجتي، جلست على طرف سريري جوارها، ثم ضممتها بينما تحتضن زادة، قائلًا:

«بقيَ الغد، وبعد الغد سيحل المحاق ليلًا ويختفي القمر، ويا للقدر! توافق انتهاء المهلة مع الليلة الظلماء».

- هل سيسلم؟

- رأيت التسليم بعينيه، لكن كما قلتِ، سننهي حياتنا هنا ولن نغادر.

ضمت زادة إلى صدرها بقوةٍ وقالت:

«إذن لتجعل موتنا رحيمًا عندما تحل الساعة».

- إنهم جميعًا هالكون أشد الهلاك، لكننا سنُدفن بهذا المنزل آمنين، دون فزع الهروب وضجيج المطاردات أو الأسر.

بثُّ ليلتي مستسلمًا لأول مرة منذ قابلت سيدي يوسف، ومكثت معه بذلك الكهف الذي انطلقت منه شرارة إنشاء المملكة، لم أشعر قط بمثل هذا الإحساس الذي أحاطني بهذه

الليلة ولا حتى يوم تقهقرت جنودنا بحرب خونة الرعاة، تمنيت ألا تطلع علينا شمس الصباح إلا بعدما تفارقنا الروح، لكنها طلعت.

بظهيرة اليوم التالي خرجت إلى قائد سرية الفرسان التي تحمي داري أحادثه بود، عرفت منه أن جمال ما إن تولى مقاليد الأمر راسل ملك آربوس الجنوبية بالمساء السابق، متأملًا أن يكون أكثر صدقًا ورحمةً من قوات الشمال، عرض عليه تراجع القوات المحاصرة في مقابل منحهم كل مخزون البارود الذي نملكه عدا بارود الراجمات، ألفيّ فرس، عدة آلاف من الأقواس والسيوف والسهام، كل اللآلئ العادية التي جمعها الصيادون على مدار سنوات وبادلتهم المملكة عليها لتصبح في ملكيتها، وكل الذهب الذي وجدناه بالكهوف أثناء البحث عن مواد البارود، إلا أن رد ملك الجنوب جاء محددًا بضرورة دخول المملكة وتسليم من لديهم أسرار البارود، في حين أقسم بروح آربوس أنهم لو دخلوها دون قتال فسيحميها بنفسه ولن يقتل منها أحدًا، على أن تسلم كافة أسلحتها وبارودها وينفض سائر جندها إلى الأشغال العامة، ثم تبقى فيها حامية مُشكّلة من قوات آربوس الشمالية والجنوبية، من بعدها يمارس أهلها حياتهم دون تعقب أو أسر، على أن يدفعوا جزية سنوية من الذهب والآلئ ومواد

البارود، ويبقى جمال حاكمًا عليها باسم ملكيّ آربوس.

عدت نحو داري موقنًا أن جمال سيوافق على العرض الماكر، ليته يعلم أنهم لن يفوا بوعدهم، نحن بالنسبة لهم «دون» دون هوية، دون كرامة، دون ثمن، لا نملك صك معمر، يروننا أقل منهم شأنًا، بشر في مستوى أدنى، ويجب أن نبقى فيه ليبقوا هم الأعلى، إن تساوينا فأين الأفضلية؟ أين الأسياد والعبيد؟ إذن سيعيدوننا إلى سيرتنا الأولى كي نعود لهم عبيدًا مطيعين، كم علمتني يا سيدي يوسف، وأنا لم أخذلك.

فلتوافق يا جمال لكنك لن تسلّمني، أنا آخر من يعرف أسرار البارود كاملة، وهيهات لهم أن يبلغوني!

في اليوم التالي عرفت أن المراسلات تكررت طوال نهار أمس بين ملك الجنوب وجمال، بعدما وافق الأخير على التسليم، ذلك كي يضمن الأول دخول قواته قبل قوات الشمال. يقيني أنه أخبر شركاءه الشماليين بأمر التسليم، إلا أنه اشترط دخوله أولًا عبر بوابتنا الجنوبية، لأنه صاحب السبق في الصعود إلى الجبال، وفي احتلال غولار بفضل باروده الذي منحناه، وفي الموافقة على التسليم أيضًا عبر ضمانه وقسمه، لذا يجب أن يكون صاحب السبق في دخول

مملكتنا حتى يتمم التسليم ويضمن أكبر الغنائم، ثم يفتح بوابة الشمال لشركائه، من بعدها سيهدمونها حجرًا حجرًا.

اتفقوا على التسليم مع بزوغ هلال الشهر الجديد لتباركهم روح آربوس، وليلتنا هي ليلة محاق، آخر ليالي الشهر، والتالية لا يظهر فيها القمر، فيصير التسليم بالليلة بعد التالية، لأبدأ أنا التفكير آسفًا في الطريقة التي سأنهي بها حياتي أنا وأسرتي على أن أنفذ ذلك بالنهار التالي.

ثغر النفق

(ماجد)

غادر كهفنا سيد الوافدين وتركني رفقة ميرا وحدنا، لتمر ساعات النهار تباعًا وأنا على نفس يقيني في عودته سالمًا، لدرجة أنني لبثت بين الفينة والأخرى أخرج أمام الكهف ناظرًا نحو الجنوب على ساحل البحر؛ أنتظر رؤيته قادمًا، إلى أن حل الليل فآويت إلى كهفنا بينما بقيت مراقبًا كوّته، أترقب تزحزح صخرتها عند رجوعه، حتى عندما أغمضت عينيّ، بتّ أتأمل أن يوقظني أثناء نومي، لكني استيقظت بالصباح التالي دون وجوده، لتمر ساعات النهار الثاني وأنا على حالي من الترقب، إلا أنني لم أعد بذات اليقين في رجوعه، يراودني الأمل تارة ويلاعبني اليأس بأخرى، قبل أن يأتي الصباح الثالث منهيًا لذلك التردد، إذ شرع فقدان الرجاء يتسلل إلى قلبي، لا سيّما أن حالة ميرا أخذت تتدهور بهذا اليوم، حيث زادت تقرحات جروحها بصورةٍ كبيرة، صار جسدها يرتجف من نوبات الحرارة المستعرة، امتنعت عن الطعام والشراب، شحب لونها إلى أن أصبحت كالموتى، ثم بدأت تهذي، مرات تنادي عليه بصوتٍ واهن: «يوسف، أبتغي الموت بين ذراعيك»، وفي أخرى يتقطع صوتها حالما تقول:

«ذلك النفق أسفل منزلي هو طريق عودتك يا سيد الوافدين وحبيبي».

بدا أنها لن تقاوم أكثر من يومٍ آخر على أكثر الترجيحات تفاؤلًا، لو بلغ الحوريات ومنحنَه أسرار القوة كما أعتقد، ربما يأتي بعد فوات الأوان، بعدما تولّي ميرا بلا رجعة، وهي من تعرف طريق الرجوع إلى المملكة كما قال، أخذتُ أتساءل مستنكرًا يقيني السابق في رجوعه، كيف سيعود من حيث لم يعاود من سبقوه؟! هل من تلك الدوامات نجاة؟! بل ما الذي سينوله إن بلغ الحوريات الآن وميرا على هذه الحالة؟ للأسف قد ذهبت مجازفته سدى، ولم يبقَ أمل في إنقاذ المملكة كما اعتقدت حين رأيته، بل لم يعد هناك رجاء في رجوعه.

لبثت تلك الأفكار تصارعني طوال النهار، لأعود بليلتي إلى التفكير بحالي وأبنائي، من المؤكد أن أهل القبيلة ظنوني خائنًا عندما وجدوا الجثث الثلاث دون جثتي، لذا من المستحيل رجوعي إليهم، لكن قد أقول أن سيد الوافدين هو من تربص بنا وقتلهم قبل أن يتخذني أسيرًا لأعِينه، سينطلي عليهم القول؛ هم يحسبونه خارقًا، إلا أنهم وإن قبلوني من جديد، فإن حياة أبنائي لا تزال مهددة، قد لا ينجوان من

الحصار، إذًا ما الداعي للعودة نحو هذه القبيلة أو غيرها دونهما؟

أخذت أدير الأمر برأسي مرارًا وتكرارًا إلى أن اهتديت لفكرةٍ قد تحمل الخلاص، حيث تساءلت: لمَ لا أسلّم ميرا لجنود آربوس الشمالية موعزًا إليهم بأنها تعرف نفقًا يفضي إلى قلب المملكة؟ معززًا وشايتي بأني علمت خلال مرافقتي لهما أن موضعه يقبع أسفل منزلها إلا أنها تظل الوحيدة التي تحفظ موقعه على وجه التحديد من لدى الأنفاق المارة بجوف الجبال، في مقابل ذلك أطلب تأمين أبنائي، وقد أسألهم صك معمر لقاء خدمتي إذا ما تمت، هي الأخرى سيعود عليها الأمر بالنفع، لأنهم سيبادرون إلى علاجها قبل أن تزهق روحها أملًا في معرفة الطريق.

دار برأسي أنهم ربما ناقشوا فكرة حفر نفق صاعد من خلال الأنفاق التي تمر تحت المملكة، لكن تبقى فرصة نجاحهم ضئيلة، لشدة صلابة الصخور، ولأن الأنفاق المتشعبة تقع بمنتصف جوف الجبال على مسافاتٍ بعيدة من المملكة بالأعلى، لذا سيستغرقون وقتًا طويلًا قد يدوم لأشهر، كما سيشعر أهل المملكة المدافعين بالحفر؛ سيسدونه أو يقذفون فيه بارودهم، أما أنا فأمنحهم ميرا التي تعرف

نفقًا جاهزًا، حتى وإن زهقت روحها قبل أن يداووها، قد أحاول تفرّس مدخل هذا النفق بصحبتهم، بعدما أقول لهم ما كنت سأقوله للقبيلة، لقد قتل يوسف رفقائي الثلاثة فيما اتخذني أسيرًا، فانتظرت حتى رحل عنا وجئت أبلغكم.

لم أنم بهذه الليلة بل أخذت الفكرة تختمر برأسي إلى أن حملت المشعل وتحركت خلال الأنفاق حتى بلغت القمم، لأرى أنوار مشاعل الطليعة الخلفية لخيام آربوس الشمالية، حيث ربضت قواتهم بذات السهل الكبير الذي دارت فيه معركة خونة الرعاة، اتجهت نحوهم بقدرٍ قليل قبل أن يستوقفني حارسان هتفا من بعيد:

«ماذا تفعل هنا أيها الوافد؟».

اقتربت منهما وأبلغتهما برغبتي في مقابلة أحد القادة، كي أخبره عن طريقٍ يؤدي نحو قلب مملكة الوافدين، وعن موضع ميرا التي أمسكت بها إحدى القبائل لكنها هربت منها، أخذاني بازدراءٍ يدفعانني دفعًا صوب خيمة قائد جند آربوس حارث المعتاض بمنتصف المعسكر إلى أن بلغناها، فأوقفاني أمام حرس مدخلها، أبلغوهما مطلبي ليدخل أحدهم إليها ويعاود بعد برهة، قبل أن يأخذني نحو القائد بالداخل، أوقفني أمامه ثم انصرف، بدا رجلًا صارمًا على

مشارف الخمسين من عمره إلا أنه مفتول البنية، طويل القامة، جاف الملامح كأن وجهه قطعة من الصخر، واسع العينين كبومة بيضاء، لبث جالسًا فوق وسادة دائرية يرمقني بتفرسٍ عبوسٍ جعلني أرتعد، في حين جاوره عن يمينه شاب يُدعى الأمير مالك كما دعاه الحارس عند انصرافه، ذو وجهٍ مستدير أبيض وشعرٍ أسود، فيما قبعت أمامهما منضدة مستطيلة تراصت فوقها أصناف من الفاكهة والنبيذ، وفُرش تحتهم قماش أحمر، بينما أضاء الخيمة مشعلان.

أخبرتهما مضطربًا بما خططت له، ليسألني القائد بنفس عبوسه عن سبب مغادرة يوسف، أجبت بأنه ذهب نحو المنطقة المحظورة معتقدًا أنه قد يلقى الحوريات هناك، ثم أضفت أنني أظنه قد غرق؛ استبشر الأمير مالك لقولي وأخبرني أنهم سيحفظون لي أبنائي إن صح قولي واكتمل عملي، إلا أن القائد لبث عابسًا تصليني عيناه نارًا، إلى أن قام مالك مستأذنًا منه في الذهاب معي نحو الكهف بصحبة سرية من جنده، عندها اعتدل قائد الجند مربتًا على كتفه بعزم:

«آتنا بها قبل حلول الصباح، عسانا بالغد نكون بقلب هذه الأسوار».

خرجت بصحبة مالك أمام الخيمة، ليأمر أحد الجند بتجهيز سريّته الخاصة على أن يصطحبوا معهم أحد أطباء المعسكر ومحفة لحمل مريض، مر قدر ساعة حتى تجمعوا، ثم اتجهنا نحو الكهف يضيء لنا عدة مشاعل بأيدي الجنود، ما إن بلغناه تفحصها الطبيب جيدًا قبل أن يخبر مالك أنها بحالةٍ سيئة للغاية، إلا أنه سيبذل قصارى جهده طالما أن ذلك مطلب الأمير. بدا على مالك وحده التأثر من مشهدها، ارتأيت بقلبه شيئًا من الرحمة على عكس بقية الجند الذين مكثوا ينظرون نحوها ونحوي باشمئزاز، بل أحسست أنه يبتغي علاجها بغض الطرف عن منفعتها لهم، لا سيّما عندما قال للطبيب: «فلتستخدم عقاقير الأمراء وقادة الجند إن ارتأيت فيها الشفاء، بل ولك هدية طيبة إن أتممت علاجها».

أنهى مقولته وأمر الجند بحملها وانصرفنا لنبلغ موقع المعسكر حالما حل الشروق، أسكننا الجند بخيمةٍ صغيرة لدى الطليعة الخلفية للمعسكر، حيث أرقدوها على فرشةٍ صوفية موعزين أن الأخرى فرشتي، قبل أن يتركانا جميعًا هم وطبيبهم، فيما بقي جنديان أمام باب الخيمة، مرت برهة قصيرة ريثما عاد الطبيب مصطحبًا معاونين حملا كثيرًا من الأغراض، مثل بضعة زجاجات وأوعية مغلقة، أقمشة نظيفة من الكتان الأبيض، جرة ماء صغيرة، ومنضدة خشبية بقدر

ذراع، وضعا تلك الأدوات بجانب مدخل الخيمة ليبدآ أمرهما، بأن خلع المعاونان عن ميرا ملابسها كاملة، ثم فرشا قماشًا كتانيًا أبيض بجوار مرقدها وأرقداها فوقه، بعدها أخذا يمسحان سائر جسدها بأقمشة بللت بالماء متحاشين مواضع الجروح، عدا الرأس غسلاها جيدًا بسكب الماء فوقها، ما إن انتهيا أعاداها إلى فرشتها الصوفية بعدما فرشا فوقها من القماش الأبيض.

أثناء ذلك أخذ الطبيب يخلط عدة موادٍ من أوعيتهِ بحذرٍ وبمقادير محسوبة، مضيفًا فوقها سائلًا من إحدى زجاجاته حتى انتهى إلى مزيجٍ لزج، ما إن أتمه صار يسكب أحد سوائله فوق جروحها وينظفها بعنايةٍ ممسكًا بقطعة صغيرة من الكتان الصافي، قبل أن يبادر إلى سكب مزيجه اللزج بكثافة كبيرة فوق الجروح ويدهنها، أعقب هذا بأن لف مواضع الجروح بقطع الكتان، بعدها ترك مساعدَيه يلبسانها ثوبًا جديدًا، فيما شرع يخلط من سوائله بإحدى الزجاجات الفارغة إلى أن حضّر عقارًا غلب على لونه الحمرة، نظر نحوه مبتسمًا زاهيًا، ثم أشار لمعاونيه بإجلاسها، ليبدأ سقيتها على مهل.

لم يكتفِ بذلك، بل أملى معاونَيه عدة تعليمات، على

أن يتناوبا البقاء بخيمتنا لتنفيذها، قبل أن يخرج بصحبة أحدهما مستبقيًا الآخر صاحب المناوبة الأولى، ليغيبا بقدر ساعة ثم يعود المعاون حاملًا قدرًا به طعام مطهو، بدا أنه لحم تم سلقه إلى أن طاب وتفتت بقلب مائِه، ساعده زميله في إجلاس ميرا وإفاقتها ليشرعا إطعامها ببطءٍ شديد، لدرجة أنها كانت تغفو فيعاودان إيقاظها حتى أتما الأمر، شرعا من بعدها في وضع قطع من القماش المبلل فوق مناطق متفرقات من جسدها، ثم تركاها تغفو وخرجا جوار الكوخ يتهامسان فيما ظناني رقدت نائمًا بدوري. سمعتهما يقولان:

«أظنها ستنجو بعدما تلقى عنايتنا وتأكل من اللحم الذي ما ذاقته بعمرها».

ضحك الآخر مضيفًا:

«لقد اعتادت أجسامهم الشقاء ونقص الغذاء وسوء المعيشة، وها هي الآن تلقى ما لم تأمله بحياتها، لكن لا تغفل أنها جاءت بعدما استشرت تلك التقرحات بجروحها».

رد صديقه:

«دعنا منها، آمل أن يكون ببلدتهم العديدات ممن هن مثلها،

أريد أن أستأثر بواحدةٍ منهن تساعد زوجتي نهارًا وتهوّن عليّ بعض الليالي، لم أرَ جسدًا بمثل هذا الجمال من قبل».

- اطمئن، ستكون أعداد الأسيرات كبيرة هذه المرة، إنها ليست حملة مطاردة من الحملات القديمة، بل درسًا لن ينساه القلة التي ستبقى بالكهوف، حتى يتذكروا دومًا أنهم عبيد وليسوا سادة، ما يعنينا الآن هو أن نلبي رغبة الأمير مالك في إعادتها للحياة، لذا حافظ على تغيير الخرق المبللة كل برهة وسآتيك في موعد تطهير الجروح القادم قبل أن أتسلم مناوبتي في الموعد الذي يليه.

استمعت لقسطٍ من حديثهما مذهولًا مبتئسًا إلى أن غلبني النعاس غصبًا، لأستيقظ بمنتصف النهار وهما يزيلان قطع الكتان وينظفان الجروح من جديد، لكني لم أبقَ هذه المرة حتى ينتهيا، حيث جاء جندي أخذني بفظاظة كي أقابل الأمير مالك، ما إن بلغت خيمته المجاورة لخيمة قائد الجند، أخبرني بذهابي رفقتهم نحو الأنفاق لأحاول الاستدلال على موضع نفق ميرا، ثم تركني أنتظر أمام الخيمة ريثما تجمعت السرية، ذلك قبل أن نبتدر المسير بأن نزلنا عبر أخدودٍ انحدر بيسرٍ إلى أن بلغنا نفقًا مستويًا أخذنا جنوبًا، لم نحد عنه يمينًا أو يسارًا في أيٍّ من مداخل الأنفاق التي قابلتنا، بل

قطعنا فيه مسافة كبيرة، حتى خاطبني الأمير مالك قائلًا: «منذ هذا الموضع بقينا تحت بلدتكم، لذا حاول من الآن تفرُّس مكان المنزل المقصود».

لم أدرِ كيف سأتفرس كما طلب مني، لا أجد ما أحدد عليه موقعي هنا بالنسبة للمملكة بالأعلى، إنها متاهة من الأنفاق، لكنني جاهدت لكي أظهر رجاءً من وجودي، متأملًا أن تفيق ميرا فتزيح عني هذا الحمل الثقيل وتصير هي المسؤولة عن إيصالهم. أخبرته أنني أبتغي الوصول للبحر حتى أبدأ تحديد موقعنا بالنسبة للمملكة من لديه، لذا أمر جنده بالاتجاه غربًا، لتأخذنا الأنفاق يمينًا ويسارًا إلى أن بلغناه لدى نهاية نفقٍ تطل عليه من عَلٍ، عندها لم أُدرك هل نحن بمنتصف عرض المملكة أم بأوله أم بآخره، إلا أنني طلبت منهم الرجوع مرة أخرى عبر نفس الطريق الذي سلكناه؛ نفّذ طلبي وأقفلنا راجعين، لكن لم تفلح حيلتي بل ضاعت مني الاتجاهات والدلائل من جديد، لا سيّما أن منزل ميرا كان بمنتصف المملكة عرضًا وطولًا قريبًا من الساحة، على عكس منزل فارس وسيد الوافدين ويزن الذين تراصوا مطلين على ساحل البحر، فلبثت أوجههم يمينًا ويسارًا ناظرًا لأعلى حتى شعر مالك بفطنته أنني لا أدرك ما أفعل، استوقفني سائلًا: «هل سنمضي شهرين ناظرين لأعلى بينما ندور في دوائر لا

تنتهي؟!».

- فلتستمِحني عذرًا يا سيدي الأمير، من المؤكد أنها عندما حفرت نفقها نزلت من خلاله وعرفت المواضع القريبة منه كي تستطيع تحديد معالم طريقها، هي مجرد بقعة صغيرة بقلب متاهة من الأنفاق.

لم يدعني أكمل حديثي بل أعطى أوامره بالعودة دون توبيخي فيما أخذ الجند يرمقونني بغيظ، لكنهم ما تجرأوا على التحدث بحضرته. تنفست الصعداء خلال طريق رجوعنا متمنيًا أن نجد ميرا قد أفاقت واستعادت وعيها كيلا أظل سبيلهم الوحيد لأجل الوصول لهذا النفق المزعوم، كذلك لينفذوا وعدهم بحماية أبنائي عندما تخبرهم بنفسها عنه. وصلنا معسكرهم عند الغروب، لأعود نحو خيمتي مدققًا في وجه ميرا، لاحظت أن لونها آخذًا في التغيّر، عادت الحياة لشفتيها على الأقل، انتظمت أنفاسها، ولم ألحظ خلال الليل انتفاضات اعترتها؛ ابتهجت لذلك وبقيت أتمنى استكمال تقدمها، ليهل النهار الجديد والمعاونان على حالهما، يكرران مداواة الجروح كل بضع ساعات، يسقيانها العقار الأحمر، مع الانتظام في إطعامها واستبدال الخرق المبللة، حتى جاء الليل وهي آخذة في التعافي، أدركت أنه لن يمر يوم آخر أو

يومان قبل أن تستطيع التحدث عما تعرف، ما أثار تساؤلاتي هو ماذا سأخبرها عن سيد الوافدين وعن قدومنا إلى هنا، لكني لم أستغرق في التفكير بهذا الشأن، يتوجب عليها شكري لما فعلته، وإلا لكانت في تعداد الأموات.

في صباح يومنا الثالث عاد لها قدر يسير من وعيها، لبثت مستيقظة منذ شروق الشمس بينما أخذت تنظر نحوي بين الفينة والأخرى، تسألني بعينيها أين نحن وأين يوسف، إلا أنها لم تتحدث تخوفًا من ذلك المعاون ومن الجنديين الواقفين أمام باب الخيمة، إلى أن جاء الطبيب مستبشرًا، حادثها بلطفٍ لكنها لم تُجبه، فيما ظلت ترمق الجميع بنظرات ريبة حتى انصرف. ما إن انتصف النهار جاء جندي يطلبني خارج الخيمة، قمت إليه فأمرني أن أتبعه، لأجده قد أوصلني لخيمة قائد الجند، بعد أن استأذن منه أدخلني إليه، وقفت بين يديه مضطربًا من هيبته، إلا أنه أمرني بالجلوس على إحدى الوسائد المستديرة أمام منضدته المستطيلة؛ لبّيت أمره مترقبًا حديثه، قبل أن يبادر بنفس جديته وعبوسه: «بلغني أنها أفاقت».

ابتلعت ريقي وأومأت برأسي موافقًا: «نعم أفاقت يا سيدي».

- إذًا هل سألت عن سيدكم وعن إتيانك بها إلى هنا؟

- سألت بعينيها، لكنها لبثت متخوفة من الخلق حولنا.

- وماذا تنتوي إخبارها؟

تلعثمت قبل أن أرد:

«لا أعرف، لم أفكر في الأمر».

انفرج ثغره قليلًا ورد:

«أنا أعرف، أعرف أنها صعبة المراس ولو أخذناها بالشدة فلن تخبرنا عن نفقها أبدًا، لذا عليك أن تنصت لما سأقوله جيدًا ثم تنفذه كما سآمرك، عندها لن أسلمك ابنَيكَ وحسب، بل سأمنحك صك معمرٍ لك ولهما».

أومأت موافقًا بينما تلاعب بي الخوف والأمل ليواصل قائلًا:

«أنتما لا تعرفان أن بلدتكما فاوضت قوات الجنوب على التسليم منذ ليلة البارحة بعدما انقلب الوزير جمال على الحاكم يزن، ووفقًا لما بلغنا اليوم فإنهم سيسلمون لهم بليلة ميلاد القمر الجديد».

أمسك ثمرة فاكهة، ألقاها نحوي فلقفتها، فيما دار بذهني

أن ربما الآن لم يعد لنا فائدة طالما ستسلم المملكة، إلا أنه استكمل حديثه بتحفز:

«غدًا تحل آخر ليالي الشهر، ليلة المحاق، التي تليها لن يظهر فيها القمر، إذًا بقيَت ليلتان غير ليلتنا ثم يسلمون في التي تليهن، أنا أبتغي الدخول قبل قوات الجنوب مستبقًا وصولهم، وعندي لذلك تدبير أنت طرف فيه، كل ما أريد منك قوله لتلك الوافدة، هو أن سيدكم أخبرك قبل مغادرته، أنه لو لم يعد نحو كهفكم خلال يومين، ستكون الحوريات قد أخذته لتعيده إلى أرضه البعيدة، لا تطعن فيه، بل قل ذلك وحسب، ثم تضيف أنك خلال تسللك بالأنفاق عرفت أن بلدتكم ستُسلم لقوات الجنوب فيما لبثت هي تصارع الموت، عندها قررت أن تأخذها نحو أطباء آربوس أملًا في علاجها، فطالما بكل الأحوال ستسقط المملكة وغادر سيدكم ارتأيت أن تنقذها. أريدك أن تظهر بعينيها منقذًا حفظ حياتها وليس خائنًا، من بعدها دع الأمر لي، ولتعلم أنني إن بلغت بلدتكم قبل قوات الجنوب ستدخلها بصحبتي وتحفظ ابنَيكَ قبل أن يعيثون هم القتل فيها، أما لو دخلوا قبلنا قد لا أستطيع إنقاذهما، هل فهمتني؟؟».

أومأت برأسي موافقًا فعقد حاجبيه بشدةٍ واستأنف:

«أما لو شعرت منك بغدرٍ أو خيانة فسأصل إليك وإلى ابنَيك لأذبحهما أمام عينيك وأتركك تذوق وبال فعلك لآخر عمرك، بينما سأتخذ زوجتك جارية بقصري».

أنهى جملته بعينين صارمتين، ثم أشار بيده موعزًا بالانصراف، تحركت نحو خيمتي بذات ارتعادي، لأسمع الجند أمام الخيمات وبينها يحكون بمرحٍ عن آمالهم في العودة إلى بلادهم بعد قرار التسليم؛ تأكد لي أن كلام القائد ليس حيلة، إذًا كما قال، لا بُدَّ أن ندخلها قبل قوات الجنوب، ولا بُدَّ أن تساعدني ميرا من أجل ابنيّ.

بلغت الكوخ فلم أجد المعاون بداخله، أدركت أن ذلك من تدبير قائد الجند حتى تنطق ميرا التي رمقتني بريبةٍ سائلة بصوتٍ واهن: «لمَ جئت بي إلى هنا؟».

أخبرتها بما أملاني القائد كاملًا، لتجهش بالبكاء وتقول: «أنت كاذب، يوسف أخبرني قبل رحيله أنه متجه نحو تلك البقعة بحثًا عن دواءٍ لي ونصرٍ للمملكة».

رددت راسمًا الإشفاق على وجهي: «لقد كان يعرف بعض أسرارهن وربما توقع أن يأخذنه إلى أرضه إذا ما بلغهن، لذا لبث مترددًا في الذهاب نحوهن مخافة ذلك، إلى أن ساءت حالتك وبقيتِ على شفا الموت فاضطر إليهن، لكنه تحسب

لهذا الأمر قبل مغادرته وأخبرني أنه لو غاب ليومين فعلي أن أدرك أنهن أخذنه، لقد خاطر بروحه كي يجد سبيلًا إلى شفائك ونصرًا للمملكة كما قلتِ، لكن يقينًا هن من أجبرنه على الرجوع».

علا نحيبها حين أتممت مقولتي، إلا أن كلامي بدا مقنعًا لها، لم تواصل الاستفسار والسؤال، بل لبثت تنتحب وتنهنه لأمد، ثم واصلت بعدها في بكاءٍ صامت إلى أن غفيت كمدًا وحزنًا، لتمر عدة ساعات قبل أن يوقظها الطبيب وأحد معاونيه عند الغروب، إلا أنها صاحت فيهما أن يتركاها لحالها، بل وصاحت نحوي أيضًا، ليبتسم الطبيب أثناء وقوفه أمامها راسمًا الوداعة على وجهه: «أهذا جزاؤنا يا ميرا لقاء إنقاذنا روحك؟! لا عليكِ منّا، أهذا جزاء هذا الرجل الذي جاءنا مجازفًا بحياته وتوسل إلينا كي نداويكي؟».

نظرت نحوي وهدأت قليلًا ليواصل الطبيب قوله: «إن مملكتكم وافقت على التسليم مع بزوغ قمر الشهر الجديد، لن نؤذيهم طالما سلموا دون قتال، بل ستستمر حياتكم هنا بالأعلى، لكن تحت وصاية مملكتيّ آربوس، وتحت حكم الوزير الحكيم جمال، وربما يكون لكِ دور في العهد الجديد، لم يعد الأمر بعيدًا، صباح غدٍ ستتحرك هذه القوات

لتنتقل ببطءٍ خلال يومين حتى يستقروا آمنين على مقربةٍ من أسواركم، إلى أن تسلموا لمملكة الجنوب عبر البوابة الجنوبية، من بعدها ستُفتح سائر البوابات».

ابتسم مضيفًا: «لا تبتئسي يا ميرا قد ولّت أيام شقائكم».

ثم التفت إلى معاونيه قائلًا: «سنوقف الضمادات الباردة منذ هذه الساعة، لكننا سنواصل تطهير الجروح وإعطاءها دواءها، وما عاد هناك حاجة لبقائكما بهذه الخيمة، فلتأتياها فقط وقت العمل كيلا نثقل عليها بوجودنا».

أنهى جملته وانصرفوا، لتلتفت نحوي ميرا هامسة: «كما جئت بي إلى هنا ستساعدني على الفرار».

لم أعرف بماذا أرد إلا أنني أومأت برأسي موافقًا، فأضافت:

«إذا تحركوا بالصباح مقتربين من الأسوار دون أن يرجمهم جنودنا، سيعني هذا أن كلامهم بشأن تسليم المملكة صادق، سنستغل انشغالهم بجلبة التحرك ثم نهرب مساء غد نحو الأنفاق، كي نبلغ أرضنا بليلة المحاق هذه قبل التسليم، علّني أقنع جمال بالتراجع أو أقتله في سبيل ذلك».

- هل تستطيعين الحركة؟

- إن لم أستطع ستحملني على كتفك.

- ولو لم يفلح فرارنا؟

- عندها يكفينا أننا حاولنا.

أومأت برأسي موافقًا مرة أخرى وبقيت أنتظر غفوتها كي أذهب نحو قائد الجند لأخبره بخبلها، ما إن توغل الليل تملكها النعاس، فاتجهت نحو خيمة القائد وأخبرته بما قالت بينما بقيت واقفًا أمامه، ابتسم حتى لاحت نواجذه، ثم قال مزهوًا:

«هذا ما تأملته، ستوافقها على الفرار، وسأعطي أوامري بتيسير الأمر لكما، ليتبعكما بعض جندنا من بعيد، وينتظركما آخرون متخفين بقلب الأنفاق، فوق كل ذلك ستترك لنا علامات مع كل انحرافٍ لكما إلى أن نبلغ نفقها، ثم تقفز بعض سرية من جندنا بصحبتك إلى داخل المملكة، لتوجههم إلى أقرب درب نحو البوابة الشمالية فتفتحوها، فيما سينتظر قدر من قواتنا متخفين تحت جنح الظلام أمام تلك البوابة حتى تُفتح، وعندها تكون قد أتممت كامل مهمتك».

أنهى مقولته وصاح على حرس الخيمة ليأتيه أحدهم مذعنًا، أمره بالذهاب نحو الطبيب لجلب ما أمر بتحضيره، انصرف الجندي وغاب لبرهة قصيرة قبل أن يعود حاملًا

إحدى زجاجات الطبيب الشفافة، بدا أن فيها مادة تُشبه رمل البحر لكنها أكثر بياضًا، أمرني بموارة بعضها داخل ملابسي على أن تصير علامتي لهم، ثم أمرني بالانصراف حتى لا تلاحظ ميرا غيابي.

عدت نحو خيمتنا لأجدها لا زالت على ثباتها، اضجعت على مرقدي بينما أخذت تتقاذفني الأفكار والشجون، المتفائلة منها والمتشائمة، أتوق لاحتضان ابنيّ وأمهما وأتمنى إنقاذهم، فيما أخشى أن يقع ما يُعطّل ذاك المخطط، بنفس الوقت يدور برأسي ما ينتووه بشأن المملكة، بدا حديثهم عن التسليم الآمن مجرد حيلة، بل يتسابقون على من يدخل أولًا لجمع الغنيمة، لا بُدَّ أنهم يضمرون لها كل الهلاك، لكن ما دامت بكل الأحوال ستسقط، إذن فلأنجو أنا وأهلي، ليس بيدي تقديم المزيد.

في الصباح أفقت على وكزات من ميرا، فتحت عينيّ لأجدها وضعت إصبعها أمام شفتيها موعزة بعدم التحدث، قبل أن تهمس: «هناك اضطراب كبير نتج عن تحركهم من قبل شروق الشمس، لقد ارتحلت أكثرية الخيمات المحيطة بنا ولم يبقَ خارج خيمتنا سوى جندي واحد يحرسنا، استعد لهذه الليلة».

قمت من رقودي معتدلًا فواصلت: «أنا أستطيع الحركة، لا تقلق بشأني لكن تجهز، قد نهرب عند أول فرصة تأتي لنا حتى ولو قبل حلول الليل».

أومأت برأسي موافقًا وبقيت مضطربًا أنتظر المساء، ليمر نهار يومنا متعجلًا دون حديث بيننا، لم يقطع خفوته سوى زيارتين للطبيب ومعاونيه، إلى أن حل الليل شديدًا في سواده، لاحظت سكون الحركة بالخارج إلى حدٍ لم يسبق له مثيل بكل الليالي السابقات؛ أيقنت أن ذلك من تدبير قائد الجند أيضًا، لبثتُ منتظرًا حتى اقتربت مني ميرا على مرقدي وهمست: «حاول أن تُسقط هذا الجندي وتسحبه لداخل الخيمة، سنقيده ونكممه ثم نفر مستبقين قدوم الطبيب مرة أخرى».

أومأت لها بمعنى الموافقة قبل أن أخرج نحو الجندي متسللًا، أحسست أنه شعر باقترابي إلا أنه لم يلتفت خلفه، ضربته على مؤخرة رأسه فرقد في حينه، لنسحبه داخل الخيمة ونقيده مسرعين، ثم انطلقنا نتسلل حتى بلغنا نفس النفق الذي سلكته بصحبة الأمير مالك نحمل شعلتنا مطفأة، أخذنا نركض فيه بينما صرت مندهشًا من عزيمتها وإصرارها، تقاتل حتى آخر رمق، بل بعد الرمق الأخير أظنها

ستظل تقاتل، إلى أن وصلنا تلك البقعة التي أخبرني عندها الأمير أننا صرنا تحت المملكة، عندها أشعلنا نارنا وشرعت ميرا تتلفت يمينًا ويسارًا عندما نبلغ أي مفرق للنفق، ثم تتجه فأتبعها بعد أن أترك من تلك المادة قدرًا ضئيلًا، لم يعيقنا عائق ولم تقابلنا قبائل، حالما لبثت ميرا متعجلة، تتحرك بعزيمة وجلد حتى توقفت بمنتصف نفق وأشارت للأعلى نحو صخرة، بدا أنها تسُدّ مدخل نفقٍ صاعد، لكن قبل أن نحاول زحزحتها، هجم الجند المتربصين علينا، أمسكوا بميرا، وظهر الأمير مالك آمرًا: «خذوها نحو المعسكر».

أخذت تصرخ وتقاوم ممسكيها، إلى أن كبلوها وحملها جنديان نحو المعسكر، ليشرع الجند في إزاحة الصخرة ونجد أن نفقها نُحت في جانبه ما يشبه الدرجات للتسلق، صعدنا واحدًا تلو الآخر ببطءٍ وصرنا نتجمع بداخل منزل ميرا حتى بلغنا ما قارب المائة جندي يقودهم الأمير مالك، فيما أصبحنا بالغسق الأخير من الليل قبل الشروق بقدر ساعة أو يزيد بقدرٍ قليل.

بقعة الحوريات

(يوسف)

انطلقت على الساحل متحرزًا أنظر نحو القمم، إلى أن بلغت البقعة الأولى حيث يضرب موج البحر السفوح، جاوزتها سابحًا دون عقبات، لأصل ساحلًا رمليًا لا يضربه الموج كما وصف ماجد، واصلت سيري فوقه مقتربًا من المنطقة المحظورة، بينما تصاعد بداخلي الرهبة والترقب، وتساؤلات عمّا أنا مفضي إليه، عن ميرا، عن المملكة بالأعلى، وعن إسراء، لكن أكثرها طرقًا لرأسي كانت تساؤلات عن نفسي، عن يوسف.

هل هنا تنتهي قصتي، مَن جئت مِن عالمٍ إلى آخر، حاملًا بداخلي نفس الروح التي لم تتوقف يومًا عن جلد ذاتها، ليدفعني هذا الإحساس دومًا وكأنه يرسم لي قدري؟ فطالما حمّلني شعورًا بالمسؤولية ووخزًا للضمير، طالما كان السبب في تغيير الوجهة وتحديد المصير.

من ثمّ أخذت أسترجع رحلتي التي أوصلتني إلى طريقي هذا نحو الدوامات، وكأنه آخر طريقٍ أسلكه، صرت أناقش حالي، ربما لو لم يلِن قلبي لسيدة الكوخ لما جئت إلى هذه

الأرض، إلا أنني قابلتها أثناء محنة رحيل أمي الطويلة، حين لبثت ألوم نفسي لفقدها دونما أوليها ما توجب من البر والوصل، مرددًا أنها فارقتني ساخطة، وأن سخطها هو من أبعد الدنيا عني، وأنني أستحق هذا العقاب، لكن الحقيقة أنني كنت أعاقب ذاتي إثر صدمة الفقد وإحساس بالتقصير، يومها أحسست لوعة أمي على غيابي قبل وفاتها في حيرة أم إسماعيل على ابنها، لأشعر أنني عندما أولي تلك السيدة برًا، قد أعوّض شيئًا من البر الذي قصّرت في حقه، قد أتحرر من إحساسي بذنبي الذي مكث يأكل روحي، بل اعتقدت أنني لو تركتها سألوم نفسي عليها هي الأخرى، ليصير ذلك سببًا في قدومي لهذا العالم.

ربما أيضًا لو تحررت من شعوري بالمسؤولية تجاه إسراء لتغيّرت حياتي هنا، لطاوعت قادة آربوس الشمالية، وصنعت لهم البارود، ثم سكنت قصورهم مستبقيًا حرفته لنفسي، بل ومن بعد فراري منهم، لو استطعت التهرب من إحساسي نحوها لما وقعت بالشرك الذي نصبوه لي ليدمروا كل ما بنيته، إلا أنني مكثت أحمل فوق صدري همها، أردد على عقلي أنني السبب في مجيئها، على الرغم من أنها صارت ملكة تُدعى مارينا ولها ابن ومملكة.

حتى بعدما وقعت بالشرك وأحيطت مملكة الوافدين، أخذت ألقي اللائمة على نفسي في هذا الحصار، ألست أنا من بنيت تلك البلدة على عاتقي منتشلًا لهم من بين الأنفاق؟ أفإن ضاعت أصير أنا من أضعتها؟ ألا يمكنهم أن يقاتلوا لأجل الحفاظ على ما اكتسبوا، مالي ومال ضياعهم؟ أيجب أن ألقي نفسي بالبحر الآن من أجلهم؟!

أما ميرا، فإنها الوحيدة التي لم أردّ لها دينًا، هي من أنقذت حياتي يوم انتشلتني جريحًا مطاردًا من جنود آربوس، ثم ساعدتني على الفرار من قبيلتها، كذلك يوم خونة الرعاة، وبالأخير حررتني بعد أسري لتقع هي في مصابها، أنا لم أسدد ديون ميرا، إن توجب عليّ أن أحمل مسؤولية أحد، لن يكون سواها.

لكن.. لِمَ أرى الجانب المظلم دون المضيء برحلتي؟ هل كان الأمر جلدًا للذات استتبعه إحساس بالمسؤولية فقط طوال هذا الطريق؟! هل نبع كل ما أديته وما أنا مقبل عليه من شعورٍ سلبيّ بالخطأ وضرورة التقويم، أم أن بالأمر ما هو أكثر من ذلك؟

لِمَ لا أقول أن وقوفي بجوار سيدة الكوخ كان تعاطفًا ورحمة، أنني أحببت إسراء صدقًا حتى من قبل أن نأتي إلى

آربوس، وأن حبي لها هو ما دفعني لكل ما أقدمت عليه من أجلها إلى أن فرّقت بيننا الخطوب؟ كذلك فإن اتخاذي جانب الوافدين المستضعفين كان نصرًا للحق ووقوفًا بوجه الظلم لا يجب أن أنفك عنه يومًا وهو ما يدفعني للمواصلة، كما يجب أن أتيقن من أنني أحببث ميرا الآن، ولست أرد دينًا أو يدفعني إحساس بالمسؤولية أو بتأنيب الذات، بل صرت أتمنى إنقاذها لأكمل حياتي إلى جوارها، إما هنا أو بأخذها إلى عالمي إن قُدّر لي رجوع.

بلى، لا زالت رحلتي تسير بالجانب المضيء، لا زلتُ مواصلًا، أنا يوسف ابن القرية الصغيرة، الذي ترعرع بنية صافية وسريرة سليمة لبثت دومًا مؤشر حياته، أنا مقبل إلى ما أقصده، ليس جلدًا لذاتي ولا تحملًا لأخطائي، بل مقبل لأن مصيري اخترته بيدي، إلى جانب الحق والحب والرحمة، هذا دافعي الأقوم وقدري الذي أرتضيه.

استفقت من سجالاتي عندما بلغت المنطقة المحظورة، بدت مختلفة عن سائر البقع والسواحل، حيث انحنى جانب الجبل عندها للداخل متقعرًا من أعلاه إلى أسفله، وكأنه شكّل نصف دائرةٍ بقلبه، قطرها عشرون ذراعًا فيما يضربها موج البحر مخلفًا دوامات قوية متفرقات، أحسستهن مغايرات

عن سائر الدوامات التي شاهدتها من قبل، أقطارهن أكثر عرضًا، وسرعة دوران الماء فيهن أشد وطأة، ليس من الممكن توقع مدى قدرتها، وهل كفيلة بسحب جسدي إلى أسفل أم أستطيع تجاوزها، كما أنني لم أعرف شكلًا لمدخل الكهف من جهة البحر، ولا كم العمق حتى أصله، هل ألاقيه قريبًا تحت سطح الماء، أم أجده على بعدٍ غائر باعتبار أن يكون الكهف شاهقًا في ارتفاعه من الداخل بينما يغمر الماء قدرًا كبيره فيه أعلى مدخله، حتى يتقارب مستوى الماء بداخله مع سطح البحر بخارجه، فيما يبقى ارتفاع المسطبة بمنتصفه أعلى من هذه المسافة المغمورة، وأيًّا ما ظهر عمق ذاك المدخل؟ هل إن بلغت الكهف ستأتيني الحوريات لديه أم هناك طريقة لاستدعائهن؟

عزمت أمري على محاولة الوصول إلى الكهف كما اعتاد الملوك، أما ما يأتي بعدها فليس بيدي حيلة بشأنه إلا بعد بلوغه، لذا قررت الغوص لأستكشف موضع المدخل أولًا على أن أتحاشى الدوامات قدر استطاعتي، اقتربت منتقيًا جزءًا خلا منها وقفزت إليه غاطسًا بقدرٍ قليل، ثم فتحت عينيّ تحت الماء ناظرًا نحو جانب الجبل المقعر، وجدته مصمتًا ليس به ما يوحي بوجود مدخل، مرت دقيقة وصعدت لألتقط أنفاسي، قبل أن أغوص مجددًا بقدرٍ أكبر وباقترابٍ

أكثر من جانب الجبل، نزلت هذه المرة إلى عمقٍ جاوز العشرة أذرع، لألمح في جانب الجبل كوة دائرية مغطاة بالطحالب البحرية الخضراء، استبشرت لذلك وقررت التراجع للسطح طلبًا للهواء على أن أعود نحوها مباشرةً بالمرةِ التالية، إلا أنني أثناء صعودي، حِدت عن الرجوع العمودي للأعلى بقدرٍ قليل فوقعت في زمام إحدى الدوامات.

لم أدرِ هل شدة الدوامة هي من سحبتني إليها أثناء ارتقائي جوارها أم أن انحرافي كان خطأ مني؟ جاهدت مضطربًا كي أكمل الصعود للسطح أو للانحراف مبتعدًا عنها، لكن بدا أن قوة جهدي مساوية لشدة سحبها نحو أسفل، فأحسست أنني توقفت بموضعي على الرغم من إصراري؛ زاد فزعي وصرت أنتفض مرات ومرات، أضرب بيديّ وقدميّ مغالبًا، أزيد من مقاومتي، إلا أن محاولاتي بدت مجهودًا مهدرًا أخار قوتي، بعدما استنفدت كل ما أملك من هواءٍ داخل صدري، ومن طاقةٍ بأطرافي، لأستسلم مرغمًا بالأخير لنزول جسدي نحو القاع، فيما شعرت بتسرب الماء إلى جوفي، وتسلل الخدر إلى وعيي.

واصلت التهاوي إلى أن اصطدمت بالقاع وسط عشرات الجماجم والهياكل العظمية اللائي تناثرت من حولي، لأجد

أن هناك فجوات متباعدات بقاع البحر، تواصل الدوامات خلالها، إلا أن جسدي علق بصورة عرضية عند مدخل الفجوة التي تكمل إليها دوّامتي، لكني على الرغم من ذلك بقيت أشعر وسط الضباب الذي أخذ يحيط عقلي، أن جسدي لا زال يُسحب نحو أسفل على الرغم من تعلّقه، صرت أخشى أن يتعدل وضعي رأسيًا ثم أنجرف بداخل تلك الفجوة، إلا أنني لم أواصل في تخوفي، فما هي إلا لحظات واكتمل غزو فقدان الوعي لحصون إدراكي، لأغمض عينيّ قصرًا ويمر شريط حياتي مسرعًا داخل أعمق نقطة بذهني، لكني ما رأيت سوى أيامي بهذه الأرض، منذ وقع نظري على الحوريات لأول مرة لدى شاطئ الفنار، مرورًا بكل ما قاسيته، حتى تثبت ذهني لدى مشهد ميرا تصارع الموت، آخر ما رأيته قبل قدومي.

انتفضت عندها لمرة أخيرة فاتحًا عينيّ محاولًا المقاومة، إلا أنني بمجرد أن فتحتهما رأيت وجه إحدى الحوريات أمامي تُحدق بعينيها الزرقاوين في وجهي فيما تلمع لؤلؤة الميلاد بجبهتها، حاولت التراجع فزعًا، لكن بقيَ جسدي مشدودًا لا يقوى على حركة، بينما ظلت ترمقني بلا أي انعكاسات على وجهها، عندها بحركةٍ غريزية وبديلًا عن محاولة التهرب منها مددت يدي نحوها كأنني أستجدي

عونها، لتبادر دون ترددٍ إلى الإمساك بيدي، ثم سحبت جسدي لأعلى، إلا أنها لم تكمل بطريق ارتقائِنا داخل البحر، بل ولجت عبر الكوة المغطاة بالطحالب لنواصل صعودنا داخل الكهف، إلى أن أوصلتني إلى سطح الماء بداخله جوار المسطبة.

أخذت أشهق وأسعل معلقًا يديّ بسطح المسطبة الممتدة نحو نفق ناحية الجبل، حتى التقطت أنفاسي، ثم رفعت جسدي واستلقيت على ظهري فوقها، لبثت في سباتي لدقائق بينما أشعر أن وعيي لم يكتمل رجوعه بعد، إلى أن سمعت صوت حركة بالماء إلى جواري، اعتدلت بصعوبةٍ على جانبي الأيمن، لأرى هذه الحورية في صورة ضبابية، تطل بوجهها أمامي معلقة يدها بالمسطبة، قبل أن تقول:

«ماذا تبتغي يا صاحب الروح الكاملة؟».

رددت بنصف إدراكٍ وبأنفاسٍ مضطربة:

«أريد عون الحوريات».

- إذن انتظر مكانك حتى تختفي الشمس بليلة المحاق، في الليلة السابعة من الآن، وستأتيك ملكتنا.

لم تنتظر ردًا مني بعدما أنهت جملتها، بل اختفت بالماء، ناديت عليها مرارًا بصوتٍ واهن، إلا أنها لم تجبني، فعدت إلى

رقودي على ظهري، ليمر الوقت متثاقلًا دونما أتحرك، بينما أخذت الغيمات تنقشع عن عقلي ببطء، كأنني بهذه الفجوة ما بين الأحلام والحقيقة، صرت كمن يهذي، أسترجع كلام الراعي عن الحوريات وأربطه بما قالته تلك الحورية، لا سيّما قوله إنهن لبثن يقابلن الملوك بليلة المحاق في الشهر الأخير من كل عام، في حين أدرك أننا لسنا بهذا الشهر الأخير بوقتنا، دار بخلدي أنه ربما تستطيع ملكتهن القدوم بليالي المحاق وحدها في كل الأشهر، أما اختيار الشهر الأخير تحديدًا، فكان لتجديد اتفاق سنوي مع الملوك ليس إلا، أو أن تفسيري هذا خاطئ، بل قد أكتشف بعد برهة أنني بقلب منام، ثم أفيق منه لأجد نفسي لا زلت بقاع البحر.

فتحتُ عينيّ وجلًا عندما هاجمني هذا الهاجس، لأتيقن من أنني لا زلت بالكهف، قلّبت نظري يمينًا ويسارًا بينما أتذكر وصف الراعي لبقعة الحوريات، بلى أنا بداخلها الآن، هو نفس الكهف الذي يغمره الماء وذات المسطبة، بينما يتسرب ضوء ضئيل للغاية من ناحية النفق، لكن الغريب في الأمر هو كل هذه الهياكل التي وجدتها بقاع البحر، وأن تلك الحورية لم تبادر لإنقاذي إلا عندما استجديت عونها، كذلك مناداتي بصاحب الروح الكاملة، في الأمر مزيد من الأسرار، إلا أنني تجاوزت الأصعب.

أشد قلقي لبثت أضعه على ميرا، متأملًا أن تقاوم وأن يرعاها ماجد حتى أعود نحوهما، يقينًا سأجد لدى الحوريات من القوة ما يُمكّنهن من علاجها، إلا أن قلبي بقيَ منقبضًا عليها، صرت أناجيها في رقودي النصف واعي هامسًا: «فلتقاومي يا ميرا، حاشاك أن تضيعي الآن مني، لا زالت لنا أيام نقضيها سويًّا».

انتظرت حتى استرجعت كامل وعيي، ثم اعتدلث جالسًا يعتريني استبشار امتزج بترقب، هل بلغت ما لبثت أبحث عنه منذ يوم قدومي؟ هل أجد لديهن كل القوة التي أعوزها لتغيير قواعد هذه الأرض فأصير مثل زهير الأول، بعدها أبلغ طريقًا للعودة نحو عالمي؟ عند نقطة الرجوع قفز وجه إسراء أمامي، كأنه يخبرني أن هناك من ستبتغي مصاحبتي نحو أرضنا إن استعادت كامل إدراكها، بل قد تطالب بوعودٍ قطعتها لها؛ اضطرب قلبي لهذا الخاطر، بل خالطه ذات النسيم البارد القديم، الذي كان يعتريني لدى ذكرها، إلا أنني حاولت التهرب من ذاك الإحساس، موقنًا أنني إن وجدث سبيلًا لاسترجاع ذاكرتها، فلن أتوانى عن هذا، بل وإن لم أجد وبقيت تظن نفسها مارينا، فإن من واجبي -إن بزغ طريق رجوعي- أن أعرض عليها الرجوع إلى أرضها بصحبة ابنها

الصغير تاركين آربوس ومُلكها، وإما تقبل أو ترفض، لكن قبل كل ذلك يتوجب أن أبقى على قيد الحياة لمدة ست ليالٍ.

قمت من جلوسي واتجهت نحو النفق مستكشفًا، إن صح كلام الراعي فإن هذا النفق لم يعلم بموقعه أحد من قبل سوى الملوك، إذًا لن أجد لديه قبائل ولا جنود. تحركت فيه وسط ظلام لم يقطعه سوى ضوءٍ تسلل من شقوقٍ ضئيلة بأعلاه لا ترتقي لأن يطلق عليها أخاديد، لكني لم أقابل خلاله أي مداخل أنفاق متشعبات، كدت أفقد الأمل في أن ألقى جديدًا بعد مسيرٍ قدر ساعة، إلى أن سمعت هدير مياه، أكملت خطاي متحفزًا نحو الصوت حتى بلغت كهفًا على الجانب الآخر من سلسلة الجبال، وجدت عنده شلالات بحيرة بالميري تنساب أمام منفذه، حيث على الكهف موضع ارتطام الماء بنهر جودي بقدر عشرة أذرع فقط، أدركت أن هذا هو الطريق المنقوش على الحائط الشمالي بكهف ميرا، وهو نفس الطريق الذي سلكه الملوك، اقتربت إلى أن ملأت كفيّ بالماء، أخذت أرتوي بعد طول عطش قبل أن أجلس لبرهةٍ في موضعي، أراقب مشهد الشلالات الساحر.

انتويت أن تكون إقامتي بهذا الكهف، على أن أزور كهف الحوريات بين الفينة والأخرى في انتظار حلول الموعد،

لتنقضي الليالي وأنا أتغذى على الطحالب التي تطفو عند بقعة الحوريات، وأشرب من شلالات بالميري إلى أن بلغنا اليوم المنتظر. بيومها بقيت منتظرًا فوق المسطبة منذ انتصاف النهار، حتى أحسست بجلبة في الماء بعد الغروب، اعتدلت واقفًا لتمر ثوان قبل أن تطل إحدى الحوريات برأسها، فيما أمسكت بيدها حربة طويلة ارتكزت في مقدمتها لؤلؤة بحجم قبضة اليد تشع نورًا أضاء ما حولنا، ثم برزت رؤوس عشرات الحوريات حول المسطبة، شكلن نصف دائرة من حولي، بَدَوْنَ متشابهات بقدرٍ كبير، شعورهن صهباء وأعينهن زرقاء، فيما استقرت لؤلؤة الميلاد بأعلى جبهة كل منهن، أعقب ذلك أن ظهر عرش ذهبي من تحت الماء، حمله فوق الأكتاف من بدوا حيوانات لها رؤوس مثل فرس النهر، استقرت فوقه ملكتهن التي علا رأسها تاجٌ أبيض، فيما غطّى صدرها إلى السُرة ما بدا لباسًا معدنيًا، وامتد ذيل مخملي أخضر من تحت السُرة بقدر ثلاثة أصابع إلى أن انتهى عند مفرق الذيل، بدت أكبرهن سنًا لبزوغ طلائع تجاعيد بوجهها إلا أنها كانت أكثرهن جمالًا، نظرت نحوي طويلًا تتفرسني، لأبادر واثقًا كأنهن جئن لتلبية أوامري، وقلت:

«هناك فتاة بأحد الكهوف المطلة على البحر، أرجو أن تساعدنني على إنقاذ روحها، قبل أن تُعِنّني على نجدة مملكة

الوافدين».

ابتسمت بزهوٍ قبل أن ترد بثقة:

«لقد طلبت عون الحوريات، لذا حق علينا تلبية ندائِك لاكتمال نبوءتك، لكننا لم نعقد معك عهدًا كي تطلب، إلا أنني سأرحم تلهفك، من تسأل عنها لم تعد بكهف زهير الذي مكثتم فيه، بل أخذها جند آربوس محمولة فوق محفة، دع عنك أمرها فلقد داووها، وانظر في أمرك ومطلبك، أما مطلبنا في المقابل، فلم يحِن وقت الإفصاح عنه، ستوافق عليه قبل أن تعرفه».

عقدت حاجبي مذهولًا من قولها عن ميرا، ومن تلك الألغاز التي نطقت بها، إلا أنني تمالكت حالي وسألت:

«ماذا تقصدين بالعهد وما هي النبوءة؟».

زادت ابتسامتها:

«إن هذه الجزيرة ليست جمادًا مُطلق كما تظن، بل ربما هي كائنٌ حي له روح وقدرة، أو ربما هي مزيج من الجماد والحياة، إنها آربوس، أرض ميلاد الحوريات، التي لا يمكننا مخالفة قواعدها، أما أنت، على الرغم من تفردك إلا أنك لم تعرف شيئًا بعد عن أسرارها، كل ما ألممت به هو المتاح نقله

بين الخلق هنا، حتى زهير لم يُسمح له بذكر كل ما أدركه، كذلك لم تسري عليك أي من تلك القواعد حتى ساعتنا هذه، وما دمت قد جئت إلينا طالبًا العون والقوة، كاسرًا لحدود علم الخلق من حولك، فسنمنحك كل ما ترغب في مقابل ما نبتغي منك، ذلك وفقًا لعهدٍ بيننا لا ينعقد إلا بعد اكتمال علمك بقواعد آربوس وأسرارها، لكن يجب أن تعرف أن عهدك معنا الذي يقتضي إحاطتك بتلك القواعد سيجعلها تسري في حقك وتنطبق عليك إذا ما خالفت عهدك، فتفقد روحك بنفس الطريقة التي يموت بها من يطلقون عليهم وافدي البحر عندما يُتمون سنواتهم السبع إذا نكثت اتفاقنا، لذا لتعقد أمرك إذا ما رغبت في المواصلة أو انصرف عنا الآن بلا رجعة، لأنك إن اطّلعت على القواعد فلا مجال للتراجع عن إتمام العهد بعدها».

تلجلجت للحظات قبل أن أرد:

«وأنا مستعد لتلك القواعد متحملًا لعواقبها إذا كانت طريقًا لما أبتغيه، ولنبدأ بسر النبوءة».

زالت ابتسامتها وردت بوجومٍ كسا وجهها:

«يتلخص أمر النبوءة في أننا لا نلبي إلى نداءٍ بهذه الأرض سوى لمن جاؤوها من العالم الحقيقي محتفظين

بأرواحهم كاملة، دونما تسري عليهم قواعد القدوم لآربوس، هم وحدهم من يملكون منح القبس لنا كي نستطيع تبادل العطاء، لكننا لا نعقد عهدًا مع من نلبي إليهم إلا لو أثبتوا منعتهم وسط الخلق قبل أن يأتونا إلى بقعتنا، وأنت صرت أحد ملوك هذه الأرض الثلاثة، لذا لبينا نداءك عندما جئتنا، أملًا في المنفعة لكلينا».

حاولت التركيز في كل ما تنطق، لذا أعدت قولها مفسرًا له:

«إذًا أركان النبوءة أن يأتي إلى آربوس من لا تسري عليه قواعد القدوم من حيث العمر والذاكرة، بمعنى ألا يكون غريقًا اجتذبتموه مثل وافدي البحر، من ثمّ تصير له قوة على هذه الأرض كما أصبحت ملكًا لمملكة الوافدين، وتكتمل الأركان بقدرته على الوصول إليكن مثلما وصلت، ثم يُطلع على أسرار آربوس وقواعدها ليتمم العهد معكن».

أشارت برأسها موافقة بتثاقل، لكني أحسست في ذلك بشيءٍ من التناقض مع كلام الراعي عن مقابلتهن للملوك المعمرين من بعد زهير الأول، لذا عقدت حاجبي مستفهمًا وسألت:

«لكنكن لبّيتُن إلى الملوك المعمرين من بعد زهير الأول، فهل هم مثلي؟ وهل يملكون منح القبس الذي ذكرتيه؟».

انتاب وجهها عبوس، لأدرك أنني ذكرتها بمصاب خيانتهن من قِبل أحد الملوك إلا أنها لم تطل التقطيب وردت قائلة:

«ليس معنى أن المعمرين يعيشون أعمارًا طبيعية أنهم مثلك، هم أبناء الوافدين ويخضعون لبعض قواعد آربوس دون بعضها، ولا يحتفظون بأرواحٍ كاملة مثلك، فلا يملكون منح القبس، دليل على ذلك، أنك يمكنك مغادرة آربوس نحو عالمك مرة أخرى من خلالنا أو إن استطعت لذاك سبيلًا دوننا، لكن لم يحدث من قبل أن غادر أحد المعمرين، وفقًا للقواعد التي نعرفها فإنهم إن غادروا نحو العالم الحقيقي يفقدون أرواحهم، وهم بهذا لا يملكون أرواحًا كاملة، أما لقاؤنا مع الملوك الذين ذكرتهم بليلة المحاق الأخيرة من كل عام، فقد كان استنادًا لاتفاقٍ ارتضيناه مع زهير، نُص فيه على تجديد العهد كل عامٍ مع ورثته من بعده، نحن لم ننشئ عهودًا جديدة مع خلفه، ولم نلبي لهم نداءً جديدًا مستقلًا، كنا فقط نُديم عهد زهير، بل لم يحدث أن طلبوا عوننا ولو لمرة من بعد زهير حتى وقعت خيانتهم لنا، ومن خانوا لم تعاقبهم آربوس على غدرهم، لأن المعمرين كما أسلفت يخضعون لبعض قواعد آربوس دون بعضها، بينما لم يكن الخونة هم أصحاب العهد الذي نقضوه بل سلفهم زهير،

ولم يضطلعوا على سائر الأسرار مثله، بل عرفوا بموضع بقعتنا، وبتفاصيل اتفاقنا مع زهير وحسب، ولقد حاول بعض ملوكهم المعاودة لنا بعد نقض العهد بعقود طويلة يبغون قوتنا من خلال عهدٍ جديد لكننا ما قابلناهم، لذا توقفوا عن المحاولة من بعدها ولم يأتِ أحد منهم منذ سنين طوال حتى تناسونا ونسيناهم.

تذكرت ميرا وأنها من وافدي الجبال، من لبث حكام آربوس يعتبرونهم زورًا كوافدين، بينما هم معمرون دون صكوك، لذا يقينًا ستسري عليها قواعد المعمرين الخاصة بروح آربوس ولن تنتقل إلى عالمي، إلا أنني تجاوزت التفكير في ذلك إلى حين، ثم أشرت برأسي متفهمًا وأضفت:

«وهل جاء إلى هنا من هم مثلي ومثل زهير؟».

- جاء القليل إلى آربوس وفقًا لظروفٍ مختلفة، لكن لم يستطع أحد منهم بلوغ موضعك هذا سواك أنت وزهير.

- إذًا لم جئتن بهم إلى آربوس وهم ليسوا غرقى؟

- كما أسلفت لك، ظروف مختلفة، سيدة الكوخ التي أتيت إلى هنا بصحبتها حاولت أن تُغرق نفسها بالبحر، بعدما فقدت الأمل في الوصول إلى ابنها الذي جيء به

إلى آربوس إثر غرقه، رقت لحالها إحدى أميرات عشائرنا، وبنفس الوقت كانت هذه الأميرة تعاني من إصابات بالغة سببها هجوم العوالق عليها، بل وإن هاجمتها مرة أخرى يقينًا لم تكن لتنجو أبدًا، تلك العوالق ما هي إلا كائنات طفيلية لا ثُرى، تنتشر بكثافة عند منافذ المرور بين البحر المتوسط الذي تعرفه، وهذا الجزء منه المحيط بآربوس والمعزول عن عالمكم، هذه العوالق تتغذى على لحومنا أثناء مرورنا عندما تُفتح المنافذ كل ليلة، فيما نحاول دومًا تحيّن الفرص للإفلات منها، نصيب بمرات ونُخطئ بأخرى، نصاب أحيانًا بجروحٍ طفيفة، وأحيانًا تزهق أرواحنا بسببها، لكنها حساسة لأضوائكم المصطنعة، لا تطيقها وتهرب منها ما إن تراها ثم لا تعود أبدًا بليلتها، بقيَ أن تعرف أن منفذ العبور لعشيرة هذه الأميرة يقبع قريبًا من شاطئ الفنار الذي جئت من لديه، لأن كل عشيرة منا لها منفذها ونطاقها بالبحر المتوسط، وضوء الفنار القديم بأيام دورانه كان يصل عند هذا المنفذ، لأنه أكثر طولًا من ذاك الحديث، لذا كانت العوالق تهرب من ضوئِه، ليصبح ذلك المنفذ أأمن المنافذ على الإطلاق، بل ظلت تلك العشيرة محظوظة لوجوده لدى نطاقها، إلى أن تعطل الفنار القديم منذ سنوات، فانقلب حظهن، لأن العوالق عند هذا المنفذ صارت من أشرس العوالق، لدرجة أن حوريات تلك

العشيرة لبثن لسنواتٍ لا يستطعن اجتذاب غرقى من شدة شراسة العوالق بمنفذهن، صرن بالكاد ينتقلن بين العالمين، وكما أسلفت، أثناء وجود سيدة الكوخ لدى الشاطئ تبحث عن ابنها، تعرضت الأميرة لهجوم العوالق أثناء انتقالها من آربوس إلى عالمك، وكانت تبتغي العودة عاجلًا للاستشفاء هنا، إلا أنها لبثت تخشى هجومًا جديدًا من العوالق ينهي حياتها أثناء عودتها، لذا اتفقت مع سيدة الكوخ على أنها لو أدارت الفنار ستأخذها إلى ولدها بآربوس، حتى يُبعد دوران الفنار العوالق، فتعود الأميرة في أمان، أما أنت ومصاحبتك قد شهدتما اتصالًا حقيقيًا جرى بين أحد البشر والحوريات، لذا وجب ألا تنقلا ما رأيتما.

ما إن أتمت حديثها، تذكرت مقولة إحدى الحوريتين اللتين أخذانا أنا وإسراء بعدما سحبت أميرتهن أم إسماعيل، لمّا قالت لمصاحبتها أن أم إسماعيل أوفت بنذرها مع أميرتهن وأدارت الفنار الذي سيُبعد العوالق، وقتها لم أفهم مغزى تلك الجملة لكني أدركت تفسيرها الآن، وبدأ يتضح لي أن هذه الحوريات لا تمنح بلا مقابل، فزادت رغبتي في معرفة كل ما أستطيع استبيانه منهن، كي أبقى على استعدادٍ لما أنا مقبل عليه، لذا جلست ضامًا ركبتي إلى صدري محيطهما بذراعيّ فيما ارتكزت بذقني فوق فاصل الركبتين موليًا وجهي

نحوها، قبل أن أعلن مكنون صدري قائلًا:

«يبدو أن الأمر بين سيدة الكوخ وهذه الأميرة لم يكن تعاطفًا كما قلتِ، بل تبادل منفعة، كما أعتقد أن هذا التبادل هو ما يسري على سائر علاقاتكن، لكن لم تأتين بالغرقى إلى هنا بلا مقابل ليصبحوا وافدي البحر؟ وهل يكونون أمواتًا أم أحياءً لحظة اجتذابهم؟».

لم تظهر أي انعكاسات على وجهها بل ردت بثبات:

«نحن نأتي بهم بعدما تنقطع أنفاسهم بالماء، لا ندرك وقتها هل فارقتهم أرواحهم الأصلية أم لم تفارق، هذا ليس من علمنا، لكن عندها تقترب الحورية من الغريق، حتى تضع شفتيها فوق شفتيه، لتعطيه قبسًا من روحها في هيئة أنفاسها ولعابها، فيفتح عينيه ويفقد ذاكرته القديمة ثم يغلقهما من جديد، لتسحبه إلى شواطئ آربوس، ناسيًا كل ما مضى، فتُمنح تلك الحورية إحدى لآلئ الميلاد وهذا هو المقابل. في أساطير عالمك الحقيقي يقولون أن من يُقبّل الحوريات يفقد ذاكرته، وهذا له أصل من الحقيقة، لكن من يُقبّلهن لا يعود».

زممت شفتيّ مضيقًا ما بين حاجبي ثم سألت:

«ما معنى لؤلؤة الميلاد وكيف تصبح مقابلًا لاجتذاب الغريق؟».

- لؤلؤة الميلاد هي سبيل التخصيب لدينا حتى نتكاثر، مثل مني الرجال عندكم، لكنها تستقر لدينا بأعلى منتصف الجبهة عند تشكل الجنين كما تراها في كل منّا، وروح آربوس لا تمنح لؤلؤة الميلاد لأي منّا بل لمن تأتيها بجسد غريق وحسب، هي علاقة تبادل بيننا وبينها، غريق يقابله لؤلؤة ميلاد. ما إن تلفظ الحورية ذاك الغريق الذي أتت به على الشاطئ هنا، تمرر روح آربوس لؤلؤة ميلاد من نهر جودي، من عند ذكورنا الذين يسكنون أعماق النهر، عبر نفقٍ ضيقٍ للغاية -بالكاد يسمح بعبور اللؤلؤة- يمر أسفل موقعنا هذا من الجبال فيصل قعر النهر بالبحر، مثل النفق الذي يصل ما بين بقعتنا هذه والكهف المطل على الشلال، لكن نفق الميلاد يقع أكثر عمقًا بقدرٍ كبير، وقتها تنزل الحورية التي أحضرت الغريق نحو تلك الفجوات اللائي تكمل إليها الدوامات، التي رأيتها عندما كنت تصارع الغرق، هناك تجد لؤلؤة الميلاد الممررة وتلتقمها، تحملها في رحمها لسنواتٍ سبع، طوالهن لا يتشكل الجنين، بل تنبت حول اللؤلؤة أهداب بيضاء متتابعات، لكل عام أهداب أطول من العام الذي يسبقه، إلى أن تكتمل السنة السابعة فتدب الروح باللؤلؤة

ويبدأ تشكّل الجنين من بعدها على مدار عامين آخرين حتى تضعه، وبنفس اللحظة التي تدب فيها الروح باللؤلؤة بعد تمام السنة السابعة، تنخلع الروح عن الغريق الوافد، الذي جاء مقابلًا لهذه اللؤلؤة؛ تقطع عنه روح آربوس الهواء وكأنه يصير بداخل فقاعة شفافة مفرغة، يشهق إلى أن تفارقه الروح.

أحسست أن عقلي لم يستوعب كل ما قالت، صرت أراجعه بذهني محاولًا الفهم، لكن ما ازداد يقيني بشأنه، هو أن هذه الحوريات تعيش على تبادل المنفعة مع كل من يتعامل معه، لذا واصلت استفساري:

«على ذلك فإنكن لا تتركن آربوس إلا لاجتذاب الغرقى؟».

لم تنفك عن ملامحها الباردة، التي لا تكسوها أي مشاعر، فيما ردت: «إن هذه الجزيرة هي أرض الميلاد لنا كحوريات حيث نتلقّى لآلئ الميلاد كما ذكرت، كما أنها أرض الاستشفاء، تطيب جروحنا أسرع إن عدناها، بالإضافة لأننا نأتيها بأيام المخاض لننجب فيها، هذا ما نعرفه منذ أسلافنا من الحوريات الإناث، إلا أن أسلافنا لم يفكرن أبدًا في محاولة بناء حياة بالخارج، عشن بآربوس ولم يعتدن مغادرتها إلا لاجتذاب الغرقى والعودة بهم كما قلت، لكن مع مرور القرون

بنينا حياة لنا بالخارج في عالمك الواسع، شيّدنا مملكة بأعماق البحر المتوسط، جربنا أن نقوم بالإنجاب في الخارج وفلحنا في ذلك، إلا أننا لا زلنا نستشفي بشكلٍ أسرع هنا، كما أننا لا نتكاثر إلا بأخذ لآلئ الميلاد من هنا أيضًا، لأن ذكورنا يعيشون بأعماق نهر جودي لا يغادرونه، حيث لا يطيقون ماء البحار الأجاج مثلنا، إن غادروا النهر تزهق أرواحهم، وهم يقذفون منيّهم كل شهرٍ على مقربةٍ من مهبط شلالات بالميري عند منبت نهر جودي، تتلقفه محارات رابوسا، تغلق عليه فكوكها الصدفية، لتمر شهور قبل أن تتكون لؤلؤة ميلاد بداخل كل محارة منهن، ثم تهلك المحارة وتبقى اللؤلؤة، هناك مئات الآلاف من لآلئ الميلاد بالنهر قُرب مهبط الشلال، في بقعة دواماتها مثل تلك الدوامات التي صارعتها، لا يفلت منها بشر إذا وقع فيها، وكما أخبرتك، لا تمرر روح آربوس اللآلئ إلا وفقًا لشروطها، فإن أنجبنا ذكرًا نذهب به عند حد نهر جودي لنمرره إلى الذكور، هذا الحد هو حاجز صخري يقع قبل مصب النهر إلى البحر بأقصى شرق آربوس، يمتد من القاع لأعلى بعرض النهر كله، بينما تختفي قمته تحت سطح النهر بقدر ذراعين، هو مثل سد طبيعي يمنع جفاف نهر جودي وذهاب مائِه إلى البحر بسنوات الجفاف، أما إن صار المولود أنثى فنستبقيها معنا».

دار بذهني أنني على وجه اليقين، لم أكن أعرف إلا قشورًا عن أسرار هذه الجزيرة وما يجري فيها، إلا أنني حاولت التركيز على باقي استفساراتي بشأنها، أكملت مضيفًا:

«وما سر امتداد السنوات السبع للغرقى أو من يدعونهم هنا وافدي البحر، إذا ما قتلوا من هم أصغر منهم سنًا بهذه الأرض؟».

- إذا جئنا بغريق أو وافد من البحر كما يدعونهم هنا، وحملت الحورية لؤلؤة الميلاد التي أخذتها مقابل إتيانه لدى أعلى نقطة برحمها، فإن هذا الوافد لا تنقطع عنه الأنفاس إلا بذات اللحظة التي تدب فيها الروح باللؤلؤة عند اكتمال السنة السابعة كما أسلفت لك، كذلك لا تدب الروح باللؤلؤة إلا بموت الوافد في ميعاده بعد تمامه الأعوام السبع، هما أمران مرتبطان وجودًا وعدمًا، كأن الحورية تسترد قبسَ روحها الذي منحته للغريق ليعود هذا القبس نحو لؤلؤتها بعد تمام الأعوام السبع، فيموت الوافد وتدب الروح بلؤلؤة الميلاد، لتبدأ في التشكل من بعدها لعامين كي تصير جنينًا مكتملًا، لذا لو أقدم وافد كبير بسنته الخامسة مثلًا ولم يبقَ في عمره سوى سنتين، على قتل وافدٍ آخر صغير بعامه الأول ويتبقى من عمره ستة أعوام، فإن الحورية التي جاءت

بالوافد المقتول ذي العمر الصغير، تلفظ لؤلؤتها بعدما تزهق روح الوافد المعلقة بتلك اللؤلؤة، لأنه ما عاد هناك أمل في اكتمال حملها بقتل ذاك الوافد، حيث أنه لن يُكمل للسنة السابعة، بالتالي لن تدب الروح بلؤلؤتها كي تواصل وتصبح جنينًا، لكن هذه اللؤلؤة الملفوظة التي لم تستقر في رحم من لفظتها سوى عامٍ واحد ولم تتكون حولها إلا أهداب العام الأول، لا تُلقى إلى العراء، بل تلتقمها الحورية التي جاءت بالقاتل ذي العمر الأكبر، كي تبوء بذنب من أحضرت، فتستقر اللؤلؤة الجديدة ذات الأهداب الأقل كثافة بأعلى الرحم عندها، فيما تغوص القديمة إلى أدناه وتتوقف عن اكتساب الأهداب، ولؤلؤة أعلى الرحم هي لؤلؤة الميلاد لأنها هي ما تستقر بجبهة الجنين عند تمام تشكله، وهنا تتعلق روح القاتل ذو السنوات الخمس -قبل إقدامه على القتل- بتلك اللؤلؤة الجديدة التي لم يمضِ في تكونها سوى عام واحد ولم تُحطها سوى أهداب العام الأول، كذلك تتعلق روح الجنين الذي سيبدأ التشكل بعد موت ذاك الوافد بتلك اللؤلؤة الجديدة، وهي لؤلؤة بقيَ في تكونها ستة أعوام، لذا يتبقى في عمر القاتل ست سنوات جديدة، ويمتد حمل الحورية لست سنوات مثلهن، فإن أكمل هذا القاتل الأعوام الستة دون قتل تنخلع عنه الروح عندها وتدب الروح في

اللؤلؤة، أما لو عاش ذاك القاتل مثلًا لأربعة أعوام أخرى ثم قتل مجددًا من هو أصغر منه، يتكرر الأمر وتنزل القديمة إلى قاع الرحم حينما تبتلع الحورية تلك اللؤلؤة الجديدة لتتعلق بها روح الجنين وروح القاتل، قد تعيش حورية لسنواتٍ طوال تخزن لآلئ برحمها فيما يقتل الوافد الذي جاءت به أول مرة، أما في الحالة العكسية، على سبيل المثال: أن يقتل من مر على قدومه هنا سنة واحدة وافدًا آخر مر على قدومه ست سنوات، فإنه يحدث نفس الأمر، تلفظ الحورية التي جاءت بالمقتول الكبير لؤلؤتها ذات الأهداب الثقيلة التي تكونت على مدار ستة أعوام، لتلقفها الحورية التي تحمل لؤلؤة لم يمر على استقرارها سوى سنة واحدة، إلا أن اللؤلؤة الأثقل ذات الأهداب الأكثف هي من تسقط إلى قاع الرحم بينما تبقى اللؤلؤة الأحدث معلقة بأعلاه، وكما قلت لك، فإن لؤلؤة أعلى الرحم هي لؤلؤة الميلاد، لذا يبقى القاتل الصغير على عمره لأن روحه وروح الجنين لا زالت معلقة باللؤلؤة الأحدث الموجودة بأعلى الرحم، لهذا، إن قتل من هو أصغر سنًا وافدًا آخر أكبر منه لا يمتد عمر القاتل بتلك الحالة، وهذا كله لا ينطبق على حالة الوفاة القدرية، فلو جاء وافد ومات بعد ثلاثة أعوام ميتة قدرية، بأن سقط حجرًا على رأسه مثلًا، عندها ستلفظ الحورية لؤلؤتها إلى الخلاء حيث

لم يبقَ أمل في اكتسابها الروح، كما لو قام معمر بقتل وافد فسئلفظ أيضًا اللؤلؤة إلى العراء، وإن قام وافد بقتل معمر لن يمتد عمره لأنه لا يكتسب لؤلؤة جديدة، الأمر كله يدور في نطاق قتل الوافدين لبعضهم وتحرك اللآلئ بين حامليها من الحوريات، أما المعمرون لا تسري عليهم هذه القواعد الخاصة بامتداد العمر ولا تتعلق أرواحهم بأجنتنا، لكنهم كما قلت لك يبقون ليسوا مثلك، ويقينًا سيفقدون أرواحهم التي اكتسبوها إذا ما غادروا هذه الأرض لأنها أرواح مجتزأة.

هنا شعرت أن رأسي توقفت عن العمل، كل ما استنبطته من هذه الدورة أن قتل الوافدين لبعضهم البعض يُحدث اضطرابًا في تكاثر الحوريات، لم أحاول تفسير الأمر كثيرًا وسألت:

«ماذا عن عهدكن مع زهير وبماذا أعنتُتّه؟».

- لمّا تقاتل الوافدون قديمًا في عهد القبائل على امتداد الأعمار، حدث عندنا نحن معشر الحوريات اضطراب كبير في التناسل، إثر ما شرحته إليك عما يحدث في حالة القتل، ذلك بأن استمر حمل بعض الحوريات لسنواتٍ طوال لا سيّما أن أعمارنا أضعاف أعماركم، وأخريات لم يستقر لهن حمل، بنفس الوقت عندما جاء زهير إلى آربوس واعيًا مثلك، لم

يرتضيه هذا التناحر والصراع، أخذ يجمع الخلق من حوله مغالبًا المخالفين، ينتصر بمرة ويُهزم بأخرى إلى أن تعرض لخسارة مفجعة بإحدى معاركه كادت أن تودي بحياته، اعتزل جماعته من بعدها وصار يبحث عنا عبر مخارج الأنفاق المؤدية للبحر، مبتغيًا العودة نحو عالمكم، بلغ كهفنا هذا ذات مرة من جهة النفق واستغرب لأمره، إلا أنه لم يصبر حينها لنبزغ إليه، بل أكمل تنقيبه خلال مخارج الأنفاق الأخرى، ليتحول بالأخير نحو الساحل مكملًا بحثه، حتى التجأ إلى ذات الكهف الذي بلغته أنت ومصاحبتك قبل مجيئك إلى هنا، ثم واصل تفتيشه على شاطئ البحر إلى أن بلغ البقعة من جهة الساحل، راوده شعور بتفردها وأنها مقابلة لموقع الكهف هذا الذي استغربه حين بلغه، لكنه لم يسرع إلى محاولة الغوص مثلك، بل عاد لكهف مصاحبتك آخذًا في الرسم على جدرانه، كأنه يثبت لنفسه أن هذه البقعة بها أمر مميز، أو لأنه أراد أن يترك رسالة لمن يأتي بعده، قبل أن يبادر إلى الغوص مثلما غصت ويلقانا، طلب منا اصطحابه لأرضه إلا أننا فاوضناه على أن نعينه من أجل بسط سيطرته على بر آربوس، كي نوقف النزيف على أرضها وليستقر تكاثرنا من جديد، من بعدها نُخيّره ما بين العودة إلى عالمه أو الاستمرار هنا؛ ارتضى ذلك فأعناه، وبديلًا عن رغبته في

الرجوع عقب فرض نفوذه، طلب البقاء على أن يُجدد العهد بيننا وبين أولاده من بعده، عهدنا تمثل في نصوص زهير الأولى، التي منعت أي وافد أن يقتل وافدًا آخر، وإمعانًا في الزجر تم النص على أن يُعاقب الوافد من البحر الذي يمتد عمره فوق السنوات السبع بالقتل، لأن هذا يعد قرينة على قتله غيره، فيما نبقى نحن معينين له ولأبنائه إن تطلب عوننا، حتى حدثت خيانة أحد خلفه وانفض العهد.

هنا عدت إلى وقوفي أمامها ثم سألت عاقدًا حاجبيّ:

«وكيف أعنتُتّه؟».

ردت بتلقائية: «بواسطة الزورجولات».

- وما هو الزورجولات؟

- إن الحورية التي تلتقم في رحمها أكثر من لؤلؤتين، أي إن أصبحن ثلاث أو أكثر، فكما أسلفت لك، تبقى لؤلؤة الميلاد وحدها بأعلى الرحم أما البقية ينزلن إلى أدناه متوقفين عن اكتساب الأهداب، لكن بعدما تدب الروح في الجنين، وأثناء تشكله على مدار العامين الأخيرين من الحمل، تتفتت تلك اللآلئ اللائي استقررن بأسفل الرحم ليصيرن نواة لعظام الأرجل، ثم تكسى تلك العظام باللحم ليصبح للحورية نصف

سفلي مثلكم، تولد به تحت الذيل، إلا أنهن طالما يعشن بالبحر فلا حاجة إلى السيقان والأقدام، يتحركن مع الذيل وحسب، إلا أن ذيولهن أكثر قوة من سائر الحوريات، بينما يبقى في الإمكان شق الذيول واستخدام النصف السفلي إذا ما تهيأت الظروف لذلك، بأيام الاقتتال هنا فوق بر آربوس قبل قدوم زهير، زادت أعداد الزورجولات بيننا مثلما يكون تمهيدًا عندنا لتقديم العون لمن سيأتينا يومًا، كأنه نفس التوازن الذي تفرضه روح آربوس دومًا، لما جاء أعناه بألف من هؤلاء الزورجولات، نجح بمساعدتهن في بسط نفوذه لا سيّما مع قلة الخلق وقتها، أما بعدما مرت السنون وتوسعت المملكتان بآربوس، وصارت تدور بينهما الحروب فيما يُقدّمان الوافدين بمقدمة جيشيهما؛ كثرت الزورجولات لدينا أكثر من أي وقتٍ مضى، لذا يمكننا أن نمدك بثلاثة آلاف منهن بصحبة عتادهن.

سمعت الرقم فبدأ الأمل يدبدب بقلبي، لذا سألت متلهفًا:

«هل يستطعن القتال؟».

ابتسمت بزهوٍ:

«إن الرامية منهن بقدر عدة من خير رماتك، إن لنا معاركنا بجوف البحر وأشد شراسة مما عندكم، سيكن كفيلات

بنصرك، إذا ما أحسنت قيادتهن وتوجيههن».

- وما المقابل لذلك؟

- قديمًا استطاع زهير أن يُخضع الأرض كلها تحت يده، ثم وضع القواعد التي أمليناها بواسطة ألفٍ منهن، ليستقر تناسلنا لعقود وتستتب الحياة ببر آربوس، الآن سنعطيك ثلاثة آلاف لكننا لا نضمن أن توحد الأرض من جديد، بل إن توحدت لا نتيقن من عدم انقلابها بعد ذلك، هذا لكثرة الخلق واتساع الممالك، عهدنا معك أنك ستتزوج إحداهن من الأميرات، من ستمنحها القبس الأول لتنقله إلى مصاحباتها من الزورجولات، من ثمّ لن تعقد أمرًا بشأن الحكم إلا باتفاقٍ معها، إلى أن تُخضع نصف بر آربوس تحت يدك على الأقل، فيصبح بإمكانك تنفيذ ما نطلب، عندها ستخبرك الأميرة مطلبنا، أو قد تتركك لتوحد الأرض كلها قبل أن تطلب، هذا وفقًا لما ترتئيه من عملك وتقدمك، وما إن تقضي حاجتنا، إن أردت الرجوع لعالمك سنعيدك إليه.

هنا لاح ترددي ودهشتي للحظات إلا أنني سألت مستفهمًا:

«ما مصير تلك الزوجة إن عدت إلى عالمي؟ وهل لي أن أصطحب معي أحدًا غيرها نحوه؟».

- مصير زوجتك سنقرره لاحقًا، عقب إتمامك ما نطلب، كما لك أن تصطفي فردين خلال انتقالك نحو عالمك كما جئت بصحبة اثنين، لكن مثلما تعرف، روح المعمرين لا تنتقل إلى هناك، سيصير في ذلك هلاكهم لا محالة إن أصررت على طلبك، أما بشأن رفيقتك التي جاءت من هناك معك فأمرها علينا هين.

- إذًا لي سؤال أخير، كيف يُفقدون الخلق الذاكرة إذا ما أرادوا؟

- إن قطرة من ريق الحوريات هنا على أرض آربوس كفيلة بإفقاد الذاكرة دون أن يتعلق ذلك بالروح أو القواعد، ويسري ذلك على المعمرين والوافدين وحتى أصحاب الروح الكاملة.

- وهل يمكن أن تعود تلك الذاكرة؟

- ما يذهب لا يعود.

توقفت أمامها للحظات أنظم أنفاسي قبل أن أقول:

«إذن لنتمم العهد بيننا، فأنا مستعد لنقل ما تدعينه القبس لتلك الزوجة».

أشارت بيدها فاقترب الحيوانان اللذان يحملان العرش إلى

أن صار أمامي مباشرة، نظرت في عينيّ وقالت:

«لتعلم أن هذا هو قبس من روحك الكاملة، كي تستطيع الحوريات أن تغادر البحر وتنتقل إلى بر آربوس ويتعايشون كما البشر، لا يملك منحه إلا من هم مثلك كما أسلفت، إلى أن نقضي لك أمرك فيعدن إلى سابق عهدهن معنا بعد تمام العهد، لكن منذ الآن سيكون لدينا ثلاثة آلاف قبس من روحك، ما معناه أنك إن خالفت عهدك معنا، سنأخذ إحداهن دونما تشعر، نغرقها بالبحر خارج آربوس، ثم نجتذبها إلى هنا لنُمنح لؤلؤة ميلاد في مقابلها، تتعلق تلك اللؤلؤة على روحك أنت لأنك صاحب الروح الأصلية، وتلك الغريقة لم تصبح بشرية إلا بك، من وقتها ستسري عليك القواعد، ستصبح وافدًا يموت بعد سبعة أعوام أو يستمر في القتل من أجل حياته، لكن ربما نستبدل كل ذلك لو امتنعت عن إتمام مطلبنا، بأن نرفع عنك دعمنا وننقلب عليك إن استطعنا فنرديك في وقتها ونهدم كل ما بنيت».

توقفت للحظات عن الحديث، ثم رفعت عينيها لأعلى الكهف وقالت: «لتشهد علينا روح آربوس الحية أننا أمليناك سائر القواعد والأسرار، كي ترتضي لنا نقل القبس منك إلينا، هنا بين ثناياها وتحت رؤيتها في هذه البقعة التي

يجتمع فيها البر بالبحر، والبشر بالحوريات، لدى بقعتنا، بقعة الحوريات».

أتمت مقولتها فأحسست اهتزازًا بالجبل كما لو أنه زلزال ضعيف، لم يدُم سوى لحظات، عندها ابتسمت تلك الملكة لأول مرة منذ أمد، ثم التفتت نحو مصاحباتها قائلة:

«أحضرن أفرودينا؟».

ما هي إلا دقائق وظهر رأس حورية صهباء مثل اللاتي تجمّعن حولي، اقتربت إلى أن أمسكت بيديها المسطبة جوار العرش، بدت واسعة العينين تحت رموش شقراء تطاولت لتخفي بؤبؤين تلاطمت بهما أمواج البحر، دقيقة الأنف، مكتنزة الشفتين خلال وجهٍ استدار بدرًا، فيما علت جبهتها لؤلؤتها التي بزغت كأنها سراج يشع نورًا من ضياء غرّتها، رفعتُ عينيّ إلى وجه ملكتها قائلًا بريبة:

«من هذه؟».

- رفيقة دربك، رسولتنا وزوجتك.

بقيت مشدوهًا للحظاتٍ قبل أن أعاود التركيز على ما أبتغيه قائلًا: «كيف سأمنحها ما تدّعينه القبس؟ ومتى ستبدأون في عوني؟».

مدت يدها إلى جوارها لتمسك خنجرًا عاجيًا، ألقته نحوي فالتقطته حين قالت: «سيرفعونها عندك راقدة على ظهرها، لتشق الذيل طوليًا لدى واجهته الأمامية من بين موضع الركبتين لأسفل دونما تصل إلى مفرقه أو يبلغ قطعك واجهته الخلفية، حتى تُخرج القدمين من تلك الفتحة بلا تمزيق إرب من الذيل، ستتوقف أنفاسها ويغيب إدراكها للحظات قبل أن تضع شفتيك فوق شفتيها ممررًا من أنفاسك لها، بعدها ستفيق أفرودينا، ثم تنزل إلى البحر لكن بأنفاسٍ بشرية، لتحرر أرجل بعض الزورجولات ناقلة لهن قبسك، بينما تغوص وترتقي بذات الموضع الذي كدت تغرق فيه، من ثمَّ تتواتر تلك العملية بين سائر الزورجولات وبعضهن إلى أن يتم العدد المأمول خلال برهة وجيزة، عقب ذلك تصعد بصحبتهن جميعًا من لدى جانب الجبل المقعر حتى تبلغوا القمم بالقرب من البوابة التي تقع بأقصى جنوب غرب مملكتك، نبتغي أن تصلوها قبل شروق الشمس».

أنهت جملتها مشيرة إلى الحوريات، ليرفعن أفرودينا كما أسلفت، بدت بنفس الثوب المعدني وذات الذيل المخملي الأخضر، لكنها أكثر فتنة، فيما ظهر خلف أذنيها خيشومان صغيران بالكاد لمحتهما يرتفعان وينخفضان دليلًا على التنفس عبرهما، لم ألحظهما في سائر الحوريات من قبل

لتواريهما خلف شحوم الآذان، لكن بذاك الموضع القريب مني اكتشفت وجودهما. لم أطل النظر نحوها حيث سمعت ملكتهن تقول: «الآن حان دورك».

اقتربت منها مرتكزًا على ركبتيّ قبل أن أهمس: «اطمئني لن يصيبك مكروه».

فتر ثغرها عن ابتسامة كأنها السحر مجسدًا، أحسست أنها من تُطمئنني وليس العكس، فبادرت إلى شق الذيل وجلًا متحرزًا، لينبثق عبر القطع سائلٌ هلاميٌّ لزجٌ وينتفض جسدها مرات ومرات، ما إن أتممت قطعي سكن ارتجافها ثم توقفت أنفاسها وغابت عن الوعي، لذا أخرجت قدميها مسرعًا قبل أن أقترب من شفتيها، بينما أخذا يتحولان للون الأزرق، فتحتهما بإصبعيّ واضعًا شفتيّ فوقهما، صرت أنفخ بداخلهما حتى فتحت عينيها شاهقة كمن يخرج من تحت الماء، أعقبت ذلك بأن سحبت نفسًا طويلًا منتظمًا عبر أنفها، لاحظت عندها عدم تحرك الخيشومين بل رقدا في موضعيهما أثناء تنفسها، لكن استقر اضطراب جسدها وعاد لونها إثر تنفسها عبر الأنف. لم تطل الرقود بعدما أفاقت، اعتدلت واقفة على قدميها حالما أخذت تلملم الذيل وتعقده خلف ركبتيها ليصير كتنوره خضراء، ما إن انتهت وضعت

يدها على كتفي قائلة:

«انتظرني خلال بعض ساعة».

قالتها وقفزت إلى الماء ليبدأ انسحاب الملكة أولًا ببطء، قبل أن تنسحب سائر الحوريات من حولي لأبقى وحدي مجددًا، لكن لم يمر أكثر من قدر أربع ساعات، حتى جاءتني أفروديتا، أطلت بوجهها بقرب المسطبة وقالت: «هيّا اقفز».

قفزت إلى الماء فأمسكت بذراعي لنغوص تاركين الكهف إلى سطح البحر خارجه، حيث وجدت آلاف الحوريات أمامي تظهر رؤوسهن فوق صفحة الماء، فيما بقيَت ممسكة بيدي، ثم اجتذبتني نحو جانب الجبل المقعر إلى أن بلغناه، أوعزت إليّ أن ألمس جانبه لأجد أن به بروزات متعاقبات تسمح بارتقائه، ظننت أننا سنتسلقه حتى أعلى، كدت أقول لها أنني لن أقدر على ذلك، إلا أننا ما إن صعدنا بقدر عشرين ذراع وجدتها أزاحت ما بدا عش طائر كبير قبع ببقعة عمياء لم أرَها حين كنت لدى الساحل، ظهر خلفه نفق ولجنا خلاله قبل أن تلحقنا بقية الحوريات في ثلاثة صفوف منتظمات بلا حيد، بدين طويلات بالمقارنة بنساء البشر، يكدن يبلغن طولي، يلبسن ذات الملبس المعدني، يعقدن الأذيال خلف الأقدام، بينما بزغت فوق أكتافهن أقواس بيضاء كأنها

عاجية، وانسدلت من خصورهن سيوف متوسطة الطول، في حين تخلل المسير كل بضعة ذراع واحدة منهن تحمل حربة ارتكزت فوقها لؤلؤة مضيئة، على ضوئِها رأيتهن يسرن في خُطى متناسقة مثل جيش نظامي، بلا مشاعر تكسو وجوههن، لا خوف، لا أمل، لا سعادة، أو تعاسة، فقط طاعة وحسب.

تحركنا بقدر خمسمائة ذراع داخل النفق قبل أن تتوقف مصاحبتي صائحة فيهن: «من الآن صرنا جميعًا داخل النفق، لا بُدَّ أن نسرع كي نستبق الشروق، على خطى ملك الوافدين سنسير».

أتمت جملتها والتفتت نحوي: «على خطاك سنخطو إن رغبت الركض أو الهرولة».

أومأت برأسي موافقًا، ثم بدأت أهرول مسرعًا، يدور برأسي مشهد المملكة عندما أدخلها، لكم اشتقت لها ولأهلها، لبيوتها وأسوارها وطرقاتها، لداري المطلة على البحر، يا ترى كيف الحال تحت يدك يا يزن؟ أظننا نستند إلى ركنٍ شديد، لكن شوقي الأكثر لبثت أعقده على ميرا، هل أنتصر على آسريها لألقاها وألقى فارس؟ هل تبقى الحوريات بصفي من بعدها إلى أن أتم كامل عملي؟ أخذت التساؤلات تراود

ذهني حتى بلغنا قمة السلسلة الجبلية بعد منتصف الليل بقدر ساعة، ما هالني أنني رأيت عبر ثنايا تضاريس الجبال ومرتفعاتها، أنوارَ قواتٍ ضخمة إلى الجنوب من أسوار المملكة، ربضت على مسافة قدرها بضع مئات من الأذرع في مرمى نيران راجماتنا، اندهشت لعدم رجمهم، إلا أنني أكملت مسرعًا نحو البوابة التي لم تبعد مشاعلها عن منفذ النفق إلا بقدر مائتي ذراع، ليفاجئني صراخ بعض جندنا المعتلين للأسوار ما إن اقتربنا منهم في المنطقة المستوية المحاذية للسور:

«من أنتم أيها المقتربين؟ عودوا إلى جيشكم وإلا رميناكم، إن ميعاد التسليم لا زال بالليلة بعد القادمة».

تجاوزت الصدمة مسرعًا وواصلت اقترابي صائحًا فيهم: «افتحوا البوابة أيها الجند واستدعوا لي الحاكم يزن، أنا سيدكم يوسف».

عندها حدث اضطراب كبير، سمعت من يصيح فرحًا: «لقد عاد سيد الوافدين افتحوا البوابة».

فيما رد عليه آخر، بدا قائد حرسها: «قد تكون خدعة من قوات آربوس الجنوبية أيها الأحمق، آمركم بألا تفتحوا إلا بعد استدعاء الحاكم جمال».

ليرد ثالث هاتفًا: «إنه صوت سيدي يوسف، لقد جاء بالمدد، فلنفتح لهم».

رد قائد الحرس من جديد: «حتى ولو هو من تظن، لن أفتح إلا بعد استدعاء الحاكم أو أحد قادة الجند، إن هناك اتفاقًا بالتسليم لتنجوا جميعًا أيها البلهاء».

كنتُ قد شارفت البوابة راكضًا تتبعني الحوريات، لأشعر أن الأمر تحول من الملاسنة إلى قتالٍ محدود دار بين جندنا وبعضهم بالداخل، خلاله فُتحت البوابة بقدرٍ ضئيل للحظة، ثم صُفعت عندما بلغتها قبل أن توارب مرة أخرى وكادت توصد من جديد، لولا أنني صرخت في الحوريات: «اهجُمن على البوابة»، ليندفعن نحوها ضاغطات حتى فُتحت على مصراعيها وولجنا جميعًا خلال بضع دقائق، ما إن أغلقت من خلفنا صرخت أفرودينا: «اقتلن كل من يقاوم عودة الملك».

انتشرت الحوريات بسرعةٍ ممسكات بأقواسهن إلى حذاء السور من الداخل، شددن أسهمهن ووجهنها نحو الجنود فوق هذه المنطقة من السور وجوار البوابة، إلا أن الجند رفعوا أيديهم جميعًا مستسلمين، بينما صرخ أحدهم: «فليحيا سيد الوافدين يوسف».

تبعه البقية هاتفين بنفس قوله، عندها أشارت أفرودينا بيدها فأنزلت الحوريات سهامهن ثم سارعن إلى الاصطفاف في عشرةِ صفوفٍ متراصات، بينما أخذت أفرودينا تتحرك أمامهن ذهابًا وجيئة بهامةٍ منتصبة وجسدٍ ممشوق مثل قائدة قطيع من الذئاب.

أخذت الصيحات تعلو فوق السور وداخل المملكة، سمعتها قادمة من بعيد: «لقد عاد سيد الوافدين»، «ليحيا سيد الوافدين».

لم أتأخر في التحرك لا سيّما وقد بدا لي من الفوضى التي سبقت دخولي أن هناك حديثًا عن التسليم، وأن جمال هو من تسلم مسؤولية الحكم. أمرت بعزل قائد حرس البوابة عن القيادة معينًا مكانه من هتف بالفتح لي أول مرة، الذي سألته عما حدث بغيابي، ليجيبني حانقًا عن كل ما جرى في الأيام الأخيرة، خاتمًا حديثه بالأسف لحدوث تهلهل واسع في كافة سرايانا وفرقنا من بعد اتفاق التسليم، استمعت إليه يعتريني ذهول اختلط بضجر حتى انتهى، ثم تركت تحت يده فرقة من مئة حورية كزيادة في الدعم، قبل أن أتحرك أمام بقية الحوريات محاذين لسور المملكة الجنوبي لدى يميننا، لنقصد معسكرات الجند بالشرق، صرت أتلقى تحيات

الجنود الرابضين فوق السور في سرايا متتابعات، أتوقف للحظات مع قائد كل سرية منهم، أشد من عزمه موعزًا أنه ما عاد هناك تسليم وأن عليهم التهيؤ لرجم تلك القوات المقتربة، من ثمّ أتركه مع كل قائدٍ منهم قدر مئة حورية قبل أن أنصرف عنه، لا سيّما أنني أحسست بضعف قوة السرايا، إلى أن بلغنا البوابة الجنوبية الرئيسية لدى منتصف السور، خصّتها وحدها بثلاثمائة حورية، بعدها واصلنا في طريقنا نكمل التدعيم.

أخذت المملكة تستيقظ على وقع الهتاف وحركة الحوريات من خلفي، شرعوا يخرجون من دورهم إلى طريقنا المار إلى حذاء السور بأيديهم المشاعل، بعضهم بدا مترقبًا أو خائفًا أو غاضبًا، آخرون هتفوا باسمي مستبشرين، ولوّحوا بأيديهم، غيرهم حاولوا الركض نحوي كي يسلموا عليّ، إلا أن أفرودينا لبثت تشير بيدها فتخرج إحدى الحوريات من الصف الأيسر لتمنع التقدم، إلى أن بلغنا نهاية دربنا وجِدنا يسارًا بزاويةٍ قائمة في الطريق المار أمام المعسكرات الشرقية التي ربضت على يمين مسيرنا، بعدما تركت قدر ثلث الحوريات موزعات على مناطق السور الجنوبي.

تجاوزنا سور معسكر الرماة الأول، بدا هادئًا على نحوٍ

غريب، من بعدها وبينما تحرك مسيرنا أمام سجن المملكة الذي يفصل ما بين معسكر الرماة ومعسكر الفرسان الذي يليه، رأيت أضواء مشاعل تقابلنا من بعيد لدى دربنا، صرنا نتقارب حتى فسرّت هيئة جمال وقادة الجند الثلاث، تبعهم قدر ألفين من الجنود حاملين سيوفهم ودروعهم الخفيفة، لم يبدُ أن القادة الأربعة جاؤوا مهنئين، بل أسرعوا إلى إيقاظ أولئك الجند معتقدين أنني جئت وبصحبتي دعم هين سيقضون عليه ليواصلوا خنوعهم وإرغام غيرهم على ذات الخنوع، لذا قطعت قدر ثلاثمائة ذراع ثم أشرت بتوقف الحوريات من خلفي، فأشار جمال بتوقف جنود المملكة، ذلك قبل أن يتلاقى فريقانا بقدر مائتين ذراع، ليصبح فريقي أمام معسكر الفرسان، وفريقهم أمام المنطقة الفارغة التي تفصل معسكر الفرسان عن معسكر المشاة الأخير.

هنا بادر جمال للتقدم وحده إلى منتصف المسافة الفاصلة بين الجيشين، فتقدمت نحوه في خطواتٍ واثقة حتى وقفت أمامه شاخصًا وقلت: «عد إلى جندك أيها الخائن، سلّم نفسك لهم كي تُحبس، ليس هناك حديث بيننا».

لم أنتظر ردًا منه، بل تجاوزته بقدر عدة خطوات متوجهًا نحو جنودي وصحت فيهم: «أهذا ما تعلمتموه طوال سنوات

عزكم؟ أتريدون التسليم المهين يا جند مملكة الوافدين كي يقتلوا من يجدونه من أهلكم، ثم يهدمون هذه المملكة حجرًا حجر؟ لقد عاد سيدكم يوسف مثبتًا نبوءته، والمحاربة من الواقفات خلفي بعشرة من أولئك الموجودين خلف أسوارنا».

صمتُّ للحظاتٍ التقطت فيها أنفاسي قبل أن أضيف حانقًا: «من أراد منكم العودة إلى صفي به مرحبًا ومن اعترض فليعتزلني إلى بيته، كي يدعني أواصل الدفاع عن هذه الأرض مثل الرجال».

ما إن أتممت حديثي سمعت هتاف أحد الجند بين الصفوف: «أنا معك يا سيد الوافدين»، تبعه بعد لحظات من قال: «وأنا معك»، ثم صارت الجملة الأخيرة تتردد وتتكرر إلى أن بدأ الهتاف يأتي من صفوف الجند: «فلتحيا مملكة الوافدين ويحيا سيدهم يوسف»، أخذ يمتد ويزيد هاتفوه حتى صار أغلبهم يصدحون به، كدت أتجه نحوهم لولا أن شعرت بجمال يأتي من خلفي، توقعت أنه جاء معتذرًا مسلمًا أمره، استدرت كي أوبخه على سوء تفكيره وإدارته، إلا أنه ما إن بلغني وصار بيننا قدر ذراع، وجدته استل خنجرًا من خصره في حركةٍ خاطفة ثم رفعه لأعلى كي يغرسه بعنقي منهيًا انتفاضة رجوعي، لكنه قبل أن يهوي بخنجره اخترق

سهمٌ رقبته لتنفذ رأس السهم من حلقه، فسقط على وجههِ شاخصًا، لأرى من خلفهِ أفرودينا منتصبة أمام صفوفها فيما لا زال قوسها بين يديها.

سمعت الهمهمات سرت بين صفوف جنود المملكة، أدركت أن ما حدث جاء لصالحنا، حيث رأوا بأعينهم بأس مرافقتي، اتجهت نحوهم إلى أن بلغت قادة الجند الثلاثة أمام صفوف الجنود، أنزلوا أعينهم إلى الأرض، فيما قال أحدهم: «نحن طوع يدك ورهن أمرك، إن أردت استبقاءنا أو حبسنا».

رددت حازمًا: «سيحين وقت الحساب لاحقًا، لكني أعوزكم الآن فحاولوا أن تُكفّروا عن شيء من ذللكم».

لكن لم يدم ذلك الاستقرار طويلًا، حيث جاء راكضًا من جهة السور الشمالي خلف صفوف جنودنا من صرخ: «لقد حدث اختراق عند البوابة الشمالية الرئيسية، لقد خالفوا اتفاقهم وتسلل بعض منهم لداخل المملكة حتى فتحوا البوابة الشمالية فيما توارى كثير من جند آربوس الشمالية خارجها تحت جنح الظلام».

لم أنتظر أن يتم حديثه، بل اخترقت صفوف الجنود ركضًا إلى أن بلغت مؤخرتهم، ثم صرخت فيهم: «لمَ تقفون؟ في إثري لننقذ المملكة».

استبقتهم راكضًا فزعًا إلى أن بلغت نهاية الطريق الشرقي، قبل أن أنحرف بزاوية قائمة جاعلًا السور الشمالي عن يميني مواصلًا ركضي في الدرب المار إلى حذائه، ما أثار دهشتي أني وجدت بعض الحوريات سبقنني قبل الجنود، نظرت خلفي فرأيتهن لا زلن يتسللن بسرعة كبيرة من بين صفوف الجند الراكضة حتى أصبحن جميعهن يتقدمنني خلال برهةٍ وجيزة، فيما بقيت أفروديتا تركض إلى جواري يتبعنا سائر الجنود، لما شارفنا البوابة رأيت من بعيد على أضواء المشاعل ما قارب الألف من جنود آربوس الشمالية قد دخلوا إلى المملكة بينما لا زال تدفقهم مستمرًا، حيث أخذوا يتراصون بتشكيلات دفاعية في ذلك التقاطع المتسع ما بين طريقنا الذي يمتد إلى حذاء السور والطريق المنبثق من لدى البوابة رأسيًا لمنتصف المملكة، حالما بدا أن حرس البوابة وتلك المنطقة من السور قد قتلوا جميعًا.

فاجأني صراخ أفروديتا في تابعاتها قبل أن نصل بقدرٍ كبير: «جهزن الأقواس».

استلت كل منهن قوسها في يدها بينما بقين على ركضهن، من ثمّ خاطبتني قائلة: «مُر جندك بالتوقف»، لم أجادل في الأمر بل سارعت إلى تنفيذ طلبها، ليتوقف الجند ويتواصل

ركضي معها خلف بقية الحوريات، قبل أن أسمع من بدا قائدًا لتلك القوات المهاجمة من جند آربوس الشمالية يصرخ فيهم بصوتٍ جهور:

«لتتجمع السرية الأولى حول مصراعيّ البوابة، حافظوا على فتحها كي يستمر الاقتحام، وليتقدم الرماة تجاه أولئك المهاجمين ويتراص من ورائهم باقي المشاة»، تبع صراخه أن صار يتسلل بعض رامٍ من صفوف جنده متجهين إلى مقدمتهم نحونا، لكن بدا أن الأكثرية منهم من المشاة الخفاف الذين سارع بعضهم نحو مصراعي البوابة فيما تراص البقية خلف رماتهم مستلين سيوفهم، إلا أن أفرودينا استبقت اكتمال تحركهم وصرخت: «توقفن وأطلقن».

توقفت الحوريات على حين غرةٍ وما هي إلا ثانية وانطلقت دفعة من أسهمهن نحو جند آربوس المقتحمين، بعضها انطلق بصورةٍ مباشرة ممن هن بالمقدمة وبعضها انطلق بصورة مقوسة، لتتساقط السهام فوق جند آربوس كالمطر، وعلى الرغم من محاولتهم الاحتماء برفع دروعهم، إلا أن غزارة السهام وقوة اندفاعها الغريبة عن سائر ما رأيته من قبل، أوقعت منهم قدرًا كبيرًا لدرجة أن حدث اضطراب جم بينهم، حيث اندفع بعض ممن بقوا أحياءً بداخل المملكة

محاولين الهرب عبر البوابة من سيل الأسهم غير المعتادة، فيما صدهم رفقاؤهم المهاجمون الذين احتشدوا عند المدخل، لتصرخ أفرودينا من جديد: «أطلقن دفعة أخرى».

هبطت الدفعة الجديدة فوق رؤوس الجنود لدى اضطرابهم، بدا أن تأثيرها أكثر شدة من الدفعة الأولى، حيث شتتت ثبات صفوفهم وأوقعت منهم ما زاد عن نصفهم، فيما زاد محاولو الهرب بينهم، إلا أن التدفق الجديد تواصل من جهة البوابة مانعًا فرار المتراجعين. توليت الأمر عندها وصرخت: «واصلن التقدم لتُحطن البوابة من الداخل، ولتعتلي البعض منكن السور من لدى السلالم الرابضة على جانبيها».

كانت هناك ستة سلالم متفرقات لصعود السور، عن يمين البوابة ويسارها، استبقت الكثير من الحوريات إلى الثلاثة الذين ربضوا ناحيتنا، بينما واصلت بقيتهن هجومنا، في حين تحرك جند المملكة بعدما صرخت فيهم أن يتبعونا، لنحط البوابة من الداخل بالحوريات والجند خلال دقائق مانعين تسلل مزيد من القوات، فيما واصلت كثير من الحوريات نحو موضع السلالم بالجهة الأخرى من البوابة، إلى أن تراص قدر كبير منهن أعلى السور لتدفقهن عبر كافة

السلالم، ثم أخذن في إطلاق السهام بغزارةٍ نحو القوات المهاجمة خارج المملكة، هنا أصبحنا على الأرض محيطين بمن تسلل إلى الداخل نقاتلهم بحمية، والحوريات أعلى السور تُمطرن القادمين، عندها أحس قائد جندهم -من سمعتهم يصرخون باسمه مالك- أن هجومهم قد أُحبط لذا صرخ في جنده: «انسحبوا للخارج قبل أن تفضح الشمس انسحابنا».

تركوا مشاعلهم فارين نحو الشمال حتى يغلفهم الظلام، حالما بقيت الحوريات تُمطرهم بالسهام من فوق السور، فدفعنا الجثث التي تراكمت أمام البوابة إلى الخارج قبل أن نغلقها مسرعين، ليبدأ الجند في الصياح والتهليل ملوحين بسيوفهم، تبعهم صيحات الانتصار من داخل المملكة، فيما لم ألتفت لذلك الصخب وارتأيت من سائر المشهد أنهم هجموا بقدر سبعة آلاف جنديّ من المشاة الخفيفة والرماة المترجلين، مستغلين للتسلل الذي أحدثوه، ولعنصر المفاجأة والظلام، لا سيّما أنهم كانوا متيقنين من خوار عزم جندنا بعد قرار التسليم، ولولا تيقظ المملكة بهذه الليلة لقتلوا الجنود في مضاجعهم أو أجبروهم على الاستسلام، لكن ها قد نجونا بينما زهق منهم ما قارب الألف مقاتل، ليصير رجوعي لهم صاخبًا كما ينبغي.

ما أن أُغلقت البوابة صعدت إلى السور أتفقد دفاعاته، وجدت حاويات القنابل اليدوية الصغيرة وجعبات السهام المفخخة لا زالت في مواضعها، فيما رقد ملقوها من رماتنا صرعى حولها تستقر السهام في ظهورهم، كما قُتل ملقمو الراجمات إلى جوارها بذات الطريقة، بدا أن سهام المتسللون قنصتهم جميعًا في الخفاء ولم يلحقوا تدارك أمورهم، لا سيّما أن الهجوم الأول جاءهم من داخل المملكة وليس من خارجها، كذلك حاولت تقصي أنوار قوات الشمال من فوق السور لكنها لم تظهر لناظري مثلما رأيت قوات الجنوب قبل دخولي للمملكة؛ تيقنت أنهم بعثوا بذاك القدر ليتحركوا بسرعة متدثرين بالظلام، فيستبقوا تحرك سائر جيشهم الكبير بين دروب الجبال، ليحققوا انتصارًا خاطفًا ماكرًا بينما يعتقد الخلق هنا أنهم لا زالوا بعيدين.

نزلت من السور مع بزوغ أول خيوط نور الشروق، سألت قادة الجند عن تفاصيل العتاد والجند لدينا، لأعرف منهم أنه من بعد ما جرى في غولار وضياع جنودها، بقيَ في المملكة ألفان من الرماة وملقمي الراجمات الذين يعتلون الأسوار، قُتل من بينهم قدر مائتين أثناء الاقتحام، كما ظل لدينا ما يقارب الألفيّ فارس بخيلهم، منهم ألف وخمسمائة

من أصحاب الدروع الخفيفة المحمولة باليد، وخمسمائة مدرعين بالدروع الحديدية الثقيلة التي تغطي سائر الجسد، إلى جانب قدر أربعة آلاف من المشاة جميعهم مسلحون بالسيوف والدروع الخفيفة فقط، إلّا أن هذه الأعداد لم تعد منتظمة كلها بين السرايا والفرق، حيث أنهم ليسوا جميعًا من الجنود النظاميين بقواتنا، بل قسم منهم من أولئك الذين يستدعون وقت الحرب، والغالبية العظمى من المستدعين مشاة خفاف يمثلون قدر نصف قوة المشاة كلها، كان قد استدعاهم يزن وجهزهم للقتال، لكنهم غادروا إلى دورهم من بعد قرار التسليم لنفقد قدر ألفي جندي، كما أن الذين يملكون دورًا وعائلات من قواتنا النظامية الثلاثة صاروا يبيتون بدورهم ثم يعودون للمعسكرات نهارًا وليس مثل السابق يعاودون دورهم في الإجازات الأسبوعية المنظمة بينهم، بل بعضهم انصرف بلا عودة، حتى الرماة العائلين صاروا يقضون مناوبات استراحتهم في دورهم، ليبقى فقط منتظمًا بالمعسكرات أولئك الشباب الفرادى ممن لا يملكون أهلًا ولا منازل سوى معسكراتهم.

أنصتُّ إليهم حتى انتهوا ليتضح جليًا أن قرار التسليم هلهل بأس قوتنا، بدا أن قوات الشمال كانوا محسنين في تدبيرهم عندما ظنوا دخولهم المملكة بأقل عناء، لكني

اعتزمت لملمة الشتات بأسرع ما يمكنني، فأمرتهم بإعادة توزيع الرماة وملقمي الراجمات المتاحين فوق الأسوار، ليجلبوا من المناطق التي ما هوجم حرسها إلى هذه البقعة من السور، كذلك أعطيت أمرًا بإعادة النظام والعقاب الصارم للمخالف، حيث أمرتهم بجمع سائر الجند الذين انصرفوا نظاميين ومستدعين عدا الرابضين فوق الأسوار، ولا ينصرف أي من الجند عن المعسكرات بمناوبة راحة أو للمبيت إلا في حالة إجازة استثنائية مني، على أن يتموا هذا الجمع خلال ساعة ليصطف الجميع بفناء معسكر المشاة، كي آتيهم بعدما أفرغ مما أنتويه، معقبًا بصرامة أنني أريد سائر الجند، إما فوق الأسوار أو مصطفين بساحة المشاة ينتظرون قدومي أو ملقون بسجن المملكة.

ما إن انصرفوا طلبت من أفرودينا توزيع ألفٍ من الحوريات على امتداد كامل السور الشمالي لتعضيد دعمه مخافة هجومٍ جديد، وبقيت إلى جوارها أتمم ذلك إلى أن فاجأني قدوم يزن أثناء عملنا، بدا ضعيفًا مذهولًا تكاد الدموع تترقرق من عينيه، اقترب مني إلى أن احتضنني دون حديث، فهدّأت من روعه مبتسمًا، ليقول:

«لو تأخرت بقدر ساعتين لوجدتني أنا وابنتي زادة وأمها

أمواتًا بدارنا، لم أكن لأسلم أبدًا يا سيدي يوسف، الموت أهون من تلك المهانة».

ربّت على كتفيه بعزم: «لقد أتممت مهمتك على أحسن وجه وأخّرت هذه الساعة بقدر استطاعتك إلى أن آتيتك، لم أكن لأتركك أبدًا يا صديقي، لكن هيّا اجمع شتات أمرك، الآن ساعة قتال، فيما بعد سنجلس ونحكي».

تمالك حاله واعتدل في وقفته: «أنا رهن أمرك يا سيدي».

- اذهب نحو السور الجنوبي، بلغهم بعودتك حاكمًا للمملكة من بعدي، ثم مُرهم بالاستعداد لقصف قوات الجنوب المقتربة، أظنهم تقدموا خفافًا دون راجمات ارتكانًا للتسليم المهين، لذا سنستبق تراجعهم السريع ونبيد قدرًا منهم، لنا ثأر عندهم يا يزن».

ربّت على كتفي بعزمٍ وكأن الدماء ردت إلى وجهه ثم انطلق، ليقفز إلى ذهني أن ميرا لدى قوات الشمال ويقينًا عرفوا موقع النفق من خلالها فتسللوا عبره، لذا أمرت أن تذهب سرية من الجند كي يُلغموه ويهدموه، ثم انتظرت حتى أتممنا تدعيم السور الشمالي قبل أن أنطلق وبصحبتي أفرودينا يتبعنا الألف الباقية من الحوريات نحو السور الجنوبي عبر الطريق المار بمنتصف المملكة من البوابة

الشمالية الرئيسية إلى مثيلتها الجنوبية.

خلف صفوف آربوس

(ميرا)

ما إن بلغت مدخل النفق الموصل لمنزلي بالمملكة وكدت أتنفس الصعداء وأرسم الخطط بذهني للدفاع عنها، فاجأني أضواء مشاعل تقترب مسرعة حتى أحاطتنا أنا وماجد، عرفت من فوري أنهم جند آربوس الشمالية، صرت أصرخ فيهم منتفضة، مذعورة، أحاول الإفلات من أيديهم، بينما أشعر أنهم تركوني أصعد سلم الأمل ثم قذفوني من فوقه، إلا أنهم تملكوا مني لأدرك بعد لحظات أنني وقعت بشركٍ نصبوه لي بمساعدة ماجد، حيث اصطحبوه معهم إلى داخل المملكة، فيما أخذني اثنان منهم عبر الأنفاق عائدين نحو موقع تجمع قواتهم فوق القمم، بقيت أقاوم وأحاول الإفلات منهما لبرهة، إلى أن خارت كل القوة التي استدعيتها إلى جسمي السقيم، وانطفأ الأمل بقلبي العليل، استسلمتُ بالأخير لأيديهم، ومشيت ضائعة أجرجر قدميّ بينهما، لا ألوي على شيء، أتمنى أن تزهق روحي قبل أن نصل وجهتنا، فلِم أطلب الحياة وقد فقدت أسبابها؟ بل بالأحرى فقدت سببها الوحيد.

كيف غادرت يا يوسف وتركتني؟ كيف طاوعك قلبك على

الفرار وأنا طريحة الموت؟ ألم تقل أنك صرت لي؟ أترحل بعدما انتظرت ذلك لسنوات؟ الآن صرت ضعيفة، كنت قوية بك ولك، لكن لم تعد تعنيني الحياة من دونك، لا مملكة ولا قبائل ولا حتى أن أصير أسيرة عند آربوس، وما محاولتي هذه لإنقاذ المملكة سوى رفرفة ذبيحٍ حاول إنكار سيطرة الموت عليه.

بالأخير استفقت عندما بلغنا خيمة مختلفة بمؤخرة موقع تمركزهم الجديد الذي تقدموا إليه، ألقوني فيها ووقفا يحرسان مدخلها على ضوء نار ضئيلة أشعلاها، حين خاطب أحدهم الآخر قائلًا: «ما هي إلا ساعات ويسيطرون على تلك المملكة، سمعت أن القائد سيختص القوات الخفيفة التي هجمت بثلث الغنائم وحدهم وهم لا يزيدون عن ثلث قواتنا، ثم يوزعون الثلث الثاني على بقية الجند أي على ثلثي القوات، فيما يبقى الثلث الأخير للقصر وكبار تابعيه من الأمراء والقادة كما تعرف، فهل سيعتبروننا أنا وأنت من الثلث الذي هاجم أم يجعلوننا في الثلثين اللذين سيهدرون حقهما؟ لا بُدَّ أن نتكلم في ذلك مع الأمير مالك، إن نصيبنا قد يزيد إلى الضعف لو اعتبرونا من المهاجمين، وعندها قد آخذ تلك الفتاة التي نحرسها في نصيبي».

ليرد الآخر: «أنا لا تعنيني الغنائم، لا أريد ذهبًا ولا لؤلؤًا ولا نساء، بل لا يعنيني هذا الحصار كله».

- كيف تقول ذلك؟ ألا يعنيك استقرار آربوس الشمالية؟

- بلى يعنيني، لكن ألم يفاوضهم من يُدعى سيد الوافدين من قبل غزوه لغولار؟ ألم يطلب منهم الأمان لقاطني الجبال مقابل توقفه عن التمدد؟ بل ومن قبل ظهور سيد الوافدين، هل استطاع قائدا مملكتي آربوس أن يتوافقا لعامين بلا حروب؟ ما توقفهما على مدار الأعوام الماضيات سوى لظهور تلك القوة الثالثة أعلى الجبال، ثم سيعودان إلى نهجهما القديم إذا ما أزاحاها، إذًا أين الاستقرار الذي تنشده؟ لا أعرف لمَ لا يشترون الخيل بالذهب ويبقى كل منهم في مملكته مكرمًا؟ لكن لبث أهل الشمال يطمعون في خيل مراعي الجنوب، بينما مكث أهل الجنوب يرغبون كهف الذهب بشرق تلال الشمال، قس على ذلك سائر المطامع في كلا الجانبين لرغبة كل منهما في الاستئثار بعوامل الثروة والتميز. لا تظن أن حربنا هذه نهاية المطاف، سيستمر الصراع طالما ابتغت كل مملكة تعزيز قوتها وإيضاح غلبتها، ولبث كل طرف يحسب أن الآخر لو زادت سطوته سيبادر إلى غزوه، إنها حروب لن تنتهي إذا ما ظلت الأطراف

تتجاهل إمكانية التعايش، ويرنون دومًا إثبات الغلبة والمنعة والبقاء، لأن ذلك سيكون على الدوام محركًا للطمع فيما بيد الآخر، قد تقول أن الطمع أصبح سببًا للصراع وبذات الوقت نتيجة له.

- أنا لا أفهم ما تقوله، ولا أعرف شيئًا عن كل ذلك، كل ما أريده أن يتم احتسابنا من المهاجمين، نحن لسنا جنودًا نظاميين كي نشغل بالنا بكل ما تحكي.

هنا توقفا عن الحديث ليمر بعض ساعة عاودتني فيها آلام جروحي إثر الجهد المضني الذي بذلته، لكن ما إن بزغت خيوط الشروق الأولى سمعنا جلبة كبيرة، صوت تصايح، عويل جرحى، اتضح لي من هتافات الجند وقادتهم أن هجومهم باء بالفشل إثر عودة سيد الوافدين يوسف، لذا تقهقروا مسرعين يلملمون أذيال انتكاسهم. كاد قلبي أن يتوقف من وقع الكلمات على مسامعي، أحسست أن روحي ردت إلي، فيما لبثت أستمع إلى الحديث من هنا وهناك، يرفرف صدري كلما تيقنت من حقيقة عودته، وأنه من أجبرهم على التراجع موقعًا بهم خسائر كبيرة، ثم استمر الهرج بقدر برهة قصيرة قبل أن نسمع دوي انفجارات هائلة، عرفنا أن يوسف فتح نيران المملكة على قوات آربوس

الجنوبية، التي تقدمت أمس مطمئنة لاتفاق التسليم، تأملت أن يوقع فيهم مصابًا جمًا ويجبرهم على التراجع فزعين مثل جند الشمال.

عندها صدرت الأوامر بضرورة تحركنا متقهقرين نحو مقر التمركز السابق؛ مخافة أن يقصفنا ويبلغ مدى نيرانه موقعنا، ذلك على الرغم من توارينا بين مرتفعات الجبال، ليأخذني الجنديان وأسير بينهما مبتسمة بروحٍ جديدة، لا أشعر بآلام جروحي، فيما ألوم نفسي على عتابي ليوسف، كم كنت جاحدة حين ظننت فيك السوء يا حبيبي وسيدي، كم كنت بلهاء، كم كنت ضائعة! صرت أتلفت حولي نحو الجنود أثناء تحركهم باديًا الفزع على وجوههم، بينما أقول بداخلي، قد عاد من سيُذيقكم الهزيمة، عاد من تفرون أمامه كالخراف، يا لحسرتكم ويا لخسارتكم! لم أفكر في نفسي أو مصيري، بل بتّ أعرف أنه لن يتركني، سيزلزل هذه الجبال ويأخذني إليه، سيعود كما وعدني.

بقيث على استبشاري حتى آويت إلى خيمتي الجديدة بمؤخرة جيشهم في موقعهم الأول، لكن الغريب أنهم زوّدوا من حراستي ليصبح حول الخيمة قدر ستة جنود، ثم أتاني الطبيب ليعودني عند الزوال، كنت أظن أنهم لن يواصلوا

في مداواتي بعدما أفرغوا جعبتي، إلا أنه جاء بصحبة أحد معاونيه يبدو عليهما الإرهاق إثر تفقدهما كثيرًا من الجرحى، اطمأن على جروحي ودهنها في عجالة، أخبرني أنها تواصل التئامها، وأنها لن تترك أثرًا كبيرًا في جسدي. عرفت أنه يكذب، فندبة فخذي واضحة، أما الأخرى ببطني التأمت لتصبح مثل تلك التي تعلو حاجبي، فيما لم أقدر على رؤية ما بظهري، لكني لم ألقِ لهيئتهن بالًا، بل صرت أعتبرهن أوسمة بجسدي ستظل شاهدة على إخلاصي ليوسف وللمملكة. شكرته على صنيعه لأول مرة، لتلوح عليه ابتسامة استغراب قبل أن يغادرني.

في الصباح التالي جاء لخيمتي من قالوا لحرسها أنهم من حرس قائد جنود المملكة، ثم دخلوا كبلوا يديّ وأخذوني نحوه، لأقف بين يديه لدى خيمته، ناظرة في عينيه بثقة، دون خوف أو هلع من مظهره الجامد، إلا أنه ابتسم بدهاء وابتدر الحديث قائلًا:

«لم تقصري يا ميرا، أخذتِ بأيدينا نحو النفق، لكن لسوء طالعنا لم يكتمل ما خططنا له».

رددت بوجهٍ جامد:

«أنا لم أساعدكم، بل أردت العودة نحو مملكتي لأدفع عنها

أعداءها».

- لا تشغلني نيتك، ما أعرفه أنك قدّمت لنا خدمة غالية إلا أننا لم نحسن استغلالها، لكن لا يهم، نحن ها هنا قاعدون في انتظار سيدكم حتى يجف ماؤه؛ إما يأتينا بقواته القليلة لندحره، أو يبقى مختبئًا خلف الأسوار إلى أن يموت عطشًا.

- لمَ لا تضع الاحتمال الثالث بأن يأتي ليطردكم عن الجبال؟

- كل أمور الحرب جائزة، لكنه لم يرجع بعشرات الآلاف من الحوريات، بل قدّرهم من رآهم بقدر ألفين أو ثلاثة من المقاتلات الفاتنات، أشرسهن القائدة، بل وأجملهن أيضًا، يقولون أنها لا تفارق سواده، أظنها ستقوم مقامك في قادم الأيام، في القيادة وفيما سواها.

توقف للحظات يرمقني كأنه يقرأ انعكاس وجهي؛ لم أستطع أن أخفي نارًا اتقدت بداخلي من ذكر تلك الفاتنة التي ترافق يوسف، إلا أنني ابتسمت لأواري جزعي وتجاوزت الحديث عنها لأرد:

«أظنهن كفيلات بالغرض مع سائر جندنا».

ابتسم ذات ابتسامته الخبيثة: «مهما بلغت مهارتهن

سيبقين مجرد ثلاث آلاف مقاتلة، بينما لا يزيد عدد الجند عندكم عن سبعة آلاف أو ثمانية، كيف إذن سينتصرون على تلك الجحافل في الجانبين إذا ما انخرطوا في حربٍ مفتوحة تتلاحم بها الصفوف؟ بل كيف ينتصرون علينا وحدنا ولدينا خمسة آلاف فارس من ذوي الدروع الثقيلة، ومثلهم من الفرسان الخفاف رماة الأسهم، إلى جانب بقية جيشنا من المشاة الخفيفة والرماة المترجلين، ما بعثنا سوى أهون قواتنا من المشاة الخفاف كيلا تُحدث الخيل جلبة توقظ نوم حراسكم، ولأننا كنا موقنين من النصر بأقل مجهود.

لم أعرف لمَ يستعرض قوّتهم أمامي؟ وهل ذلك تحفيزًا لنفسه كي يواري جزعًا بداخله أحدثته عودة يوسف أم أن له غرضًا آخر؟ لكني تمالكت نفسي مردفة: «ليست العبرة بالعدد لكن بالثبات».

زادت ابتسامته: «صدق قولهم عنكِ، قائدة بالفطرة، يبدو أن سيدكم هذا يحسن اختيار قادته، أحدهم قاتل عند سفح الجبال حتى قُتل ليمنحكم فرصة الهرب، الآخر من يدعى يزن، لو لم يكن صعب المراس لكنا دخلنا المملكة منذ أمد من قبل أن يعود يوسف، وها أنتِ تقفين أمامي تصدّرين

لي إحساسًا بغلبتكم، لكن حتى لو انتصرتم هنا وغادرنا الجبال كما تأملين، بتلك الحالة يظل الخاسر الأكبر هو أنتِ وحدكِ، نحن حررنا غولار ودمرنا سرابوس وأسرنا واحدة من أهم قادة مملكة الوافدين، بينما سيحتفل أهل مملكتك بزوال الحصار هاتفين باسم يوسف، قد يتذكرون أسماء الذين ضحوا لبرهة، ثم يتسلل النسيان إلى قلوبهم، ليتناسوا الحصار والخوف والألم، في خضم هذا التناسي سينسونك، الناس لا يحبون تذكر ما يؤلمهم».

تذكرت فارس عندها، وعلى الرغم من كوني لبثت موقنة من حتفه منذ أن فارقناه إلا أن حديثه أيقظ لوعة بداخلي عليه، لا سيّما مع ذكره لنسيان الخلق لنا، فجاهدت كي أبقى على ثباتي ثم حاولت أن أهاجمه بأن قلت:

«ومن قال أنه لن يتبعكم حتى يدخل سائر أسواركم ليسلبكم أي انتصار تتحدث عنه، بما في ذلك أسري؟».

قهقه عندها بثقةٍ أغضبتني قبل أن يرد:

«أتظنين أن ما جاءكم بالجبل هو كل قوتنا؟ أتحسبين هذه الجنود هي ما تملكهم آربوس الشمالية وإمارات قراها الخمس؟ ألمْ نترك في حاميات القرى من أحد؟ ولنفترض أن موازين القوة هنا تتقارب بيننا وبينكم لوجود حصن شديد

سيبقى ملاذً لكم إذا ما جازفتم وخرجتم للكر والفر، لكن عندها ربما يصير أقصى طموحكم أن تنزلونا عن الجبال، إلا أنه لن يتكرر غزونا مرة أخرى عن طريق التسلل بالحيلة إلى إحدى قرانا حتى ولو معكم البارود، فقد أخذنا العبرة مما مضى».

حاولت أن أتملص من تلاعبه وحيله لذا سألته بلا تردد:

«ماذا تريد مني؟».

انطفأت ابتسامته الخبيثة التي لبثت تعتلي وجهه طوال معظم حديثه ليحل محلها التقطيب قائلًا:

«لقد بلغتني سيرتك كاملة من بعض الوافدين الذين استنطقناهم لما أمسكوا بكِ أول مرة منذ بضعة أيام، قبل أن تهربي جريحة رفقة سيدكم يوسف ومن يُدعى ماجد، قالوا أنك رافقت يوسف هذا لسنوات، وأنه يُكن لك قدرًا كبيرًا من المودة، لكن في خضم حديثهم ذكروا أن لك أخوين أَخذهما جنودنا من لدى الجبال هنا قبل خمسة أعوام أو ستة، لا يهم كم العدد تحديدًا، الأهم أنهما عندما أُسرا كان اسماهما ميسون وموراي، بعثت استعلامًا عنهما في آربوس، جاءتني نتيجته هذا الصباح، لا زالا على قيد الحياة، يخدمان بإحدى ورشات صنع السلاح، ما تغير هو اسميهما وحسب، صارا

فادي وحسام، فيما بقيا يشبهان بعضهما ويشبهانك، شقراوان بأعين زرقاء وجسد بض أبيض، الغريب أنهما لا يعرفان كونهما أخوين بعدما فقدا الذاكرة، لكن يبدو أن قلبيهما يشعران؛ لا يفترقان، يحبان بعضهما حبًا جمًا، وينتويان أن يشتركا في منازلات آربوس قبل حلول السنة السابعة حتى يكملا لأمدٍ جديد، فأنتِ تعرفين أن قوانين آربوس ستنطبق عليهما وسيعدمان ما إن يتما عامهما السابع طالما لا يحوزان صكوك المعمرين، إلا لو اشتركا في تلك المنازلات وامتد أمدهما لسبع سنوات جديدة، فهل تذكرين هذين الفتيين؟».

لانت قسماتي رغمًا عني، كأنه حرّك قطعة بقلبي لبثت ساكنة لأمدٍ بعيد؛ انزلقت دمعة أفلتت من عيني عندما تذكرت ملامحهما وتخيلت حياتهما، هما من عرفتهما من أهلي، إلى أن أخذوهما مثلما أخذوا من سبقوهما، إلا أنني أدركت أن هذا اللئيم يحاصرني من عدة زوايا، لذا حاولت التماسك بقدر استطاعتي وسألت:

«لم تذكرهما الآن؟ وما المقابل؟».

- عندما دخلنا غولار لم نجد فيها أيًا من بارودكم، جنودكم استخدموا قدرًا كبيرًا منه أثناء مقاومتنا، كما تلف قدر آخر خلال قصفنا لهم بواسطة جرار البارود التي جلبها

ملك الجنوب، ما تبقى لديهم أمر قائد جندكم بإتلافه عندما تيقن من الهزيمة، ليصدمنا خلو غولار منه لما بلغناها، لا سيّما ملك الجنوب الذي استخدم ما يملك متأملًا أن يأخذ مكانه بعدما ندخلها».

رددت: «نِعم القائد من ولّاه فارس من بعده».

لم يُعقّب على قولي بل تحولت ملامحه إلى جمودٍ شرس قبل أن يواصل: «ما أعرفه أن سيدكم استأثر بأسرار تصنيع البارود ونسب الخلط لبعض خواصه، وتوسع في أولئك الخواص قليلًا بعدما امتد نفوذكم لسرابوس وغولار، ولقد كنتِ من الذين لا يفارقونه، لذا يقينًا بلغ علمك أسرار البارود، الآن لن يسعفنا الوقت لتجميع مواده وتصنيعه، كما أنني أعرف أنك لن تليني بيُسر، لذا سأمنحك فرصة طويلة لتقليب الأمر برأسك، ولتخبرك الأيام مدى صدق حديثي عن تناسيهم لاسمك. لقد صدر أمري بترحيلك نحو مملكة آربوس الشمالية بصحبة أولئك الجرحى الذين سيعودون إليها ليتداووا في مراكز العلاج هناك، إلا أنك ستودعين بسجن قصر الملك، أشد السجون حراسة، إن انتصرنا في هذه الحرب لن أبتغي منك شيئًا، وسأنظر في أمرك عندما نعود، لكن إن لم يُقدّر لنا النصر فأمامك خيارين اثنين لا ثالث لهما،

الأول أن تمنحيني أسرار البارود، عندها أعدك بأني سأتخذك زوجة أثيرة لتصيري من أميرات آربوس، فيما سأمنح أخويك صكيّ معمرين، أما إن رفضت فلن أقتلك، بل سأقتل أخويك أمامك بالساحة، ثم أتركك جارية تُرفه بجسدها عن أقمؤ عبيد قصري، لتمضي حياتك في عبودية وشقاء، تتندمين على تسببك في أسر أخويك قديمًا وقتلهما شر قتلة بالأخير، بينما يمرح ويلهو من ضحيّتِ لأجلهم».

زعزع ثباتي كلامه عن ترحيلي نحو آربوس، حيث لبثت أظن أنني سأظل هنا إلى أن يأتي يوسف لينقذني من بين أيديهم، كما أن حديثه عن أخويّ هز قلبي، لكني حاولت التمالك بقدر استطاعتي ورددت كاذبة:

«أنا لا أعرف أسرار البارود، وإن عرفتها فلن أنقلها لك».

نظر نحوي متفرسًا لبرهةٍ بدت كأنها الدهر:

«لن أنتظر منكِ ردًا الآن، لنا لقاء بالمملكة، لكن تذكري أن سيدكم يوسف تنازل من قبل ومنح البارود لملك الجنوب على مدار سنوات كي يُتمم اتفاقًا معه ويأمن جانبه، كما أن رغبتي في البارود ليست من أجل إسقاط مملكتكم إن لم تسقط الآن، فإن نزلنا هذه المرة أعرف أننا لن نصعد من جديد، لكن رغبتي فيه من أجل الدفاع عن أرضي، لا سيّما أن

سيدك يوسف لم يعد يملك قراره».

قطبت حاجبي مستفهمة: «ماذا تعني بأنه لم يعد يملك قراره؟».

شرد بنظره نحو باب الخيمة لأول مرة ورد: «لقد انقطعت علاقة ملوك آربوس بالحوريات منذ قرونٍ بعيدة، ضاع كثيرٌ مما كنا نعرفه عنهن، ما لبثت أدركه جيدًا ممن سبقوني من القادة، أن الحوريات عندما يعاهدن لا يأتين إلى أرض آربوس كخادمات أو مطيعات لمن جئن بصحبته، بل يحضرن وفقًا لشروط ورغبات، وأنا على يقين من أن يوسف قد يبتغي السلام معنا إذا ما نزلنا عن الجبال ووافقناه على شروط سِلمه القديمة، عندها قد تنعم الأرض بالسكينة، لكن كما قلت لكِ، سيدك لم يعد يملك نفسه، قد يجبرنه على مواصلة القتال رغمًا عنه حتى يبلغن مرادهن، إنهن بئس الساحرات، بتلك الحالة إن حزنا البارود ودافعنا به عن أرضنا ولم يطلن ما يردن، قد ييأسن راجعات من حيث أتين، ويحررن سيدك من التزامه ليصبح في ذلك كل الخير لأرض آربوس، كما أن عودتهن ستحرره من الزواج بإحداهن التي أظنها تلك القائدة الشرسة، كما يحكون أن زهير تزوج قائدة منهن».

أحسست أن بعينيه قدرًا من الصدق في حديثه عن

سيدك يوسف لم يعد يملك قراره».

قطبت حاجبي مستفهمة: «ماذا تعني بأنه لم يعد يملك قراره؟».

شرد بنظره نحو باب الخيمة لأول مرة ورد: «لقد انقطعت علاقة ملوك آربوس بالحوريات منذ قرونٍ بعيدة، ضاع كثيرٌ مما كنا نعرفه عنهن، ما لبثت أدركه جيدًا ممن سبقوني من القادة، أن الحوريات عندما يعاهدن لا يأتين إلى أرض آربوس كخادمات أو مطيعات لمن جئن بصحبته، بل يحضرن وفقًا لشروط ورغبات، وأنا على يقين من أن يوسف قد يبتغي السلام معنا إذا ما نزلنا عن الجبال ووافقناه على شروط سِلمه القديمة، عندها قد تنعم الأرض بالسكينة، لكن كما قلت لكِ، سيدك لم يعد يملك نفسه، قد يجبرنه على مواصلة القتال رغمًا عنه حتى يبلغن مرادهن، إنهن بئس الساحرات، بتلك الحالة إن حزنا البارود ودافعنا به عن أرضنا ولم يطلن ما يردن، قد ييأسن راجعات من حيث أتين، ويحررن سيدك من التزامه ليصبح في ذلك كل الخير لأرض آربوس، كما أن عودتهن ستحرره من الزواج بإحداهن التي أظنها تلك القائدة الشرسة، كما يحكون أن زهير تزوج قائدة منهن».

أحسست أن بعينيه قدرًا من الصدق في حديثه عن

الحوريات، إلا أنني لبثت مضطربة لا أعرف كيف أرتب الأفكار برأسي، لا أدري هل هو صادق بشأن كل ما يحكيه عنهن أم يخلط الحقيقة بالضلال؟ هل يوسف لا يملك قراره؟ هل يتزوج تلك القائدة؟

انصرفت بعدها بصحبة الجنود بينما أحاول تدبر كل ما قاله، ما تعارض فيه وما توافق، إلا أنني لبثت موقنة من شطرٍ واحد في حديثه، أنه يرغب في البارود من أجل الدفاع إذا ما انهزموا، كيلا تتمدد مملكتنا من بعدها، فيما يضعني ضمن خطته لذلك، لذا يُرحّلني نحو آربوس متأملًا أن أفصح عما أعرف بأي وسيلة، لكن حديثه عن التسليم بوجود مملكتنا وانعدام رغبته في إعادة غزو الجبال أو جنوحه للسلام الدائم، ما هو إلا كذب لم يفلح في مواراته، هو لا يريد البارود للدفاع سوى لفترة يتمالكون فيها حالهم ويوهمونا خلالها بالسلام من ثمّ ينقلبون به علينا كما فعل ملك الجنوب، أما ما قاله عن إفقاد الحوريات الأمل، من أجل تحرير يوسف منهن وإعادتهن من حيث أتين كي يعقد ذاك السلام المزعوم بعيدًا عن سطوتهن، فهذا محض هراء وأساطير، بل بالأحرى لو أراد لهن العودة، سيكون ذلك من أجل إضعاف مملكتنا، لا سيّما وأن مرامينا قد تكون متفقة مع مراميهن دون إجبار كما يهذي.

لكن على الرغم من قناعتي بكل ما فسرته، بقيَ في قلبي شيء من التوجس بشأن الحوريات من بعد حديثه، وليس بشأن ذاك الزواج المزعوم وحسب، بل بخصوص قدومهن كله، إلا أن المُطمئِن من مجمل لقائِنا أنه بيّن تسلل إحساس الهزيمة إليه، فلقد لبثوا موقنين من أنهم لن ينزلوا عن الجبال إلا بعدما يدمروا المملكة حجرًا حجر، الآن بدأوا يضعون احتمالية الانسحاب والخطوات التي يجب اتخاذها إذا ما تراجعوا، لكن ما مصيري الآن لو رحلت إلى آربوس؟ هل يصدق قوله وينساني أهل المملكة وينساني يوسف؟ ويا ترى كيف حال أخويّ؟ هل سيُنفذ تهديده بشأن ثلاثتنا إذا ما عارضته، أم يستبق يوسف بطشه ويحررنا من بين يديه؟ بدا أن مصير ثلاثتنا أصبح بذات الضبابية.

لم يعد بي الجنود إلى خيمتي بل أخذوني نحو أقصى شرق معسكرهم حيث وجدت قافلة تعد للرحيل نحو آربوس الشمالية، لم يحلوا قيودي بل سلموني إلى حرس القافلة الذين تمموا على شدة تكبيل يديّ قبل أن يكبلوا قدميّ أيضًا، ثم انطلقنا بعد قدر ساعة نازلين نحو سفح السلسلة الجبلية عبر أحد الأنفاق، راكبين للخيل وسائرين، وغيرنا محمولين على المحفات، لأجد العديد من العربات في

انتظارنا، منها المسطحة والمغلقة، أرقدوا أصحاب الإصابات البليغة في العربات المغلقة، كان بينهم من يُدعى مالك الذي أمر بالإمساك بي عند مدخل نفقي، فيما وقع حظي بإحدى العربات المسطحات برفقة بعض الجنود الأهون مصابًا، بعدها تحرك الموكب يحيطه الفرسان من حرس القافلة، بينما بقيت أنظر نحو الجبال بعينين ترقرقت دموعهما، أتمنى اكتمال نصر يوسف وأرجو ألا ينساني.

أمضينا أربعة أيام في الطريق، خلالهن حاولت التملص والهرب في كل ثانية مرت علي، إلا أنني مكثت محاطة بستة من الجند طوال رحلتنا، بدا أن مهمتهم حراستي أنا وحدي، حتى بلغنا مشارف مملكة آريوس الشمالية بالنهار الخامس، لتتقسم القافلة إلى مجموعات دخلت متفرقات عبر أبواب المملكة، في حين أخذني أولئك الستة نحو قصر الملك، وقفنا أمام بوابة سوره الضخم منتظرين، فيما دخل قائدهم ليغيب لبرهة ليست قصيرة، قبل أن يعاود نحوي يتبعه اثنان من حرس القصر، سلمني لهما لدى البوابة ثم انصرف رفقة جنده، ليسوقاني عبر طريقٍ بمنتصف حديقة القصر المربعة إلى درجات مدخله الرخامية، ثم مررنا بردهةٍ حَوَت أحواض للحوريات عن جانبيها، قبل أن نتجاوز البهو وننزل إلى ممرٍ أُضيء بمشاعل زيتية، بآخره على اليسار قبعت غرفة حبسي،

أودعاني بعدما حلا قيودي، لم أجد فيها سوى سريرٍ واحد جلست على طرفه شاخصة لا أعرف مصيري، لتمر الساعات زحفًا ويتهاوى جسدي ساقطًا في بئرٍ من الأحلام الكئيبة.

استفقت على صوت إزاحة باب الغرفة، اعتدلت جالسة لأجد فتاة بمثل عمري تقف أمامي، من خلفها الحارسان اللذان جلباني، خاطباها باسم زهرة أثناء فتح الباب لها، التي تفرّستني بملامح جامدة قبل أن تسأل: «هل أنتِ نفس الشقراء التي حررت سيد الوافدين يوم الساحة؟».

تأملتها لبرهةٍ قبل أن أرد: «بلى أنا».

- يقولون أن سيدكم قد عاد إلى مملكته.

- ألم يصلكم خبره؟

- لم تأتِنا التفاصيل كاملة.

ابتسمت بقدرٍ من السخرية:

«ألم يخبروكم أن جندكم كانوا قاب قوسين أو أدنى من دخول مملكة الوافدين إلا أنه ظهر لهم على حين غرة بصحبة الآلاف من الحوريات، فأوقع من جندكم زهاء الألف مقاتل بغمضة عين، وأصاب منهم المئات ممن جاؤوا للاستشفاء هنا؟».

ظهرت آثار الصدمة عليها مما قلته، لذا أحسست أنها صادقة فيما قالته بشأن انعدام علمهم بالتفاصيل، إلا أنها تمالكت حالها وقالت: «ما بلغنا أنه عاد للمملكة وحسب، لكنهم طمأنونا بأنه لم يعد كثيرًا من الوقت حتى يجف ماؤكم».

زادت ابتسامتي: «بل لم يعد كثير من الوقت حتى تعود فلولكم مدحورين، لن ينتظر يوسف أن يجف الماء، بل سيلقيهم من أعلى الجبال، لو تملكين من الأمر شيئًا، أنصحك بسحب تلك القوات قبل أن تفنى عن بكرة أبيها».

لم يظهر عليها الغيظ كما انتظرت، بل بدت الحيرة وشيء من الخوف إلا أنها تشككت قائلة: «أنت تراوغين كعادتكم؟».

قطبت حاجبي ناظرة نحوها بثقة قبل أن أرد بتؤدة:

«صدقًا، دبروا أموركم على ذلك، بل يجب عليكم أن تعدّوا العدة لوصوله هنا إلى عقر داركم، إن له ثأرًا عندكم لن يتركه، فلم تري الفزع في وجوه الجنود الذين فروا من أمامه، لقد عادوا وكأنهم شاهدوا الموت مجسدًا».

لم أعرف، هل أدركت أنني أحاول بث الانهزامية والخوف في نفوسهم متغافلة لقوة جيشهم وتنظيمه وكثرة فرسانه المتمرسين على القتال، أم صدّقت كلامي على مطلقه؟ حيث

لم ترد على قولي بل انتظرت حتى أتممت جملتي الأخيرة ثم انصرفت حانقة، ليغلق الجنديان من خلفها ويتبعانها. عدت إلى سكوني أنتظر مرور الأيام بين جدراني الأربعة، أرقب تبدل الليل والنهار، ليزيد يقيني بأن الحبس ليس أسوء ما قد تكابده في الحياة، بل الأكثر مرارًا هو تسرب الأمل من صدرك كلما مضت الأيام، حتى انقضت عدة ليالٍ ثم أتتني الملكة مارينا إلى محبسي.

كيد الملكة

(مارينا)

توقفت عن مراسلة مالك بعد لقائي بالوزير اللئيم، حيث اكتفيت برسالتي الأولى ورده الذي بيّن أنه إلى جانبي، لتنقطع عني أخبار الحصار لعدة أيامٍ قبل أن يأتيني أحد الحراس إلى حديقة القصر ذات نهار، أنبأني بوجود رسول من قائد الجند لدى البوابة، جاء مستبقًا وصول قافلة من الجرحى بينهم الأمير مالك واثنين من قادة الفرق وقائدة أسيرة من مملكة الوافدين تدعى ميرا.

أمرت بإحضاره إلى مجلس الملك متلهفة، ليخبرني أن قواتنا كانت قاب قوسين أو أدنى من دخول مملكة الوافدين إلى أن ظهر يوسف بقلب مملكته، فصد هجوم جنودنا موقعًا فيهم أولئك الجرحى وبعض القتلى، معقبًا بأن قواتنا لا زالت على بأسها وشدتها، وما وقع من مصاب كان بسبب تعجل النصر بهجومٍ سريع خاطف، ثم أكد على أن ذاك الخطأ لن يؤثر على سير الحصار، بل سيبقى على حاله في انتظار نفاد ماء المُحاصرين أو خروجهم بقواتهم المحدودة ليلاقوا قواتنا الضخمة، بالأخير نقل لي نصيحة قائد الجند بضرورة عدم تناقل أي أنباء عن عدد الجند المصابين أو القتلى، كذلك

عدم نشر أخبار سيد الوافدين كيلا تثير ذعرًا لا حاجة إليه بالمملكة، ضمانًا لذلك قال أن القائد شدد على المصابين بعدم التحدث سوى عن هجومٍ تم صده وحسب، آمرًا بتقسيمهم على دور العلاج الثلاثة بالمملكة بينما يُعالج الأمير مالك والقائدان بالمشفى الملكي جوار القصر، كما طلب أن يصير حبس القائدة المأسورة -تلك الشقراء التي رافقت يوسف- بسجن القصر حتى لا تكثر الحديث مع حرس السجن أو غيرهم وكي تكون لدى أأمن بقعة في المملكة.

وافقت على طلب قائد الجند الأخير بحبس تلك الأسيرة لدى سجن القصر قبل أن أسأل الرسول عن حالة الأمير مالك، أجابني أن إصابته ليست قاتلة ومن الممكن عودته لاستكمال علاجه برانتاز إلا أنه اختار القدوم إلى المشفى الملكي، أومأت برأسي متفهمة ثم أمرته بالانصراف لأعود نحو غرفتي تعتريني بشاشة أنعشت روحي إثر نجاة يوسف؛ أحسست أنني ألقيت عن كاهلي ذنبًا تعلق برقبتي منذ أسره، كما راودني بصيص أمل في رؤيته ذات يوم، إلا أن بشاشتي لم تستمر خالصة، ما فتأت أن مُزجت بريبة وترقب، بل وهاجمها شيء من الرهبة تسلل إلى قلبي لما تفكرت فيما ستسببه تلك العودة من قلاقل هنا، لم أدرِ هل يقتصر رجوعه على نصر مملكته والبقاء بعيدين فوق الجبال؟ وإن اكتفي

بهذا، هل سيدرأ ذلك الفتنة ولا يشعلها، أم أن المتربصين بي ينتظرون لحظة انكسار واحدة كي يشبوا إلى الواجهة؟ لكني انتويت ألا أترك الأمر مثل السابق، بل عقدت عزمي على المبادرة بخطوات استباقية مثلما أوعزت إليّ زهرة بل وأكبر.

مر يومان قبل أن تصل القافلة وتأتينا الشقراء إلى القصر مرتدية لملابس كتانية بيضاء، راقبتها من شرفتي أثناء استياقها عبر الحديقة، حالما قلت بذهني: «يا لها من فظة شرسة!»، لم أعرف ما الذي لبث يثير الحنق بداخلي منها، لم أطق مقابلتها، لذا بعثت زهرة بعد عدة ساعاتٍ لتتقصى أمرها وتسألها عن أخبار عودة يوسف، جاءتني بعد دقائق منقلبة الوجه يبدو الخوف على قسماتها، قالت أن ميرا هذه تؤكد على أن عودة يوسف لن تمر علينا بسلام، وأنه رجع عاقدًا العزم على الانتقام، حيث استطاع الوصول إلى الحوريات واستدعى عونهن، وأنه لن يتوقف حتى يصل إلى هنا، لم أخشَ من قولها لأن محاربة مثلها لن تُهوّن من أمر ملكها أبدًا، ربما هو ليس سيدها وحسب، ما رأيته بيوم الساحة لم يكن لهفة محاربة على ملكها بل حبًا تجسد في شجاعة أو عشقًا تمثل في قوة، إلا أنني لبثت أبغضها من تلك الساعة.

نفضت عن ذهني أمرها وأخذت أعد حالي لزيارة الأمير مالك، أحسنت التزين والتعطر في فستانٍ أسود قبل أن أتجه إلى المشفى الملكي، في الطريق اعتراني شيء من التخبط والاضطراب، صرت أناقش حالي، هل أخشى أن أقع في هواه أثناء تقربي منه من أجل منفعة أبتغيها، أم أنني لا أرتضي على نفسي تلك المراوغة باستخدام المشاعر والهوى، أم كل اضطرابي لسؤال لبث يطرحه عقلي دومًا: لم التشبث بمن لا أمل في الاجتماع به؟ لمَ التشبث بيوسف لأضيّع كل ما قد اكتسبه بنسيانه؟ لم الإبقاء على المستحيل ذاته وترك الممكن؟!

بقيت على حالي يتناوب قلبي وعقلي التراشق إلى أن بلغت غرفة مالك، ما إن رآني لدى الباب انتفض جالسًا على الرغم من إصاباته، أشرت له بالرقود ثم اقتربت بخطواتٍ وئيدة تتبعني زهرة، فيما وقف الحرس بالخارج، هيّأت لي مقعدًا إلى جوار مرقده، جلست فوقه وابتسمت قائلة: «أفزعني مصابك يا أمير رانتاز، ألا تهون على نفسك؟ لم غادرت بعد يوم الساحة نحو الحصار؟ ألم يكن البقاء بإمارتك خيرًا من ذلك؟».

لبث ينظر إلى وجهي كأنه لا يسمعني، مشدوهًا أو مغيبًا أو

لا يصدق حاله بأنني أمامه، ثم أفاق قائلًا:

«إن هذا المصاب هو خير ما ألمّ بجسدي منذ وعيت إلى الدنيا، لأني ارتأيت رعاية مولاتي بهذا القرب».

اعتلى الاضطراب وجهي، لم أعرف من الخجل أم من جرأته، لكن ما لمْ أدرك له تفسيرًا، أن وجه يوسف قفز إلى ذهني بغتة ليحجب عني نظرات مالك وكلامه الندي، بل وشعرت بذات الرجفة التي تعصف بجسدي كلما يحضرني ذكره، لأسلّم عندها بأنني يربطني به شيء يفوق الهوى، يستقر بأعمق أعماق كياني، لا سيّما من بعد لقائِنا الأخير بمحبسه قبيل هروبه يوم الساحة، كأنه أحيا ذاك الشيء -الذي يفوق الهوى- بقلبي منذ تلك الساعة فوق ما استقر بروحي من قبلها، ما تيقنت منه أنني لن أرتئي مالك حبيبًا، لا بلقائنا هذا ولا فيما سيأتي، بل سيظل طيف يوسف يطاردني، بالأحرى سيظل بداخلي.

حتى أنني عندما حاولت مجاملة الحديث المتغزل كي أتمم مقصدي، لم أجد ما أقوله، ليشعر مالك أنه أخجلني بكلماته ويستطرد قائلًا: «إن للملكة علينا حق بأن ندافع عنها بأرواحنا».

تلعثم ثم أضاف: «أقصد للملكة وللمملكة».

ابتسمت من تلعثمه فاستبشر بملء فيه قبل أن يواصل:

«لقد جازفت بروحي حين تسللت إلى مملكة الوافدين عبر نفقٍ قبع أسفلها، كنت أتعجل النصر كي أعود إلى الملكة لأخبرها أننا أتممنا لها مرادها، كدنا نحققه، فقد فتحنا البوابة المنشودة، إلا أن ظهور سيدهم هذا أضاع ما بلغناه، بينما أصبت بسهمين أحدهما بكتفي والآخر بظهري، لكني الآن اكتمل شفائي».

- دع عنك التعجل، وابق هنا إلى جواري حتى تطيب جروحك، من بعدها جهز حالك لأني سأكلفك بشأنٍ جلل هنا في المملكة.

- لكني...

قاطعته: «أتعترض على البقاء إلى جوار الملكة حين تعوز عونك؟».

ابتسم: «بل أستبدل الدنيا كلها للبقاء إلى جوارها وفي خدمتها».

قمت يعتريني الخجل من جديد، ابتسمت مودعة وواعدة بتكرر الزيارة قبل أن أنصرف نحو القصر، ما إن بلغنا غرفتي وجلسنا أنا وزهرة لدى المقعدين المجاورين لباب الشرفة،

ظهر جاد رفقة مربيته لدى باب الغرفة، فتحت ذراعي مبتسمة بملء وجهي، ليركض نحوي مرتميًا بين أحضاني، أجلسته على قدمي وقبلته باستبشار سائلة عن حاله بتلك الساعة التي قضاها من دوني، قطّب حاجبيه ورد لائمًا بأنه ما توجب أن أتركه وحده، إلا أنني داعبته حتى تهللت أساريره، ثم صرفت المربية لتبادر زهرة قائلة: «لم تخبرني مولاتي عن ذلك الشأن الذي تنتوي الإبقاء على مالك هنا في المملكة من أجله».

نظرت نحوها بثقةٍ ثم رددت: «أنتوي أن أُعينه وزيرًا بمجرد تعافيه، مع توجيه الثناء للوزير اللئيم حكيم عن السنين التي قضاها في خدمة المملكة».

اتسعت عيناها من الوهلة: «لكننا بذلك نضع الوزير في جبهة أعدائِنا».

- إن هذا الكهل لن يبقى في مركبنا إن علا الموج علينا، بالأحرى سيبادر إلى إغراقنا، نحن لا نخسر داعمًا حقيقيًا لنا بل منافقًا متقلبًا، في حين نعضد جبهتنا بمركز قوة، لن يقدروا على إزاحته.

قلّبت الأمر برأسها للحظات بعدها أردفت: «أظن أن للرأي وجاهة، لكن لا تظني يا مولاتي أن الأمير مالك سيكتفي

بالوزارة، إنه يهيم بك حبًا، قد يوافق تاركًا ولاية العهد بقريته على أملٍ في الزواج، ربما إن لم يصل مراده بعد برهةٍ ينقلب هو الآخر علينا عائدًا نحو رانتاز».

- عندها لكل حادثةٍ حديث، نحتاج قبلًا لتلك الفترة التي يعاوننا خلالها على تجاوز القلاقل كي يستقر الأمر لنا. لن تكون إزاحة الوزير حكيم آخر ما أبتغيه من تغيير، بل هناك خطوات أخرى يجب أن تُتخذ على عجل.

- يبدو أن مولاتي انتوت أن تُغيّر من نهجها.

ابتسمت شاردة بنظري: «منذ توليت وصاية المُلك قبل بضعة أشهر وأنا أرتكن إلى السلام والتعايش مع من أحاطوني، لكن ما حدث من وقت أسر يوسف حتى يومنا هذا علّمني الكثير، بل قد تقولين أنه أيقظني من ثباتي».

أنهينا حديثنا وغادرت زهرة، لتمر ثلاثة أيام خلالهن انتشرت أخبار عودة يوسف مثل انتشار النار في الهشيم، كنت موقنة من حدوث ذلك، يكفي أن يصل هذا النبأ من أحد الجند إلى زينة البحر، بعدها تتكفل هي وأتباعها بإذاعته، لكني لم أفزع بل لبثت أستند إلى قناعةٍ مؤداها أن العوام لن يستطيعوا خلخلة حكمي إلا لو ظهر بين حاشية القصر وأمرائِه من يستند إلى غوغائهم ليقنع بها القادة والأمراء،

ثم يبادر إلى القفز علي، إذًا لو وطدت أمري بالأعلى لن ينفذ لي تأثير من بالأدنى، لذا واستنادًا لتلك القناعة داومت على زيارة مالك كي أقنعه بالمنصب الذي ينتظره متأملة أن يكتمل شفاؤه على عجل، في حين استدعيت خلال الأيام الثلاثة قائد حرس الساحة، وقائد دار السلاح، وقائد حرس القصر، كل واحدٍ منهم على حدة بيومٍ منفصل، أغدقت لهم العطاء من مخصصاتي موعزة إليهم أن أمرَ الحكم تغير، وأنني لم أعد تلك الملكة التي تقف بعيدًا عن شؤون المملكة، بل أصبحت الآمرة الناهية، وأول ما في الأمر وعدتهم بتثبيتهم لدى مناصبهم طالما بقوا بصفي، ما يعني أنني سأعارض أي قرارٍ بعزلهم يصدر من قائد الجند بعد عودته، حيث كنت أعرف أنهم يخشون ذاك العزل بسبب فرار يوسف، كما أبلغتهم بقرار عزل الوزير المزمع لأبين لهم أن حديثي عن التغيّر ليس كلامًا وحسب؛ وافقوني على ذلك صاغرين فيما لم أدرك هل موافقتهم لبغضهم الوزير أم لأن هذا يؤكد ما أحكي عنه من تغيّر، لا سيّما أنه إن صدق إقدامي فسيبقوا إلى جوار الركن الشديد الذي يتمثل في شخصي.

مر يومان بعدها واستطاع مالك مغادرة المشفى إلى منزلٍ خصصته له قريبًا من القصر، حين أوعزت إلى قائد

دار السلاح بخطة العزل، قبل أن أسارع باليوم التالي إلى استدعاء الوزير وقادة الجند الثلاثة والأمير مالك إلى مجلس الملك، حيث سلّمت الوزير حكيم قرار إعفائِه من الوزارة باسم الملك، ليتبدل وجهه رغمًا عنه حالما جاهد محاولًا رسم التقبل والإذعان، من ثمَّ سلّمت مالك قرار تعيينه وزيرًا محل الوزير الراحل.

انفض المجلس على ذلك بينما أخذنا في تنفيذ باقي خطواتي التي رسمتها، حيث لم ترفع الحراسة عن الوزير حكيم بل استبدلها قائد دار السلاح بحرسٍ جديد، كُلفوا بحبس الوزير لدى منزله ومنع خروجه، حتى نعزله عن الكيد والفتن كما عُزل عن الوزارة، لحين عودة قائد الجند الذي انتويت النظر في أمرِه هو الآخر بعد رجوعه، إما ينصاع للوضع الجديد أو يُعزل كما عُزل الوزير حكيم، ثم أرسلت إلى القرى الخمس قرار عزل الوزير حكيم وتعيين الأمير مالك في الوزارة. بنفس الوقت كلفت مالك بأن تكون أول مهامه هي إبلاغ رسالة غير مباشرة لزينة البحر وأبنائِها وأبناء عمومتهم أنهم تحت أعيننا؛ لم يتأخر في ذلك بأن قام بتغيير حرس قصورهم ببعض الجند الذين يمتد أصلهم إلى رانتاز ويخدمون بدار السلاح لدينا في المملكة الأم.

ما إن أحسست باستقرار الأمر على ذلك قررت التهاون في أمر ميرا والنزول نحوها كي أتمم ما أبتغيه من خطواتٍ وجب أن تتخذ بعد ثبات حكمي، سبقني إليها بعض الحرس ليكبلوها جالسة فوق أحد المقاعد ويعدوا لي مقعدًا أمامها، ثم دخلت إلى غرفتها بوجهٍ جامد حين انصرف الحراس كما أمرتهم، جلست أرسم الثقة على وجهي إلا أن ابتسامتها بدت أكثر ثقةً من جمودي، يا لها من بغيضة حمقاء! كم أود أن أصفعها لتفيق، لكني قد أحتاج إليها فيما أنتويه، لذا تمالكت حالي وسألت:

«لمَ تثقين بهذا القدر أن سيدك يوسف سيجازف محاولًا الوصول إلى هنا، لو استطاع أن يفض الحصار من حوله؟».

زادت ابتسامتها: «لأنه وعدني أن نمضي ما بقي من عمرنا سويًا، سيحرك جيوش مملكة الوافدين من أجلي، إن يوسف لا يخلف وعوده إلا لمن لا يحافظون عليها، وأنا أنتوي أن أبقى على وعده».

استعرت النار بداخلي من قولها، بدا أن هذه الشمطاء تعرف ما بقلبي نحوه، بل تعرف الكثير، كما أنها تحاول استثارة غضبي بالتلميح لما أجبرت عليه من أسره، لكني حاولت تمالك حالي ورددت: «هوّني على نفسك، إن استطاع فض

الحصار وأراد سلمًا دائمًا معنا، قد أبعثك إليه بلا مقابل، أما تنفيذ وعده لكِ أو النكث به فليس من شأني، سيتعلق الأمر حينها بقلبه».

نظرت نحوي بحدة: «يبدو أنكِ تريدين اجتذابه نحو شركٍ جديد، إلا أنك لن تقدري على تكرار كيدكم، ولن أساعدك فيه حتى لو كلفني ذلك البقاء في سجونكم أبد الدهر».

- ما لا تعرفينه أن الأمر هنا بالمملكة تغيّر لتصير تحت طوعي، تصرفًا وليس اسمًا وحسب كما الماضي، لا تظني أنني أوقعته بذاك الشرك راضية، بل أُجبرت على ذلك، لذا أبتغي سِلمًا حقيقيًا الآن بعدما آل الأمر ليدي، ولا بُدَّ أن يكون لك دور في هذا الاتفاق المأمول، ستكونين هديتي إليه كبادرة على حسن النوايا.

أحسست أنها بدأت تجيل الأمر بذهنها لأول مرة لذا ردت: «هل ستبادرين إلى تحريري وإرسالي نحو المملكة بلا مقابل أو ضمانات؟».

- إن وافق على مراسلات الهدنة والسلام، سأبعثك بلا تردد.

عاودت التفكير بينما تسلط نظرها على وجهي ثم قالت:

«عندها قد أقنعه بالموافقة على سلامكم، فقد طلبه من قبل غولار إلا أنكم أعدمتم رسوله».

- كما أسلفت، إن الحال تبدل، لكن لنُبقي الأمر بيننا، لا تحدثي به أحدًا قط، أما عن يوسف فابقي على ثقة من كوني لا أريد له سوى الطمأنينة والسكينة التي يستحقها.

زمت شفتيها وكأن قولي عن يوسف أثار حنقها قبل أن ترد:

«وهل ستقدرين على قائد الجند؟ إن لديه نوايا مغايرة عما تتحدثين عنه، بل قد يصبح أول خلافكما بشأني، لا سيّما أنه يحكي أساطيرَ عن الحوريات عندما تنزل إلى أرض آربوس».

قمت واقفة استعدادًا للمغادرة وقلت:

«ليبقى عليكِ إقناع يوسف إن عارض، فيما يقع على عاتقي أمر هذه المملكة».

أنهيت حديثي وغادرت بينما صرت أعرف ما الذي يثير كرهي لها، حيث تيقنت أنني أرى ضعفي السابق وقلة حيلتي أمامها، أراها على النقيض مني، ضحت بروحها واقتحمت الساحة من أجله فيما لم أستطع أن أرفض التضحية بروحه، أغار من قوتها وتضحياتها، أراها أقرب إليه مني، هي من تستحقه ولو حاولت أنا الإنكار، إلا أنني لا أملك قلبي حتى

ولو لم أعد موقنة مما يستقر بقلبه، وحتى إن أصبحت لا أعرف من سيختار بيننا إن عزّ لنا اجتماع.

مر بعد لقائنا يومان قبل أن تأتينا أنباء جديدة من الجبال، بأن قواتنا حققت انتصارًا على قوات ملك الوافدين يوسف لما حاولوا الخروج لملاقاتنا، بل وفروا أمامنا هاربين نحو مملكتهم يجرجرون أذيال الهزيمة، لكن لم تتعقبهم قواتنا مخافة راجماتهم.

انتفاضة الوافدين

(يوسف)

أتممت دفاعات سور الشمال وبوابته ثم اتجهت من لديها متعجلًا نحو سورنا الجنوبي عبر الطريق المار بمنتصف المملكة، بينما سارت أفرودينا إلى جواري بنفس حماستي تتبعها الألف الباقية من الحوريات دون مشاعر تكسو وجوههن كما اعتدت رؤيتهن، أخذنا نتحرك بين أهل المملكة متجاهلين تصايحهم وتحياتهم، حيث أردت أن أستبق تنبه قوات الجنوب لأمرنا، بالأحرى ابتغيت استباق تيقظهم، لا سيّما أن الشمس لم تكن قد بزغت في السماء بعد وما تسلل منها هو خيوط النور التي تسبق ظهورها.

ما إن بلغت السور الجنوبي لدى بوابته الرئيسية بنهاية طريقنا، رأيت يزن يتحرك أعلاه مخاطبًا الجند، صعدت إليه كي أرصد خيمات آربوس الجنوبية بين ثنايا تضاريس قمم الجبال، وجدتها لا زالت في أماكنها، فتيقنت أنهم لم يبلغهم خبري، حالما قدّرت موضع مقدمتهم بأنها واقعة عند نهاية مدى راجماتنا المتوسطة، وقفت للحظات أتفكر في الأمر بعدها أبلغت يزن أنني أرغب في ضربتين متتاليتين، تنطلق كل واحدة منهما على نسقٍ واحد من لدى كل راجماتنا

متوسطة المدى الرابضات فوق السور بطوله، على ألا يفرق بين الضربتين سوى الوقت اللازم للتلقيم، ويكون ذلك مع إشارتي الأولى، ثم يستعد الملقمون من الجند لعدة ضربات متتاليات دون ترتيب من كل الراجمات بعيدة المدى عند إشارتي التالية، أحسست باستغرابه لا سيّما بخصوص الضربتين الأوليين لأنهما سيقعان قبل موضع الخيام أو بالكاد قد يلامسان طلائعهم، كما أن معسكرهم لا يشغل حيزًا من عرض القمم أمامنا إلا بقدرٍ قليل، يكفيه أن نقذف بالراجمات المواجهة له وحسب، لذا ظن أنهما ضربتين مهدرتين، لكني أوعزت إليه أنني أريدهما من أجل إفزاع جنودهم، لأن أول ما سيدور بأذهانهم مع صوت التفجيرات وجلبتها وانتشارها الواسع، أن اتفاق التسليم كان مكيدة لاجتذابهم إلى شركٍ محكم، لذا سيهرعون للفرار منسحبين بلا تنظيمٍ يتخبطهم الخوف من باقي تدابير ذاك الشرك، عندها لن يسلكوا ممرات المواضع المنخفضة بين تضاريس قمم الجبال فيبقوا تحت رصدنا، إلى أن يتوسطوا مدى راجماتنا الكبيرة فنمطرهم بالهجمة التالية من الضربات بعيدة المدى.

استمع لي يزن مشيرًا برأسه بمعنى التفهم حتى انتهيت ثم نزل عن السور، امتطى فرسًا من عند البوابة وانطلق يُلقن

قادة السرايا تعليماتي، بينما صعدت أفرودينا إلى جواري تسألني عما أنتويه، أخبرتها بتدبيري في عجالة وطلبت منها أن توعز لتابعاتها فوق السور بتقديم العون لمُلقمي الراجمات إذا ما طلبوا، أشارت برأسها موافقة قبل أن تتركني لتتحرك على السور بين جندياتها الرابضات فوقه. مضت برهة قبل أن يعود يزن مخبرًا بأنه أتم مهمته، حيث أمر بإطلاق الدفعتين الأوليين بمجرد أن تتفجر إحدى القنابل اليدوية خارج السور، بعدها ينتظر الجند وقع القنبلة التالية كي يطلقوا الدفعات المتعاقبات من الراجمات بعيدة المدى، لذا لم أنتظر بل استجمعت رباط جأشي آمرًا بتفجير القنبلة اليدوية الأولى كإشارة على بِدء الإطلاق الأول. ما إن علا صوت انفجارها؛ انطلقت قذائف راجماتنا تشق السماء حتى سقط معظمها متفجرًا على الأرض لدى خط عرضي متعرج وازى عرض سورنا إلا أنه كان قبل طلائع خيمات عدونا بأمتارٍ قليلة، فأصابتهم شظايا وقوة ضغط القذائف التي وقعت أمام خيامهم، في حين حالفنا الحظ ووقعت قذيفتان بين خيمات المقدمة محدثتين أثرًا شديدًا، لم تمر إلا قدر دقيقة وانطلقت الدفعة التالية قبل أن يفيق جنودهم من الأولى، ليفزعوا فارين من الخيمات نحو الجنوب بلا سلاح ولا عتاد، بل وتركوا خيامهم وأمتعتهم، في حين انطلقت أبواق من

عندهم بدا أنها نفير الانسحاب. صرت أتابع تراجعهم الذي لم يحافظوا فيه على السير خلال المواضع المنخفضة بين التضاريس بشكلٍ كامل، بل وانتشروا عرضيًّا بصورةٍ كبيرة إثر اندفاعهم نحو التقهقر مسرعين بعشوائية، مما جعلنا نرصد بعضًا منهم خلال بزوغهم لدى المواضع المرتفعة، انتظرت إلى أن أحسست بوصولهم لمنتصف مدى الراجمات البعيدة ثم أمرت بإشارة الإطلاق التالية.

عندها أخذت أذرع الراجمات البعيدة ترتفع قاذفة حممها بلا ترتيب، كل من يلقم يلقي، ثم يعاود الكرة، لتدوي التفجيرات متتاليات بينهم في أعالي التضاريس وأدانيها، فتصيب منهم من تصيبه ويهرع الباقون للنزول من المواضع المرتفعة هربًا من الحمم، لكننا كنا أدركنا موضعهم فواصلنا الإطلاق المتعاقب لأمد، حتى قدّرت أن الناجين منهم قد خرجوا من مدى الراجمات فأمرت بتوقف الضرب حالما بقيت موقنًا أننا أوقعنا فيهم مصابًا يقارب مصاب آربوس الشمالية بل ربما يزيد عنها.

ارتفع التهليل والصياح من جديد بين صفوف السرايا، بقيت بينهم على حماستي أتلقى التحية وأراقب أمر المنسحبين، موقنًا أن الجنوبيين سيبعثون رسولهم بعد

بعض ساعة محملًا بالوعيد والتهديد، لكني لم أنشغل بذلك، بل تركت يزن على السور موعزًا إليه ببقاء الجند على أهبة الاستعداد، ثم اصطحبت أفرودينا وبقية الحوريات كي أقابل الجنود الذين أمرت بتجميعهم، سلكنا الطريق المحاذي للسور الجنوبي متجهين نحو الشرق حتى انعطفنا في الدرب المار أمام المعسكرات، واصلنا خلاله إلى أن بلغنا معسكر المشاة، ولجت عبر بوابة سوره إلى فنائِه المتسع -أكبر أفنيتنا جميعًا- لأجدهم جمعوا الجند لدى صفوف متلاحمات أمام البناية الرئيسية في مواجهة البوابة، وقفت أمامهم مبتسمًا واثقًا، بينما وقفن الحوريات من خلفي، بعضهن داخل الفناء وبقيتهن بالطريق خارجه، عندما أخذت الشمس ترتقي نحو السماء من خلف مبنى المعسكر لترمي ظله فوقنا، حينها أخذت شهيقًا امتلأ بالأمل، وقلت بنبرةٍ رزينة ومرتفعة:

«لقد كنت قاب قوسين أو أدنى من الموت بساحة آربوس الشمالية، لكني لم أخشَ الموت ولم أبتئس، أتدرون لماذا؟».

اتسعت ابتسامتي وواصلت:

«لأنني عندما استرجعت رحلتي منذ وطِئت قدمي هذه الأرض، وجدت أنني لم أدخر جهدًا، لم أتخاذل، لم أُقصِّر أبدًا خلال رحلة بحثي عن الأمان، عن الملاذ، عن الوطن، حتى

وجدته بينكم، صنعناه سويًا، إلى أن تركته مرغمًا نحو حتفي الذي كان بيني وبينه قدر ذراع، إلا أنني استقبلت مصيري مطمئنًا إلى قناعة مفادها أنني أديت واجبي في حق نفسي وفي حق الخلق المظلومين من حولي، لكن لما قُدّرت لي النجاة من أولئك الظالمين، أيقنت أن واجبي لم يكتمل، أن النهاية لم تحن، لذا عدت نحوكم كي نكمل ما بدأناه، كي نحافظ على حياتنا التي انتزعناها من بين أيديهم، كي ندافع عن هذه الأرض التي صارت مملكة».

توقفت للحظة التقطت فيها أنفاسي قبل أن أواصل بصوتٍ أعلى وأحسم: «لقد عدت كي ندحر أولئك الذين يقفون متربصين لنهش لحومنا، ها هم فروا أمامنا كالخراف على الجانبين، ما الذي قد يمنعنا من إعادة الكرّة؟ ماذا يعيق خروجنا إليهم لنلقيهم عن الجبال؟ هم مثلكم بشر يقاتلون، لكن تختلف الدوافع، أنتم تقاتلون من أجل بقائِكم وبقاء أبنائِكم، تقاتلون من أجل حياة يغمرها ضوء الشمس الذي لن تروه إذا ما عدتم إلى الكهوف، تقاتلون لتعيشوا كالبشر، أما هم فيقاتلون من أجل إثبات فوقيتهم، كي يروا أنهم أسيادنا، كي يرضوا غرورًا توارثوه، فما رأيكم؟ هل دوافعهم أقوى حجة أم دوافعكم؟».

صمتُّ لأنتظر ردهم لكنهم لبثوا منصتين، لذا صرخت فيهم:

«دوافعهم أم دوافعكم؟».

ردوا عندها بأصواتٍ متداخلة: «دوافعنا».

صرخت فيهم من جديد: «دوافعهم أم دوافعكم؟».

عندها تجمعت أصواتهم في صوتٍ جهورٍ واحد: «دوافعنا».

- إذًا، إذا ما زاد الدافع أصبح المرء بعزيمة أشد، بروح أبتر، بقدرة أعلى. ينبغي أن يصير الواحد منكم بسريةٍ منهم لكن بشرط إخلاص الدافع والنية، أن يعقد كل منكم العزم على تقديم روحه من أجل تراب هذه المملكة التي ضمته وأحسنت إليه لسنوات. أعرف أن بينكم من ليس له أهل هنا ولا ولد، ومنكم من فكّر بشأن أسرته الصغيرة وحسب، لكن عليكم أن تدركوا أننا تجمعنا في عصبةٍ واحدة شقت طريقها عبر الصخور إلى أن ملكنا هذه الأرض، لنصبح من بعدها أبناء هذا المجتمع وشركاء فيه، يضمنا كيان واحد نتآخى في ظله، إن ولاءنا جميعًا لا بُدّ أن يُعقد لهذه المملكة بكل من فيها دون تفريق، بل ونقدم أرواحنا كيلا يضيع أثر من قدموا أرواحهم سابقًا من أجلنا، كيلا يضيع ما قدمناه من جهدٍ وعرق، كذلك كي تبقى الحياة قائمة بهذه الأرض من بعدنا.

إن الأشخاص زائلون، إن فقدت روحك اليوم في سبيل أن تترك من خلفك إرثًا لمن بعدك مثل هذه المملكة، لهو خير من أن تعيش في الجحور طيلة عمرك ثم تموت ويتعفن جسدك دون أن تترك ما يخلد كفاح حياتك، وما قيمة حياتك إن لم يكن لها نتاج شريف يبقى شاهدًا على مرورك بهذه الدنيا وكدك فيها، ما قيمة حياتك إن صرت كالأنعام لا تفكر إلا في نفسك، بل الأنعام تعيش في جماعات وتدافع عن بعضها. إن من يفكر في النجاة لنفسه هو أضل سبيلًا من الأنعام، لو بقينا معًا لن نهلك أبدًا، ولو تفرقنا فهو أول طريق الهلاك، سنقاتلهم وندحرهم، سنقاتل حتى آخر ساعد يستطيع حمل السلاح، سنقاتل حتى آخر قلبٍ ينبض، سنقاتل من أجل بقاء هذه المملكة، فكل صغارها أبناؤنا وكل عجائزها آباء لنا، سنقاتل وننتصر، سنعيد كتابة تاريخ آربوس لتُسطّر فيه نصرنا الذي سنصنعه بدمائِنا.

ما إن أنهيت مقولتي علا الهتاف باسمي يرج جنبات الفناء، إلا أنني أشرت لهم كي يتوقفوا عن الهتاف مواصلًا حديثي:

«لا أريدكم أن تهتفوا باسمي، إن لكل واحدٍ منكم نصيب في هذه المملكة، وكل واحد ما هو إلا جزء منها، إن بقاءها يتلخص في قناعتكم بذلك، أنها كيان يتشكل باجتماعنا، ما

الأرض والأسوار والبيوت سوى موضع اجتماع، والأصل هو الخلق المجتمعون على كلمة سواء، أما عني فما أنا إلا قائد أرشدكم، فأحبوها هي وأخلصوا لها أيًّا ما كان حاكمها».

عاد الهتاف أعلى من المرة الأولى لكن باسم المملكة، أحسست أن صداه يتردد في كافة أرجاء الجبال، كأنهم يزأرون ولا يهتفون، عندها اقترب مني قادة الجند الثلاثة يجرجرون أقدامهم، تيقنت أنهم جاءوني ليسألوا عن مصيرهم، رفعت يدي قاطعًا الهتاف حين وقف ثلاثتهم أمامي مذعنين، لأخبرهم أنني منفتح على العفو عنهم إذا ما أثبتوا عزمهم، كما أنني لن أعيد حبس من عاقبهم يزن من الرعاة الذين حررهم جمال بعد توليه، بل أرغب في رأب الصدع والمصالحة الكاملة بين كافة أهل المملكة، ولن يُعاقب سوى المخالفين من بعد قدومي؛ لاح الاستبشار على وجوههم فانتقلت إلى أمرهم بشد الهمم ومعاودة التدريب والاستعداد، مشيرًا إلى أن كلامي عن الخروج لم يكن تحفيزًا أجوفًا بل استعدادًا حقيقيًّا، بالأخير أوصيتهم بحصر الدور التي غادر أصحابها عند سقوط غولار من قبل أن يغلق يزن المملكة حتى نجعلها معايش للحوريات. أنهيت حديثي معهم وكدت أنصرف إلا أن قائد الرماة أخبرني أنهم أثناء تفقدهم الدور من أجل استدعاء الجند، وجدوا راميًا يُدعى

ماجد كان قد غادر المملكة قبل إغلاقها، رابهم أمر رجوعه فحبسوه بإحدى غرف المعسكر الفارغة حتى أنظر في أمره؛ اعترتني انتفاضة من ذكره وتيقنت أنه الخائن الذي اجتذب المتسللين، فيما تلهفت لمعرفة أي خبر عن ميرا، لذا أمرت قائد الرماة بإرشادي نحوه، لأتبعه يتخبطني الغضب واللهفة، إلى أن بلغنا غرفته، دخلت عليه وحدي، وجدتهم كبلوا يديه وقدميه وألقوه جوار الجدار، ما إن رآني انتفض شاخص العينين ثم قال:

«أقسم أنني انتظرتك لثلاثة أيام حتى اعتقدت أنك لن ترجع، عندها ارتأيت أن ميرا ستموت إن لم أتحرك، فأخذتها نحو أطباء آربوس الذين أنقذوا حياتها، هناك أبلغوني بأمر تسليم المملكة وأنها بكل الأحوال ستسقط».

على الرغم من استعار النار بداخلي منه إلا أنني اطمأننت لشفاء ميرا، لكني واريت ابتهاجي لذلك وسألت: «إذًا أنت من أرشدتهم إلى النفق؟».

- بل ميرا من أرشدتهم.

نظرت نحوه بعينين متقدتين أُكذّب قوله فاستدرك مسرعًا:

«لقد حاولت أنا وميرا بلوغ المملكة أثناء تحركهم مقتربين

منها فوق القمم، فهربنا منهم إلى الأنفاق لكننا لم نعلم أنهم يراقبونا».

ابتسمت بغيظٍ: «بل قل أن ميرا لم تعلم، وهل من الممكن أن قائدة مثلها سيهونون من أمر رقابتها بعدما تتعافى إلى الحد الذي يمكّنها من الهرب؟!».

نظر نحو الأرض آسفًا: «نعم هي لم تعرف أنهم يراقبوننا وظننت أن تحركهم هو ما هوّن من رقابتها بينما كان ذلك من تدبير قائد جندهم، أخبرني أنه يريد استباق قوات الجنوب في الدخول، وأنه سيحفظ لي أبنائي واعدًا بمنحنا صكوك معمرين، لذا دخلت برفقتهم عبر نفق ميرا».

- أتعرف أن خيانتك تسببت في مقتل مائتين من خير رماتنا، وأنها كادت تُسقط المملكة حتى بعد رجوعي؟

أجهش بالبكاء قائلًا:

«سامحني يا سيدي يوسف، أنا لم أفكر إلا في أبنائي».

- إنني سامحت الذين توافقوا على تسليم المملكة لأنها كانت فتنة، ظن البعض خلالها -مخطئين- أن التسليم سيحفظ أرواح الخلق هنا، ولم تؤدِّ فتنتهم إلى مقتل أحد، بل تداركناها، أما أنت فكنت تعرف أن خيانتك تُسقط المملكة

عنوة بلا اتفاق تسليم أو غيره، وأفقدتنا من هم خير منك أثناء دفاعهم عن أسوارنا، أما تفكيرك بأبنائك وحدهم فهو عذر أقبح من ذنب.

- سامحنى يا سيدي من أجل إنقاذي ميرا مرتين، الأولى لما قتلت رفقائي لأجلك وأجلها والثانية بعدما رحلت عنا.

هزت كلمته قلبي، كدت أن أسامحه إلا أنني استدرت مغادرًا، أمرت بحبسه لدى سجن المملكة حتى أنظر في أمر عقابه، ثم نزلت نحو أفروديتا، أخبرتني أن الحوريات يلزمهن الراحة قبل توسط الشمس للسماء، لا سيّما مع استتباب الأمر وعدم بزوغ ما يشير بأن هناك ما يهدد الأسوار، استجبت لها وأخذنا نحصر الدور الفارغة على عجل، بلغت ما يقرب المائة دار من طابق واحد وطابقين، ارتأيت عدم كفايتهن فأمرت بإفراغ معسكر الرماة كاملًا لبقية الحوريات على أن تصير استراحة المناوبين من رماتنا العائلين في دورهم، واستراحة غير العائلين بالمعسكرين الآخرين، لتأمر أفروديتا بعضًا ممن تبعنها باستقدام سائر الحوريات من فوق الأسوار وتوزيعهن بين الدور الخاوية ومعسكر الرماة، كما أمَرَت بأن يقسّمن من بعد راحتهن على مناوبتين مثل سائر جندنا على الأسوار، مع استثناء فترة ساعات القيظ الثلاث، فيها يخلدن جميعهن

للراحة بلا مناوبات، حيث تبدأ المناوبة الأولى بعد انكسار الشمس، وتبقى حتى انتصاف الليل ليتم التبادل وتبدأ المناوبة التالية التي تنتهي قبل انتصاف النهار بقدر ساعة، بذلك يبقين كلهن بالثكنات من قبل انتصاف النهار حتى بداية انكسار الشمس.

لم أعترض على كلامها ولم أتدخل في شأنها بل أمرت بتوفير الطعام لهن وإعطائِهن من ملابس جندنا الكتانية المصبوغة بلون جذوع الشجر، كذلك توفير كافة ما يطلبن، ثم تابعت استقرار أمرهن حتى انتهينا عند الظهيرة، ليبقى معي يزن وقادة الجند الثلاثة وأفرودينا بفناء معسكر الرماة، ظللت مستغربًا أنها لم تتخذ سكنًا لها، إلى أن مالت على أذني قائلة: «أين منزلنا؟ نحتاج للراحة أيضًا»، التفتُّ نحو وجهها الذي لم يتأثر بكل ما جرى من ركضٍ وقتال، بينما سرت بجسدي قشعريرة مما تقوله، تلعثمت واضطربت للحظات لكني أبلغت القادة أنني سأخلد للراحة لبعض ساعة. أخبرني يزن أن حراستي تنتظر عند معسكر الفرسان وأنه سيذهب نحوهم ليستدعيهم، لكني أوعزت له بأننا سنمشي حتى نبلغهم.

هناك رأيت في انتظاري قدر عشرين فارسًا وفرسين

خاليين، كدتُ أصرف بعضهم إلا أن يزن عاجلني قائلًا بأنه اختارهم على عينه لا سيّما أن الأمر لم يستقر بالكامل بعد ولا نعرف ما بقي بالنفوس، وافقته بإشارة من رأسي لأجد أفرودينا اقتربت من أحد الفرسين الخاليين، داعبت رأسه بيدها ووشوشته في أذنه لنلاحظ أنه مال برأسه عليها كأنه يداعبها، اقتربت ممتطيًا فرسي بينما أقول لها: «يبدو أن لديكِ كثيرًا من المهارات غير القيادة»، امتطت فرسها بيسر وردت: «كلها في خدمة سيدي ملك الوافدين».

عندها أمر يزن أحد الفرسان بالترجل ليأخذ محله، بدا أن الفرسين كانا لي وله، حيث لم يدر بخلدهم أن أفرودينا سترافقني، إلى أن سبِقت لأحد الفرسين فلم يستطع أحد معارضتها. امتطى يزن فرسه وانطلقنا حتى بلغنا منزلي، أدخلت أفرودينا إلى قاعة استقبالي عبر الباب الأساسي، ثم اصطحبت يزن نحو مجلسي من بابه الخارجي، حاول أن يسألني عن رحلتي لكني اقتضبت في الحديث عنها ليبادر هو في قص كل ما جرى منذ غادرت، حتى جاء على ذكر فارس، عندها اعترتني غصة حبست أنفاسي، كادت تدمع عيناي، إلا أنني تمالكت حالي لأسمع بقية ما جرى، فواصل حديثه بكل التفاصيل إلى أن ختم قوله بأنه على الرغم مما فعله جمال من خيانة إلا أنه لم يتوقع أن يبادر إلى قتلي،

وافقته على استغرابه بل ولبثت موقنًا أنه لا زال بالأمر خبيئة لم تظهر، بعدها حاول أن يسألني عما أنتويه بشأن الخروج والطريقة التي سنخرج بها، إلا أنني أوعزت له بأنني أحتاج للراحة، ثم نبدأ في تدبير أمر الخروج بعدما نستبين ردود فعل عدونا على الجانبين ونتقصّى أيضًا أخبارهم، فاعتذر عن تعطيله راحتي بخجله المعتاد قبل أن ينصرف نحو منزله.

ولجت إلى داري مشتاقًا لشرفتي المطلة على البحر، كأني أريد أن ألقي عبرها عبئًا ثقيلًا جثم فوق صدري، لا سيّما بعد خبر مقتل فارس بتلك الطريقة. عبرت خلال قاعة استقبالي فلم أجد أفرودينا لذا اتجهت نحو باب الشرفة، فتحته مسرعًا ووقفت مرتكزًا بمرفقيّ على سورها، أخذت ألتقط نسيم أواخر الربيع وأتذكر صديقي الأول، صرت أناجيه بلا صوت كأني أحادث نفسي:

آه يا فارس، يا أول من رعاني بهذه الأرض! لبثت أُكذّب حالي بشأن مصيرك، أنكر حقيقة أحسّها قلبي من يوم افتراقنا، إلى أن جاء قول يزن منهيًا لأملٍ زائف، معلنًا افتراقنا الأبدي، لكني أعدك أن يُخلّد اسمك أبد الدهر بين كل الخلق هنا، كبطلٍ لم يكن سوى رجلٍ عادي، دون نبوءات أو

علم أو غيره، إلا أنه كان صاحب عزيمة وإخلاص، كان ناصرًا للحق، كان فارسًا كما أسميته، مكث يرفع عماد هذه المملكة على ساعديه حتى زهقت روحه دونها، ليلحق بمن سبقه من الأبطال مثل أكمل.

ابتلعت ريقي والتقطت أنفاسي المضطربة منتقلًا إلى طيف ميرا، لأقسم أنني لن أتركها ولو نقضت أسوار آربوس حجرًا حجر، كي تعود لتشاهد نصرنا الذي ضحت من أجله مرارًا، ولكي تبقى آمنة إلى جواري، فلكم اشتقت لها وللطمأنينة التي أحاطتني دومًا بحضورها، لكم هويتها وهويت وجودها قربي، إلى أن صارت تحجب عني من سواها، لدرجة أنني أصبحت أشعر أن ما أحمله لإسراء هو ود الرفيقة التي صاحبتني من عالمٍ إلى عالم رفقة كثير من الذكريات السالفات، مضافًا لذلك قدرًا من المسؤولية نحوها يُحتّم علي اصطحابها نحو عالمها إذا ما ارتضت، بينما لا أحمل لها ضغينةً ولا كرهًا، لكن يبدو أن ميزان العدالة والإنصاف غلب ميزان القلب والهوى بينها وبين ميرا.

بقيت على ذلك إلى أن جاءت أفرودينا لتتكئ إلى جواري حتى تلامس كتفها الأيسر كتفي، وجدتها ارتدت من ملابسي قميصًا كتانيًا أزرق فوق ذلك اللباس المعدني، ولفّت قطعة

قماش أخرى كتنورة غطت خصرها حتى ركبتيها، بينما ربطت عصابة صغيرة أعلى غرتها حجبت لؤلؤة ميلادها، بدت أكثر فتنة في ملابسنا حين قالت: «سيكون هذا لباس سائر الحوريات من بعد استراحتهن».

أشرت برأسي موافقًا دون رد، ثم عدت بوجهي نحو البحر لتولي وجهها نحوه مثلي وتقول: «سيكون مشهد الغروب من هنا ساحرًا».

رددت:

«سيصير أكثر سحرًا عندما تتحرر المملكة وعندما أحرر من ضحّت من أجلها، ثم ننظر بعد ذلك في أمر سائر الأرض».

لم تشح بوجهها نحوي بل ابتسمت مردفة:

«سيصبح أكثر سحرًا بعدما تملك نصف بر آربوس على الأدنى وفقًا لعهدك، أما بخصوص صاحبتك فعد لعشقها بعد مغادرتي، لا تظن أني زوجتك قولًا وحسب، بل زوجة مثل بني البشر، تستطيع أن تنجب طفلًا منك، إلا أنني لن أرغمك على ما لا تريده، لكن الحورية لا تجتمع بغيرها مع رجلٍ واحد إذا ما نزلت إلى الأرض».

أيقنت عندها أن النساء يظللن نساءً حتى لو قدمن من

البحر أو هبطن من السماء، ذلك قبل أن أرد:

«أنا لم أذكرها بعشقٍ في حديثي، بل ذكرت تضحيتها، ولم أقل أنني سأتزوجها قبل مغادرتك بل قلت أبتغي تحريرها».

- وإن بقيت فلن تنالها.

- لم قد تبقين؟

- أتعارض ذلك؟

- لا أعرف، لكن أغلب ظني أنك ستغادرين ما إن ننهي عهدنا.

ابتسمت مغيرة دفة الحديث وقالت:

«أعجبتني قيادتك، بدوت حكيمًا شجاعًا مخلصًا، كنت أظن أنني سآتي معك كي أقود لكن اتضح أن هنا قائدًا قد يجاوز شأنه زهير الأول».

- علمتني القراءة كثيرًا وقتما كنت بعالمي، ثم تعلمت هنا القتال من أجل الحياة.

- إذن لتأخذ نصيبك من الراحة الآن، فلدينا الكثير من هذا القتال فيما بعد.

وافقتها على ذلك وغادرنا الشرفة، أخبرتها أنني سأترك

لها غرفتي لتبقى راحتي على أريكة قاعة استقبالي، أشارت برأسها موافقة واتجهت نحو غرفتي في سكون، لأمدد جسدي فوق أريكتي وأغمض عينيّ لساعاتٍ طوال، لم أدرك خلالهن أنني واصلت النهار بالليل حتى استيقظت بشروق اليوم التالي، لأجد أفرودينا جالسة على مقعدٍ إلى جواري، أخبرتني أن يزن جاء يسأل عني ست مرات طوال نومي إلا أنها لبثت تصرفه بكل مرة، اعتدلت جالسًا وسألتها عما أراده، أجابت بأنه لم يخبرها، فقمت إلى الباب آمرًا أحد الحراس باستدعائه، ليأتينا من فوره في قاعة استقبالي قائلًا: «أدركت لم حاول جمال قتلك يا سيدي، فقد جاء ثلاثة رسل من لدى آربوس الجنوبية عند غروب اليوم السابق حاملين جوالًا ألقوه قرب البوابة ورحلوا، وجدنا فيه رسالة ملئها الوعيد والتهديد، إلى جانب رأس ابن جمال الأكبر، فأمرت بتفتيش منزل جمال لأصل لمراسلاته معهم، عرفت منها أن ملك الجنوب عندما أراد التوثق من جدية جمال في التسليم بعدما وعده بالأمان الكاذب للمملكة، طلب منه أن يبعث له أحد أبنائِه بين رُسلنا إليه كي يبقى معه حتى إتمام التسليم، ووعده في هذه الرسالة بإرسال صكوك معمرين له ولكافة أسرته ما إن يبقى ابنه بحوزتهم، ويبدو أن الرُسل في المرة التالية ذهبوا ثلاثة بينهم ابن جمال وعاد اثنان فقط، وبالفعل

وجدت صكوك المعمرين بين طيات الأوراق التي اكتشفتها لدى منزل جمال، ولما سألت قادة الجند عن ذلك أجابوا بأنهم لم يبلغهم خبر تلك المراسلات، فقد اعتاد جمال اختيار من يبعثهم وحده من الفرسان المقربين له، لا سيّما بعد تهلهل أمر قواتنا وعدم إلمامهم بمن رحل من الفرسان عن معسكرهم ومن بقيَ، لذا فقد كان لجمال سبب زائد من أجل إتمام تسليم المملكة غير أمان أهلها، ظهر أثناء الأيام الأخيرة وهو وجود ابنه هناك وصكوك المعمرين التي اكتسبها».

ساءني ذلك ورددت حانقًا: «ألا يفكرون سوى في ذلك الصك اللعين؟ كل من تذل قدمه يقول أنه وُعد بصك، أقسم أنني سألغي تلك اللعنة حينما تخضع لي هذه الأرض، لكن الآن علينا العمل فيما أمامنا فقد تركتموني في ثباتي لأمدٍ طويل».

أطرقت للحظات ثم واصلت سائلًا:

«أخبرني، هل بعثت آربوس الشمالية رسالة هي الأخرى؟».

هز رأسه نافيًا:

«يبدو يا سيدي أنهم منتوون على طول الحصار دون تفاوض أو مراسلات.

أومأت بمعنى التفهم عاقدًا العزم على بدء التحرك، ثم أمرته باستدعاء قادة الجند الثلاثة وقادة الفرق الذين يلونهم لنناقش أمر الحرب في مجلسي، حيث انتظرتهم برفقة أفرودينا لديه، ما إن جاؤونا واقفين أمامي أنا ورفيقتي أخبرتهم بأننا لن نرد على ملك الجنوب، بل ستبلغه أخبار عودتي مع الأيام القادمات قبل أن نتجه إليه لنرد رسالته بالفعل وليس بالأقوال، ذلك لأننا سنبدأ بقتال آربوس الشمالية. بدا عليهم الإذعان والترقب فاستدركت قائلًا: «نحن نعرف منذ سنوات أن قوة الشمال الضاربة هي سلاح الفرسان سواء في ذلك المدرعين بدروع كاملة أو الفرسان الخفاف ذوي الدروع المحمولة باليد أو حتى الفرسان رماة الأسهم، فيما يبدو أننا صرنا أكثر تفوقًا في الرماة، لكن إذا ما استعرت حرب تتلاحم فيها الصفوف سيظهر تفوقهم علينا، إلا إذا أدرنا الحرب وفقًا لتدبيرٍ يقوّض أسباب تميزهم، لذا أحتاج إلى تحديد موضع واد يقع بيننا وبينهم خلال تضاريس قمم الجبال شمالًا، أجتذبهم إليه لتدور فيه رحى المعركة الفاصلة، على أن يكون خارج مدى راجماتنا، لأنهم لن يأتونا في هذا المدى وهم يعلمون أننا سنقذفهم إذا ما جاؤوا، لكني أريده بعد نهاية هذا المدى بقدر قليل».

رد قائد المشاة قائلًا:

«إن قمم الجبال مليئة بمثل هذه الوديان خلال تضاريسها».

عاجلته:

«لذلك أريد إرسال متسللين عبر تضاريس القمم، يكثرون ليلًا ويقل عددهم نهارًا ليخبرونا بمثل هذه الوديان التي تطابق وصفي كي يقع اختيارنا على أحدهم، كذلك سيتولّون رصد موقع عدونا ومراقبة تحركاته، من بعدها أريد التمويه بخروج قوات من الفرسان حتى هذا الوادي الذي سننتقيه، كأننا انتوينا القتال، لتطير أعين عدونا التي تملأ الجبال مخبرين بأمرنا فتهب قواتهم لمواجهتنا. أعرف أن موقع الوادي سيكون أقرب إليهم منّا لوجوده خارج مدى الراجمات كما أسلفت، إلا أن كون تحركهم رد فعل لتحركنا سيجعلهم يستغرقون وقتًا في التجهز وتنظيم الصفوف قبل الخروج، عندها تنسحب قواتنا المحدودة مستبقة وصولهم كأن الرعب أصابنا ما إن علمنا بتحرك جحافلهم الكبيرة، هذا كله لنظفر بحساب كل تفصيلة صغيرة بدقة بالغة، أريد معرفة الوقت اللازم كي نتمركز عند الوادي، والقدر الذي يستغرقه تجهزهم ووصولهم إليه، والمسافة الفاصلة بين موقعه ونهاية مدى راجماتنا البعيدة، كذلك أريد معرفة ترتيب قواتهم وطريقة اصطفافها وتحركها، كل معلومة قد تبدو

هينة إلا أنها ستفرق في رحى الحرب، كما أن هذا التمويه بالانسحاب سيعطيهم دفعة معنوية تفيدنا فيما أخطط له بشأن المعركة الفاصلة».

رد يزن: «أنت تعرف يا سيدي أن مملكتنا تمتد من لدى الحواف المطلة على البحر غربًا، لكنها لا تصل حواف قمم الجبال بالشرق، هذه المنطقة من بعد سورنا الشرقي حتى الحواف كانت ثغرة وقتما صعدت قوات الجنوب بأول الحصار، هي بقعة صغيرة ووعرة التضاريس إلا أن بعض سرية منهم تسللوا خلالها حتى دمروا راجماتنا التي كنا نضعها على امتداد حواف القمم شمالًا، مما أدى لصعود قوات آربوس الشمالية بعدها، ما أقصده أننا يجب أن نحتاط لتلك البقعة إذا ما أردنا الخروج حتى لا تعبرها قوات الجنوب وتحاصرنا من الخلف».

- هذا قول حسن، وسنحتاط لذلك بأن نضع الألغام لدى المسارات المحتملة بتلك البقعة، كما سنترك بها بعض سرية أثناء خروجنا، لكنها بالأخير تبقى منطقة وعرة تسمح بتسلل قليل من الجند في وقتٍ طويل، فيما يصعب تحرك الجند بأعدادٍ كثيفة خلالها، إلا أنني أنتوي أن أضمها للمملكة بعد انتهاء هذه المحنة حتى تقسم مملكتنا طول هذه السلسلة

الجبلية إلى شطرين، ولا يمر أحد بعدها من الشمال إلى الجنوب فوق القمم إلا من خلالنا».

وافقوني جميعًا بإيماءات من رؤوسهم، لذا بدأت أمليهم تعليماتي وأوزع الأدوار بينهم مسبّقًا أمر المستكشفين، كي يحددوا موقع الوادي المطلوب ببادئ الأمر، على أن يأتي بعدها سائر الخطوات، من ثم انصرفوا إلى مواقعهم.

مر بعض يوم واظبت فيهم على ملاقاة جند الفرسان وتحفيزهم لدى فنائهم، بل وأشرفت بنفسي على كثير من تدريبهم، لا سيّما أنهم سيصبحون أصحاب الدور الأكبر في التمويه أولًا وفي المعركة بعدها، كما تكررت نقاشاتي مع أفرودينا ويزن وقادة الجند الثلاثة، بخصوص الخروج وكيفيته ووقته وطريقة تنظيم صفوفنا وغيرها من سائر الأمور المتعلقة بالحرب، ذلك قبل أن يُبلغنا المستكشفون عن موقع أكثر من واد، رسموهم فيما أشبه الخرائط البدائية، ليستقر رأيي بعد المشورة والنقاش على أحدهم، بدا متوسط العرض بقدر ثلاثمائة ذراع، يحده من الشرق -الذي سيكون على ميمنتنا وقت القتال- جُرُف وحُفر حادة تمتد حتى حواف القمم الشرقية، بذلك تمنع التسلل من لديها كيلا يلتفوا ويحيطونا، ويقبع إلى الغرب منه أي عن ميسرتنا

بروزات ومرتفعات بعضها هين وأكثرها حاد تصل حتى الحواف الغربية للقمم، ما عنيَ صعوبة شن هجوم من خلالها، بينما امتد طول الوادي بقدر كبير يسمح بتلاقي الجيشين فيه، في حين ربض مدخله من ناحيتنا عند نهاية مدى راجماتنا البعيدة، وقبل هذا المدخل استقر سهل كبير مستوي تنمو فيه بقايا عشب أخذ يذبل.

مر يومان أعدنا فيهما ترتيب أمورنا ووضع خططنا، وفي صباح اليوم الثالث تحركت كل قوة الفرسان الخفاف غير المدرعين، حاملين للأعلام وضاربين للأبواق، ومنظمين في صفوف متباعدة توحي للناظر من بعيد بكثرتهم، في حين استبقيت خروج المدرعين بالدروع الكاملة للحرب الحقيقية، احتسبنا الفترة التي استغرقها جنودنا حتى بلغوا الوادي وتراصوا في نصفه من ناحيتنا، ليأتيهم بعد قدر ساعة قوة آربوس الشمالية بكامل عتادها، لكن قبل أن يصلوا فر جنودنا راجعين، لتتقدم قواتهم حتى ملأت ذاك الوادي عن آخره، إلا أنهم لم يتقدموا أكثر من ذلك، بدا أنهم يعلمون أن مدى راجماتنا البعيدة يبلغ المدخل الذي يقع في ناحيتنا.

استفدت من تلك التجربة أن تجهّز جنودنا خلف الأسوار وخروجهم على حين غرة دون استعداد قوات الشمال

يمنحنا ساعة قبل تجهزهم ووصولهم إلي الوادي، لا سيّما أن ارتداء الدروع الثقيلة يستغرق وقتًا، فما أن بلغتهم أخبار خروجنا ضربوا الأبواق عندهم ليسارع كل جندي منهم إلى عتاده ويصطف بموضعه المجهز سلفًا حتى استعدوا بالكامل بعد وصولنا للوادي بنصف ساعة، ثم استغرقوا نصفًا آخر إلى أن بلغوه، ما عنيَ أننا لو واصلنا إليهم سيصيرون بكامل تجهيزهم قبل بلوغنا تخومهم المحصنة براجماتهم ورماتهم.

إلى جانب أنني عرفت تشكُّل قواتهم بالمناطق المتسعة والمناطق الضيقة، في الأولى يسيرون بجيش نظامي من وسط يتقدمه قدر خمسة آلاف من الفرسان المدرعين بدروع كاملة، يأتي بعدهم الفرسان الخفاف، وميمنة وميسرة يتقدمهما الفرسان رماة الأسهم بالناحيتين لتأمين المدى المواجه للتقدم من أي رماة مواجهين، بينما يلحقهما المشاة في الجانبين، إلا أنهم في حالة المرور بالمناطق الضيقة مثل ذاك الوادي فإنه يتقدم القلب أولًا من الفرسان المدرعين، يلحقهم الفرسان الخفافن يليهم الفرسان رماة الأسهم، ليبقى بالأخير مُشاتهم، اتضح أنهم على الدوام يضعون قوّتهم الضاربة التي لا تؤثر فيها السهام لدى المقدمة، بل قد لا تؤثر فيهم القنابل اليدوية الصغيرة، ولا السهام المفخخة من شدة صنعة دروعهم كما رأيت حين غنمنا بعضها بيوم دخولنا

غولار، بالأخير جاءت استفادة عظيمة بأنهم بعثوا باليوم التالي رسالة جديدة تطلب استسلامنا بدا فيها أنهم اعتقدوا هروبنا أمامهم لما رأينا جحافلهم الضخمة، فبعثت ردي بأن عليهم لتجنب الحرب أن يبعثوا لنا ميرا وينسحبوا دون قيد أو شرط ليأتي ردهم أننا لم نرَ بأسهم بعد.

خلال فترة المراسلات بدأت أضع خطة الحرب الفاصلة، ولما انتهى التفاوض برفضهم أمرت أفروديتا بنشر خمسمائة حورية خارج المنطقة المستوية التي تقع أمام سورنا الشمالي، على أن يتناوبن مع خمسمائة من رماتنا طوال ساعات الليل والنهار كي يمنعوا وصول متسللين إلى هذه المنطقة فيروا ما نعد، استمر ذلك ليومين تيقنت فيهما أنه ما عادت هناك أعين متسللة ترى هذه المنطقة، ثم قمت في الليلة الثالثة بفك عشر من خيرة الراجمات بعيدة المدى من فوق السور الشمالي، وأعدت تركيبها عند نهاية تلك المنطقة المستوية أمام السور، في خمسة صفوف متراصات، بحيث يربضن في مقابل هذا الوادي وفقًا لما حدده مستكشفينا بدقة، ذلك كي يمتد مداهم لتُسقط قذائفهم بقلب الوادي وليس عند مدخله، كما خصصنا ثلاثين قنبلة بارود من أكبر قذائفنا ليُطلقن على ثلاث دفعات عبرهن، وفي الفجر التالي تجهزت قواتنا بقلب فناء المشاة، ثم خطبت فيهم

بالثبات والإخلاص والتضحية حتى ارتفعت حناجرهم بالهتاف للمملكة، قبل أن يتحركوا من خلفي أنا وأفرودينا، بينما استبقيت يزن على راجمات المنطقة المستوية لينتظر إشارتي.

في مقدمة قواتنا وضعت الفرسان المدرعين بالدروع الكاملة كي أوحي لعدونا أن خروجنا هذه المرة مدفوعًا بهذه الدروع حتى لا يتساءلون لمَ عدنا للخروج، تلاهم الفرسان الخفاف، بعدهم جاء المشاة، في حين اصطحبت كافة الحوريات مقسمات على الميسرة والميمنة، بينما تركت رماتنا فوق الأسوار مستعدين بكامل عتادهم تحسبًا لأي إخفاق.

ما إن بلغنا الوادي تراص فرساننا المدرعون في صفين بعرض الوادي تلاهم الفرسان الخفاف في ستة صفوف، بعدهم جاء المشاة في ستة عشر صفًا متباعدين بقدرٍ قليل حتى ملأنا نصف الوادي لدى ناحيتنا، في حين أمرت حوريات الميسرة بتسلق ما يمكن ارتقاؤه من المواضع المرتفعة بالغرب على ميسرتنا، كي يربضن بين ثناياها ليمنعن أي تسللٍ خفيف من خلالها، بينما ربضت حوريات الميمنة قبل منطقة الجُرف والحُفر بالشرق عن يميننا ليمنعن التسلل من لديها أيضًا، فيما بقيت أنا وأفرودينا نراقب سير المعركة

من فوق أحد المرتفعات المطلة على الوادي.

أردت بذلك أن أحصر القتال بقلب الوادي وحده لأنفذ خطة معركة موهوكس التي قرأت عنها في كتب التاريخ قديمًا، حين استدرج السلطان العثماني سليمان القانوني قوات المجر إلى مدى مدافعه، بأن انسحبت قواته من أمامهم أثناء القتال مظهرة التقهقر، لتتقدم القوات المجرية إلى الموقع المقصود ثم يُبيدهم بقذائف المدافع التي ربضت بعيدًا، وهذا ما انتويته.

ما إن بلغت طلائع جيشهم إلى مشارف الوادي، وجدت فرسانهم المدرعين تراصوا بقدر عشرين صفًا، ثم اندفعوا للقتال بحميةٍ رهيبة مستبقين وصول باقي قواتهم من خلفهم. كانت خطتنا تعتمد على الصمود عند التلاحم وعدم تغلغلهم لصفوفنا كي يبقى القتال دائرًا بصفيّ المواجهة الأمامية لأطول قدر، ثم ننتظر أن يكتمل اصطفاف قواتهم بالوادي ونبدأ بعدها في التراجع بروية مظهرين التقهقر تحت وطأ ضرباتهم، لكن لم تمضِ سوى دقائق وظهر بأس فرسانهم المدرعين جليًا، بدوا أشد قوة وأكثر تنظيمًا، كلما كلّ مقاتل تراجع بخفةٍ ليأتي من يحل محله بطاقةٍ كاملة، ساعدهم في ذلك كثرة أعدادهم وسهولة التبادل بينهم كأنهم

يحفظون بعض، في حين حاول جندنا الاستبسال والثبات متنادين بالتضحية من أجل المملكة، إلا أن بسالة فرسان مقدمتنا لم تمنع فرسانهم من إحداث ثغرة في منتصف صفوفنا الأمامية، ليسارع كثير منهم إلى اختراقها والتوغل عبرها باستماتة، حتى بلغوا مشاتنا قاسمين اصطفافنا إلى نصفين بواسطة اندفاع مخترقيهم وضراوة ضرباتهم، لدرجة أنهم لو واصلوا تفوقهم في المقدمة وحافظوا على فجوتهم بين صفوفنا سيصلون نهاية جيشنا، ليحيطوه بداخل الوادي ويمنعون خروجه إلى أن يفنوه كاملًا لا سيّما عندما يواجه الفرسان المدرعون مشاتنا من الخلف، لم أملك عندها إلا الصراخ عاليًا في الجند بالثبات من أجل المملكة والاندفاع لسد الفجوة التي تواصل تمددها، إلا أن أفرودينا انتفضت صارخة في حوريات الميسرة القريبات منا فوق المرتفعات، أمرتهن بالاقتراب من المواضع المطلة على القتال، ليركضن ويتقافزن حتى تمركزت كثير منهن ببقعٍ أشرفت على الوادي، عندها صرخت من جديد:

«اقنصن المخترقين لصفوفنا، أطلقن في فتحات أعينهم، أطلقن في فاصل الكتف، أطلقن في كل بقعةٍ تظهر من أجسامهم».

حينها انطلقت سهام الحوريات لتقنص المخترقين من الفرسان المدرعين، أصبنهم بدقة مستحيلة في فواصل الدروع، صاروا يسقطون بين جنودنا واحدًا تلو الآخر، ولما رأى جند صفوفنا الخلفية ما جرى، تحفزوا وزادت عزيمتهم حتى أجهزوا على بقية المتسللين بين الصفوف ووأدوا فجوتهم، لتصرخ أفرودينا في جندها من جديد بتحول القنص إلى المدرعين من قوات آربوس بصفيّ المواجهة الأمامية، لتنطلق سهامهن نحوهم ويظهر شيء من الغلبة لنا في المقدمة، ويتحفز جنودنا لديها أكثر كارّين بشجاعة، إلا أننا وجدنا فرسانهم رماة الأسهم الذين وصلوا إلى ساحة الوادي خلف فرسانهم الخفاف، شرعوا يمطروننا في المرتفعات بسهامهم، لا سيّما مع أعدادهم الكبيرة، كما أن مشاتهم الذين جاؤوا بالأخير ظهر بينهم مشاة رماة أخذوا يصعدون تلك المرتفعات من ناحيتهم ويرموننا بالسهام هم الآخرون، فانشغلت الحوريات بأولئك الذين يرتقون المرتفعات وصرن يبادلنهم الرمي، عندها عادت بوادر تفوق فرسانهم المدرعون واقترب نفاد أسهمنا لشدة القتال، إلا أنني استبقت ذلك وهتفت آمرًا بإطلاق بوق التراجع؛ أخذت قواتنا تتراجع بترتيب ونظام، بِدءًا بالصفوف التي بالمؤخرة ثم التي تليها، يساعدهم في ذلك تحول الحوريات بين الفينة

والأخرى إلى قنص المدرعين بصفوف المواجهة، قبل أن يعودوا للتراشق مع محاولي التسلق، إلى أن أشرفت قواتنا على الخروج من الوادي بأكمله، فلاحظت أن قواتهم أخذت تتمهل في تتبع قواتنا لظنهم أنني أريد خروجهم إلى السهل القابع خارج الوادي كي أقذفهم بالراجمات، إلا أنهم في هذا الوقت صاروا ممددين في سائر الوادي، في حين تراجعت قواتنا منه إلى السهل، هنا صرخت في أفروديتا بإطلاق الإشارة، لتسرع إلى إطلاق سهمٍ في اتجاه المملكة، الذي سقط بموضعٍ حُدد سلفًا، ليرتفع سهمٌ آخر من مكان سقوط سهمها اتجه بذات المسار، وسهم تبعه سهم إلى أن بلغ الأخير موقع يزن، لأرى عندها القذائف العشر تحلق في السماء حتى سقطت متفجرة بقلب الوادي وسط صفوف قوات آربوس، عندها تطاير جندهم من شدة التفجير وهلل جنودنا هاتفين بحياة المملكة، بينما اعترت جسدي قشعريرة ضربت كافة أوصالي ليقيني ساعتها من النصر.

ما هي إلا دقيقة وانطلقت الدفعة التالية بينما يتخبط فزع الموت من بقوا من جند آربوس، حيث حاول قسم ممن نجوا من الضربة الأولى أن يستديروا ويفروا، لدرجة أن بعض الفرسان دهسوا المشاة أثناء محاولة التراجع، فيما بادر قسم آخر للفرار إلى الأمام نحو جنودنا لكننا واجهناهم وأعملنا

فيهم القتل، ذلك إلى أن دوّت الضربة الثانية ولحقتها الثالثة، لتجهزا على ما تركته الأولى وتُسقطهم قتلى وجرحى بساحة المعركة، حين بدا أنه لم ينجُ منهم إلا أقل من خُمس قواتهم ولّوا الأدبار مذعورين، لتنتهي الحرب وكأنني كررت موقعة موهوكس بحذافيرها لكن بمساعدة الحوريات اللائي لولاهن لانهزمنا أو ربما كنت أضطر إلى إفناء قواتنا وقواتهم لنبقى من بعدها دون رجلٍ يستطيع حمل السلاح. لم أحاول تتبعهم حتى لا أقع في مدى راجماتهم وقوات الدفاع عن معسكرهم، إلا أنني بقيت على يقين أن لي هجومًا آخر بالقريب العاجل وفقًا لترتيبٍ جديد وخطةٍ جديدة وبعد تغيّر ميزان القوة لصالحنا.

لملمنا الغنائم وحصرنا قتلانا الذين لم يزد عددهم عن مائة فارس ومثلهم من المشاة، ثم أقفلنا عائدين للمملكة نزف بشرى الانتصار. قابلنا الخلق خارجها لدى المنطقة المستوية مهللين وهاتفين بينما شقت صفوفنا تجمهرهم حتى عدت بالجنود إلى ساحة المملكة، ليحيطنا سائر أهلها مواصلين هتافهم وتحياتهم، فصعدت المنصة ورفعت يدي ليسكت الخلق جميعًا ثم خطبت فيهم قائلًا: «إن صاحب الحق أقوى وأنتم أصحاب حق من أسمى الحقوق، ألا إنه حق الحياة، إننا ثابتون لن يزعزعنا عن ثباتنا أن يجتمع كل من في هذه

الأرض علينا، إننا ندافع بحياتنا عن الحياة ذاتها وما فعلناه ما هو إلا البداية».

توقفت للحظات ألتقط أنفاسي قبل أن أواصل: «لتعلموا أن النصر صبر ساعة، ولولا الذين صبروا في هذه المعركة وغيرهم من الصابرين منذ بداية الحصار لما وقفتم هنا أمامي الآن مهللين، فاستوصوا بالصبر واستوصوا بالحق وتذكروا دومًا من ضحوا بأرواحهم من أجل هذه الساعة، لا تنسوا أكمل، ولا تنسوا فارس، ولا أيًّا من جنودنا البواسل الذين زهقت أرواحهم من أجلنا».

نزلت بعدها عن المنصة يرافقني أفرودينا ويزن حالما تبعنا الحرس، إلى أن بلغنا منزلي، ما إن استقر ثلاثتنا بقاعة استقبالي وجدت زوجة يزن جاءتني تحمل ابنتها زادة، هنأتني باكية، فأخذت ابنتها على يدي قائلًا: «إن ما نصنعه هو من أجل من هم مثل زادة من أبنائِنا»، ردت: «إننا جميعًا فداءً لك وللمملكة يا سيدي يوسف».

داعبت ابنتها وتحادثنا قليلًا قبل أن يتركونا لأشعر في نظرات أفرودينا بشيءٍ من التغيّر، حين جلست إلى جواري على أريكتي قائلة: «إن زوجي ملك الوافدين يشد قلبي نحو حياة البشر بما فيها من عاطفة».

ابتسمت: «كل صنف من الحياة يحوي مزاياه، ربما إن استطعت تجربة حياتكن، قد أقع في هواها».

ردت: «لا أظن».

قالتها وتركتني متجهة إلى غرفتها لألج إلى شرفتي تعتريني نشوة النصر، موقنًا أنني سأكمل في طريقي لأحرر ميرا أولًا، ثم لأضع من بعدها قواعدي لكل هذه الأرض، إلا أن الصباح التالي حمل مفاجأة لم أتوقعها، لا سيّما مع عجرفة قائد جند الشمال، حيث أخبرني المستكشفون أن قواتهم عاجلت في المساء إلى الفرار خفافًا بما بقي من جنودهم الذين لم يتجاوزوا قدر خمسة آلاف مقاتل، تاركين من خلفهم راجماتهم وكل ما ثقل حمله. بعثث قوة من الفرسان بقيادة يزن ليتيقنوا من حقيقة الأمر، أوصيتهم تحري الحيطة مخافة أن يكون شركًا، لكنهم عاودوا بعد بضع ساعة بقدرٍ من الغنائم مؤكدين ما جاء به المستكشفون، بل وزادوا على ذلك بأن قواتهم لم تعد ظاهرة بالأفق، بدا أنهم فروا بذعر، ما ساءني أنني لبثت أتمنى تحرير ميرا هنا لدى الجبال قبل أن يهربوا بها، إلا أنهم بذلك أخّروا تحريرها، لكنهم ضاعفوا رغبتي في غزوهم.

لم تتوقف المفاجآت على ذلك، بل ما إن بلغ ملك الجنوب

أنباء انتصارنا الساحق، وقبل أن نبدأ استكشاف جانبه لنضع تدبيرًا مغايرًا له، استبق ذلك وبعث طالبًا السلام معنا بعد يومين من انسحاب قوات الشمال، بأن عرض الانسحاب الكامل بقواته دون شرط أو قيد على ألا تتم ملاحقتهم أثناء تراجعهم، وأن نعود لاتفاق السلام القديم. تشاورت في الأمر مع أفرودينا ويزن وسائر القادة، ثم بعثت ردي بالموافقة على طلب سلامه وعدم الاعتداء بيننا لمدة عام قابل للتجديد كلما انتهى، إلا أنني رفضت إمداده بالقنابل مثلما كان يجري بالمعاهدة القديمة، كما طلبت ألفيّ فرس لإتمام الاتفاق. أتي رده باستغنائه عن البارود، كما وافق على أن يبعث خمسمائة فرس كل عام مع تجديد العهد بيننا؛ ارتضيت عرضه وتممنا اتفاقنا على ذلك عن طريق الرُسل، لتنسحب قواته عن قمم الجبال بعد خمسة أيام من انسحاب قوات الشمال وتعم الاحتفالات كافة أركان المملكة بالنصر الذي تحقق.

بليلة الاحتفال وما إن عدت برفقة أفرودينا إلى منزلي اتجهنا نحو الشرفة، جلسنا متجاورين على ذات المقعدين اللذين اعتدنا أنا وميرا الجلوس عليهما، لتنظر نحوي وتقول: «ما دمت قد اتفقت على السلام مع الجنوب، إذًا ما عاد لدينا سوى الشمال لنملكه».

ابتسمت موليًا وجهي إلى البحر: «هل أنتِ في عجلة من أمرك؟».

- بل أريد إلقاء هم العهد عن كاهلك، حتى تعود الزورجولات إلى البحر، وتستقر حياة الحوريات فيه.

- وحياتِك؟

اقتربت بشفتيها من أذني وهمست كأنها تنفّث سحرًا إلى عقلي:

«سيتحدد مصير حياتي وفقًا لما يرتضيه زوجي سيد الوافدين».

أدرت وجهي نحوها مدققًا في تفاصيلها كأنها سحرتني بهمسها، بينما أحسست أنها تواصل السحر بنظرات عينيها الزرقاوين اللتين لم يفصلهما عن عينيّ سوى قدر أنامل.

صراع القصر

(مارينا)

بعدما استقر أمر المملكة في يدي إلى حدٍ كبير، جاءنا نبأ انتصار جيشنا على قوات الوافدين، قالوا في رسالتهم أن جيش يوسف حاول كسر الحصار بالخروج للقتال، إلا أنهم ما إن رأوا جحافلنا الضخمة تراجعوا فارين إلى أسوارهم، يومها أتاني مالك مهنئًا في مجلس الملك، يكاد الابتهاج يقفز من عينيه، لم أجلس عندها فوق كرسي العرش، بل جلست قبالته في صفيّ المقاعد الكبيرة كنوعٍ من تقريب الفوارق والود، أخذ يؤكد على منعة وبسالة جندنا، وأن جيش الوافدين مهما زادت عزيمته لرجوع قائده سيبقى جيشًا غجريًا يقاتل بلا منهج، إن واجهناه ألف مرة سننتصر بكل مرة منهن، مضيفًا أنهم لا يعرفون خطط الكر والفر والاستدارة والتطويق، لا يُدركون معنى لمحاولة صنع الثغرات واختراق الصفوف، قبل أن ينتقل إلى قص حكاياته عن الحروب التي خاضها، وكيف كانوا يضعون خطة مختلفة لكل حرب، ثم وقف بين صفيّ المقاعد بحماسةٍ ليشرح لي تراص القوات قبالة بعضها وكيفية المواجهة، لكنه لما أراد الجلوس مرة أخرى لم يعد إلى مقعده، بل جاء إلى المقعد المجاور لمقعدي مكملًا حديثه

الحماسي ناظرًا نحوي بثبات، لم أعرف هل تعمّد ذلك أم كان الأمر عفويًا، إلا أنني تجاوزته مواصلةً في إنصاتي الشغوف، لينتحي بعد برهةٍ نحو ذكر أحد المعارك التي رآني لأول مرة بعدها في يوم آربوس التالي.

هنا أخذ صوته في الخفوت تدريجيًا، واستبدل الحماسة في عينيه بالهيام، بادئًا في قص حاله عقب رؤيتي، وكيف صار من بعدها يتوق دومًا إلى المجيء إلى آربوس الشمالية بعدما كان يشعر بثقل طلتها. حاولت تغيير دفة الحديث والهرب بنظري من تحديقه ناحيتي، إلا أنه مكث متشبثًا بكلامه الذي صار يُلمّح بالعشق أكثر من أي وقتٍ مضى، ذلك حتى لامست يده يدي بطريقةٍ جاهد ليجعلها عفوية وغير مقصودة، وقتها لم أدرك ما الذي أوقد النار بجسدي، ارتسم على وجهي نفور مفاجئ منه ومن حديثه دونما أحسب لذلك حسابًا، ليتراجع بذكاءٍ مغيرًا دفة الحديث إلى المملكة وشؤونها، ما علينا المسارعة فيه وما علينا التأني بشأنه، إلا أنني صرت فاقدة لتركيزي وانتباهي، لذا حاولت الاقتضاب في ردودي إلى أن أنهى حديثه واستأذن منصرفًا.

في الأيام التالية بدا رسميًا بقدرٍ كبير، لم يعد يختلق الحجج لزيارتي، كذلك اعتاد ألا يرفع عينيه في وجهي حين

يقابلني، كأنه أراد أن يأخذ خطوة للوراء أو يحاول اختبار قدره عندي، لكنه على الرغم من ذلك لبث مواصلًا بنفس حماسته في تعضيد شأن حكمي بالمملكة، أما أنا فحاولت أن أبقى على حالي، أبين حاجتي إليه وتقديري لدوره دون إظهار مشاعر أو هوى، وكم كان الأمر معقدًا، مثل أن تقف وسط صحراء قاحلة، على أحد جانبيك بحيرة ولدى الجانب الآخر سراب، بينما لا تعرف أيهما الحقيقة وأيهما الخيال، وإلى أي جانب ينبغي أن تتجه كي ترتوي. مكثنا على هذا الحال حتى جاءتنا أخبار الطامة الكبرى عن إفناء معظم جيشنا، وأن البقية فروا عائدين نحونا، يومها بدا مالك غير مصدقٍ لما حدث، مذهولًا مما جاءنا، أما أنا فلم أعرف هل أبتهج لاكتمال نجاة يوسف واحتمال عقد سلام يقرب بيننا، أم أبتئس لأجل هذا المصاب الجلل الذي حاق بجنودنا، فقد لبثت أتأمل انسحابهم منذ التغير الذي أحدثته بشأن الحكم، لكن دون هذا الانكسار، بأن يعودوا إثر هزيمة أهون أثرًا، أو دون خسائرٍ تذكر، كي تبقى قوتنا على حالها ونترك ليوسف مملكته فوق الجبال، إلا أنني بالأخير أقنعت حالي أنها تبقى خطوة أولى في طريق التصالح الذي ابتغيت أن نسير فيه، كما أنه لا زال لدينا كثير من الجند بسائر قرى المملكة مثلما أخبرني مالك ليطمئنني. وعلى الرغم من ذلك الخبر الصادم

لم أنشغل بما سيردد الخلق بآربوس، لأني بتّ على قناعة أنه لم يبقَ سوى إذعان قائد الجند ليكتمل استقرار مراكز القوة بيدي، موقنة أنه لن يجرؤ على المعارضة أو الكيد لا سيّما وهو عائد يجرجر أذيال الخيبة والانكسار، بل فكرت في عزله ما إن يصل هو الآخر حتى آمن مكره، إلا أنني فضّلت تأجيل ذلك إلى أن أستوثق من أمره، خاصة أن مالك أخبرني أن سائر جند المملكة يقدرونه ويبجلونه وإن اختلف بعض القادة معه ببعض الأحيان، ما شغل ذهني أكثر من أمر عزله أو الإبقاء عليه، هو التفكير في توقيت إرسال طلب السلام إلى يوسف، وهل سيقبله لنعيش متجاورين في طمأنينة ووئام، أم يرفضه ممعنًا في الخصومة، وله كل الحق في الحالتين بعد ما ذاقوه، لكني تماديت بأفكاري وصرت أتساءل: أئن قبِل الاتفاق هل من الممكن أن يرتضي لقائي إن طلبت، حتى ولو ذهبت إليه فوق الجبال؟ أمن الجائز أن تكون هناك حياة أخرى تنتظرني برفقته ذات يوم بأي وسيلة قد تظهر، أم أن ميرا سلبته لبه كما تحكي؟

مر يومان تناقشت فيهما مع مالك كثيرًا بشأن ما أنتويه، قبل أن تصل طلائع الجيش إلينا، مخبرين أن قائد الجند أمر بانصراف قوات إمارات القرى نحو قراهم، بينما سيصل جنود آربوس وحدها خلال بعض ساعة، يومها استبقت اكتمال

وصولهم وأوعزت لقائد دار السلاح بأنني أبتغي لقاء الجند العائدين قبيل الانصراف لراحة ما بعد الحرب، كما أمرته بصرف منحة من عملات آربوس الذهبية لكل واحد منهم بعد إتمام هذا اللقاء؛ وافقني على ذلك مشجعًا، ثم سارع إلى تنفيذ تدبيري، ليعاودني بعد الظهيرة قائلًا إن صفوف الجند بانتظاري.

اتجهنا بصحبته أنا ومالك نحو دار السلاح في موكبٍ ملكيّ من عربةٍ مغلقة جلس فيها ثلاثتنا، يتبعها ويسبقها صفان من فرسان حرس القصر، لألاحظ خلال طريقي وجومًا اعترى الوجوه، بل ساد كافة طرقات المملكة وأبنيتها، بدوا خائفين مما سمعوه، مترقبين لما ستسفر عنه الأيام، لا سيّما وقد تربوا على أن وافدي الجبال وقائدهم مجرد همج إن تمكنوا من الأمر سيصيرون مثل الوحوش الضارية، وها هم كسروا جيشنا الذي لبثوا يظنون هنا أنه أمانهم، فما عاد بالصدور سوى الخوف، لذا أيقنت أن ذلك سيعينني في أمري، إن أخبرت أنني أسعى لاتفاقٍ لن أجد من يعارض، لكني ارتأيت أنني لو تحدثت عن السلام وحده سيظنون في ضعفًا، إذن لأحدثهم عن هدنة نلتقط فيها أنفاسنا، لأتركهم يجربون الطمأنينة في كنفها إن تمت، حتى ألملم سائر أطراف اللعبة بيدي معمرين وقادة وأمراء، من بعدها أكون القاطعة في

الأمر وحدي.

وصل الموكب إلى دار السلاح ليتجاوز بوابتها ويقف أمام صفوف الجند، وجدت قائدهم حارث يستقبلني أمامهم، بدا منكسرًا، أضعف من أي مرة رأيته فيها سابقًا، كذلك بدا مستغربًا من هذا اللقاء الذي طلبته مع الجند، لا سيّما أنني لم أعتد مثل هذا الأمر؛ أيقنت أنه دار بذهنه ما أنتويه من الإلمام بسائر الخيوط حتى عوام الجند، لذا حاولت أن أشد عزمه بكلماتٍ بسيطة لأوحي له أنني أعوزه بصفي لدى نظام الحكم الجديد، أحسست في عينيه أنه التقط ما أريد إيصاله لذا تبدل وجهه قليلًا إلى الحماسة، وأخذ يتوعد الوافدين بأننا سنرد لهم الصاع صاعين، لكني أخبرته أن لنا حديثًا لدى مجلس الملك بشأن نوايانا معهم، ثم تحركت لأقف أمام صفوف الجنود، بدوا أمواتًا في ملابس أحياء، يعتليهم الذعر والخوف والخذلان، نظرات شاردة ووجوه هائمة، يريدون الذهاب نحو أبنائهم وزوجاتهم كي ينهاروا بين أحضان منازلهم، إلا أنني لمحت في نظرتهم نحوي شيئًا من الحنق واللوم، لم أعرف لماذا أو ما الذي تناقلوه بينهم من أخبار، هل يتعلق الأمر بهروب يوسف من لدينا وحسب أم بالأمر تفاصيل أكثر؟ لذا لم أحاول الإطالة وبدأت حديثي معهم قائلة:

«لقد أصاب الحزن كافة أهل المملكة لمصاب فقدانا، إلا أن عزاءنا الوحيد هو رجوعكم إلينا سالمين، لن ننسى تضحيات الجميع عائدين أو مفقودين، فأنتم أمان هذه المملكة وإقدامكم من أجلها هو ما يديمها شامخة، كما أبتغي أن أؤكد لكم أن الانكسار الذي حدث لن يزعزع ثباتنا، لا سيّما أن جند مملكة آربوس بكل إمارات قراها لا زالوا يملأون الآفاق، إلى جانب أننا كسبنا خلال حربنا هذه استعادة غولار وتدمير قلعة سرابوس، فهل يعد ذلك هزيمة وإخفاق؟».

التقطت أنفاسي وواصلت: «إن ما حدث من اختراق أدى لهروب سيد الوافدين بيوم الساحة لم يتوقعه أحد، فلم نتدبر له هنا في المملكة، كما أنكم لم تحسبوا حسابًا لرجوعه نحو الحصار، لو علمت بأيامها أن قادة الجند لدينا سيفرطون في سائر الجنود الباقين بالمملكة ليبعثوهم نحو مواضع المواجهة بالقرى أو إلى الحصار لرفضت ذلك أشد الرفض، ولاستبقيتهم حولنا، فأنا أعرف مدى مكر سيدهم هذا الذي علّمه لتابعيه، لكنني اعتدت بالسابق ألا أتدخل في أمور الجند وقادتهم، إلا أنني انتويت تغيير ذلك بعد الذي جرى، لا سيّما أنني أعرف جيدًا كيفية التعامل مع ذاك الماكر الذي يُدعى يوسف، فلا بُد أن يؤخذ بالحيلة والدهاء قبل الشدة والمنعة،

لا بُد أن نستخدم المكر الذي يبرع فيه، وكما جئت به مقيدًا بالسابق، أبتغي وأد فتنته للأبد».

توقفت لبرهة كي أرى مردود كلامي في وجوههم، الذي جاهدت فيه من أجل نفي تهمة التهاون عن نفسي ملمّحة إلى أنني من استطعت أسر يوسف ذات يوم، كما حاولت الإشارة لنظام الحكم الجديد معللة ذلك بإدراكي لسبيل التعامل معه، لكني لم ألحظ تغيّرًا في وجوههم، بقوا على نظراتهم الشاردة لذا واصلت:

«أنا لا أقول أنني سأعيده مقيدًا مثل المرة الأولى، لكن ما أنتويه هو عقد هدنة سلام معه، أعرف جيدًا كيف سأجبره عليها، ذلك كي نلتقط أنفاسنا ونعيد ترتيب صفوفنا، من بعدها سنرد له الصاع صاعين ونخبره بمدى بأسنا.

بالأخير لن أطيل عليكم، اذهبوا لراحتكم في أمان، بعدما يمنحكم قائد دار السلاح منحتنا الملكية التي لا توازي تضحياتكم، لكن اعتبروها هدية رجوعكم سالمين من الملكة مارينا واصية حكم الملك جاد بن زايد».

أنهيت حديثي واستدرت عائدة نحو عربتي يرافقني قائد الجند ومالك وقائد حرس القصر، لأوعز لهم أنني أريد اجتماعًا لنا بالمساء لدى مجلس الملك مع سائر قادة الجند

لدينا بالمملكة، ثم انصرفت برفقة مالك، ما إن بلغت القصر اتجهت نحو ميرا، أخبرتها أن أوان رحيلها قد اقترب؛ تهللت أساريرها وكاد ابتهاجها يفيض من عينيها قبل أن ترد قائلة: «أعدك أنني سأسعى من أجل هذا السلام الذي تبتغينه، كما أعدك أن أدعوك إلى مملكتنا ذات يوم، كي تري حياة الوافدين التي جاهدوا من أجلها».

ابتسمت لها وانصرفت لأستعد لذلك اللقاء بالمساء، الذي سيمثل أول تحدٍ حقيقيٍّ بيني وبين قائد الجند، لكني بقيت مستندة إلى اتفاقاتي مع سائر القادة الذين يلونه مستعدة للإطاحة به إن عارض، لتمر الساعات سريعًا ويأتوني بالمساء، مالك، قائد الجند، قائد دار السلاح، قائد الساحة، قائد البوابة الشمالية، وقائد البوابة الجنوبية، وجدوني جالسة فوق كرسي الملك بشموخٍ يعتلي رأسي أكبر تيجاني، بادرتهم بالحديث عن خطتي للصلح مع يوسف، وأنني كما أقنعته أول مرة أستطيع إقناعه مرة أخرى، لا سيّما وأن لدينا ما سنقدمه كبادرة على جديتنا في السلام، وهو تلك الأسيرة، لألاحظ تبدل وجه قائد الجند، ثم قاطعني قائلًا: «أريد إخبار مولاتي الملكة أن هذه الأسيرة تعرف طريقة صنع البارود، وهو سلاحهم الذي يتفوقون به علينا، هو ما سبّب هزيمتنا، وهو ما سيظل شوكة في ظهرنا، أنا لا أعارض هذا السلام،

لدينا بالمملكة، ثم انصرفت برفقة مالك، ما إن بلغت القصر اتجهت نحو ميرا، أخبرتها أن أوان رحيلها قد اقترب؛ تهللت أساريرها وكاد ابتهاجها يفيض من عينيها قبل أن ترد قائلة: «أعدك أنني سأسعى من أجل هذا السلام الذي تبتغينه، كما أعدك أن أدعوك إلى مملكتنا ذات يوم، كي تري حياة الوافدين التي جاهدوا من أجلها».

ابتسمت لها وانصرفت لأستعد لذلك اللقاء بالمساء، الذي سيمثل أول تحدٍ حقيقيٍّ بيني وبين قائد الجند، لكني بقيت مستندة إلى اتفاقاتي مع سائر القادة الذين يلونه مستعدة للإطاحة به إن عارض، لتمر الساعات سريعًا ويأتوني بالمساء، مالك، قائد الجند، قائد دار السلاح، قائد الساحة، قائد البوابة الشمالية، وقائد البوابة الجنوبية، وجدوني جالسة فوق كرسي الملك بشموخٍ يعتلي رأسي أكبر تيجاني، بادرتهم بالحديث عن خطتي للصلح مع يوسف، وأنني كما أقنعته أول مرة أستطيع إقناعه مرة أخرى، لا سيّما وأن لدينا ما سنقدمه كبادرة على جديتنا في السلام، وهو تلك الأسيرة، لألاحظ تبدل وجه قائد الجند، ثم قاطعني قائلًا: «أريد إخبار مولاتي الملكة أن هذه الأسيرة تعرف طريقة صنع البارود، وهو سلاحهم الذي يتفوقون به علينا، هو ما سبّب هزيمتنا، وهو ما سيظل شوكة في ظهرنا، أنا لا أعارض هذا السلام،

لكن يجب ألا نضع فيه تلك الأسيرة».

رددت بحزمٍ: «وهل تظن أنه قد يوافق على السلام من دونها؟ وهل تظن أن مثلها وهي التي ضحت بروحها يوم الساحة قد تعطيك أسرار البارود؟ لا تعتقد أن كل الخلق ستفلح معهم أساليب التعذيب والترهيب، بل ربما تلجأ لإنهاء حياتها إذا ما ضاق عليها الخناق، إذن فلنستغلها الاستغلال الأمثل قبل أن تبادر إلى ذلك».

لاحظت عدم اقتناعه إلا أنه استسلم سريعًا دون جدالٍ مخلفًا ظنوني، بينما بدا على سائر القادة اقتناعهم بتدبيري، لذا واصلت قائلة: «إن جنودنا منهكين، لن يطيقوا حربًا أخرى في القريب العاجل، كما يجب ألا ننسى ملك الجنوب وماذا سيسفر عنه صدامه مع يوسف، أظنه سيسارع إلى السلام معه بعدما يعرف بما جرى لجيشنا ثم ينسحب إلى أرضه، وعندها قد يستغل أي قلاقل بيننا وبين الوافدين ليبادر نحو غزونا لدى الشرق كما يأمل، لذا ينبغي أن نتيقظ لذلك ونستبق إلى تأمين خطوط المواجهة معه بديلًا عن استدعاء كافة الجند لحرب جديدة».

توقفت من جديد أقلب وجهي بينهم، بدوا أكثر اقتناعًا بحديثي، فيما بدا مالك مبتهجًا لقدرتي على شرح ما اتفقنا

عليه بإسهابٍ وتفصيلٍ دون إخلال، لأبادر بعدها إلى إخبارهم أنني سأبادر إلى إعداد مراسلاتي مع يوسف، ثم أنهيت اللقاء مستبقية مالك وحده، أخبرني أنني كنت قوية ومقنعة، لكنه حذرني من رد فعل قائد الجند على الرغم من إظهاره الإذعان، لأنه من تلك النوعية التي لا تبادر إلى المواجهة إلا بعد تنظيم أمورها، ناصحًا بأن نبقى على تيقظنا وتوثقنا من قادة الجند ومن حكام إمارات القرى، إلا أنني طمأنته إلى أنه ما عاد يستطيع أن يواجه كل ما أعددناه، لكن في الصباح اتضح خطأ وجهة نظري وسلامة رأيه، حيث هالني أني وجدت مالك يوقظني من مرقدي مرتجفًا ومن خلفه زهرة ليقول: «حدث ما كنت أخشاه، علينا الهروب الآن بلا تأخير نحو رانتاز لتبقي على ملك ابنك بل لتبقي على حياتكما».

انتفضت من سريري شاخصة العينين دونما أتحرك إلا أنه عاجلني: «إن قائد الجند لم يرسم الإذعان إلا لتدبير أمره، فبعدما انسحب جيشنا من الجبال قام بصرف قوات رانتاز وقوات قسطا إلى قراهم قبل أن يصل إلينا، موحيًا لهم أنه سيصرف سائر جند إمارات القرى، بينما استبقى جند زورين وجند كيبول متوارين بين ممرات التلال بالاتفاق مع حاكميهما لمعرفته بنقمتهما عليكِ واتفاقهما مع زينة البحر وابنها ضياء، كما أنه أعد كثيرًا من جند المملكة العائدين

أمس لهذا الانقلاب، ثم أتانا راسمًا الإذعان ليرى أمرنا في حين تجهز للغدر، إن هذه القوات على مشارف المملكة، وسيبدأ الغدر من داخل المملكة وخارجها خلال ساعة، لعزلك وعزل جاد وتعيين أخيه الأكبر ضياء، مبررين ذلك بضعف حكمك وتسببك في ضياع نصر المملكة، وقد يزيدون على ذلك رغبتك في تحرير الأسيرة التي سيقنعون الخلق أنها طوق النجاة، وأغلب ظني أن قادة الجند هنا سينقلبون علينا ما إن يكثر المنقلبون من حولهم ولا يستطيعون صدهم».

انتفضت ساعتها أرتدي ملابسي حين نصحني مالك بارتداء ملابس عادية وتغطية رأسي، ثم واصل قائلًا:

«لقد جاءني النبأ عبر أحد الجند من بين القوات الرابضة خارج المملكة، تسلل نحوي ليخبرني بالأمر مستبقًا قدوم سائر القوات، لكني لا أعلم هل اتفقوا مع قادة الجند هنا أم لم يتفقوا بعد، إلا أنني أعتقد أن حرس القصر هنا لا زالوا جاهلين بالأمر، ولم أجد قائدهم حين جئتك، لكنهم استغربوا من اصطحابي عشرين فارسًا إلى فناء القصر من جند رانتاز المخلصين الذين كانوا يخدمون هنا بالمملكة، فأخبرتهم أنها أوامر الملكة لشأنٍ خاص بالمراسلات، مضيفًا أن الأمر عاجل. سنهرب مع فرساني عبر البوابة الشرقية متجنبين المرور

بالبوابتين الكبيرتين».

أنهيت إعداد حالي مسرعة، احتضنت جاد إلى صدري بقوةٍ، ثم قلت لمالك بينما ينتفض جسدي:

«نريد أن نأخذ ميرا معنا، إنها ورقتنا الرابحة».

تردد للحظاتٍ إلا أنه نظر من الشرفةِ مخاطبًا أحد حرس القصر بالفناء، أمره باستقدام ميرا نحو الفناء بعد تكبيلها وفقًا لأمر الملكة، ثم نزلنا بعدها مسرعين، أخذنا من خيل القصر لي ولميرا وزهرة دون عربات، قبل أن ننطلق قاصدين البوابة الشرقية من حولنا مالك وفرسانه، بينما أُمسك لجام فرسي بإحدى يديّ وأمسك جاد أمامي على صهوته بالأخرى، حين بدا مذعورًا يرتجف جسده مثلي، إلى أن بلغنا البوابة، أمرت بفتحها لنا لنعبر خلالها مسرعين، لكني ما إن نظرت خلفي نحو المملكة وجدت عددًا كبيرًا من الفرسان ظهروا قادمين من بعيد في نفس الطريق الذي سلكناه، أدركت أنهم جاؤوا لتعقبنا، لذا أعطيت أمرًا لحرس البوابة بعدم فتحها لمن يأتي من بعدنا، ثم سارعنا إلى الفرار دون أن أعرف هل سينفذون أمري أم لا، لكن بدا عليهم أنهم سيطيعون لأن الأخبار لم تكن قد بلغتهم بعد، ليصبح ذلك آخر أمرٍ أُصدره بين أسوار المملكة.

تم الجزء الثاني بفضل الله، يتبعه بإذن الله الجزء الثالث والأخير.

لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

عبد الفتاح عبد العزيز الرصيف